قصة مدينة الحجر

اسماعيل كاداريه

رواية

د. عفيف دمشقية



دار الآداب

قصة مدينة الحجر

اسماعيل كاداريه

قصة مدينة الحجر

رواية

ترجمة
د. عفيف دمشقيّة

دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى

١٤٠٩هـ ١٩٨٩م

كانت مدينة عجيبة تبدو، مثل كائن من كائنات ما قبل التاريخ، وكأنها برزت بغتة في الوادي ذات ليلة شتوية لتصعد بمشقة سفح الجبل. وكان كل شيء في هذه المدينة عتيقاً ومن حجر، من الشوارع وسبل الماء حتى سطوح المنازل الكبيرة الدهرية المغطاة بصفائح حجرية رمادية شبيهة بحراشف ضخمة. وكان يشق على المرء أن يصدّق أن لحم الحياة الرخص كان يعيش ويتوالد تحت هذه القوقعة.

وكانت المدينة توقظ في نفس عابر السبيل الذي يتأملها للمرة الأولى الرغبة في المقارنة، ولكنه سرعان ما كان يدرك أن في الأمر شَركاً لأن المدينة كانت تستبعد كلّ المقارنات؛ فلم تكن تشبه في الواقع شيئاً. لم تكن تحتمل المقارنات بأكثر من احتمالها الأمطار والبَرَد وأقواس قزح والأعلام الغريبة المتعددة الألوان التي كانت تفارق سطوحها بمثل ما كانت قد وصلت إليها عابرةً غير واقعية بقدر ما كانت هي خالدة وواقعية.

كانت مدينة مائلة، بل ربما أكثر المدن ميلاً في العالم، تحدّت جميع قوانين العمارة وتنظيم المدن. وكان أعلى أحد البيوت يلامس أحياناً أسس بيت آخر، وكانت بالتأكيد المكان الوحيد في الدنيا الذي لو انحدر فيه المرء على جانب أحد

الشوارع لأوشك أن يُلفي نفسه على أحد السطوح.

وهذا ما كان يقع فيه السكارى بخاصة في بعض الأحيان.

أجل كانت مدينة عجيبة جداً. فقد كان في وسـع المرء وهو يمشي في الشارع أن يعلّق إذا مدّ ذراعيه قليـلاً في بعض الأمكنة قبعته في رأس مئذنة. كانت أشياء كثيرة فيها عجيبـة، وأشياء كثيرة أخرى تبدو وكأنها من مملكة الأحلام.

وإذ كانت تحافظ بمشقة على الحياة البشرية في أعضائها وتحت درعها الحجرية فإنها لم تكن أقل حـرصاً على إصـابة هذه الحياة بكثير من الآلام والخدوش والجـراح، وكان ذلـك طبيعياً لأنها مدينة من الحجر ملامستها قاسية وباردة.

ولم يكن من السهـل أن يكون الإنسـان صبيّـاً في هـذه المدينة.

١

في الخارج كانت الليلة الشتوية قد غلّفت المدينة بالريح والماء والضباب. وكنت أصغي وأنا لابدٌ تحت الأغطية إلى ما كان يبلغني بخفوت من صوت رتيب يحدثه سقوط المطر على سطح بيتنا.

كنت أتخيّل القطرات التي لا تحصى وهي تنـزلق على السطوح المائلة مسرعة لملاقـاة الأرض فتتبخّر في غد وتعـود إلى الصعود إلى أعلى في السماء البيضاء. ولم تكن تشك في

أنه ينتظرها تحت السقائف فخ خبيث، الميزاب. وفي اللحظة التي تتهيأ فيها للقفز على الأرض كانت تجد نفسها محبوسة فجأة في الأنبوب الضيّق مع آلاف من صويحباتها فتتساءل مذعورة: «إلى أين نذهب، إلى أين يقودوننا؟» ثم إنه، قبل أن تتمالك نفسها من ذلك السباق المجنون، يُقذف بها بغتة في سجن عميق، صهريج بيتنا الكبير.

هناك كانت تنتهي حياتها الحرّة الجذلى. وفي الخزّان المظلم الأصم كان عليها أن تتذكر بحزن عارم الفضاءات السماوية التي لن تراها مجدداً أبداً وتحتها المدن الخارقة والآفاق التي تمزّقها البروق. ولم يكن هناك سواي أحد يرسل أحياناً، بتحريك مرآة صغيرة، حاشية من السماء صغيرة لا تتجاوز راحة اليد تمثّل للحظة على سطح الماء ذكرى عابرة للسماء اللامحدودة.

ولسوف تُمضي هنا، في القعر، أياماً وأشهراً حزينة إلى أن يحين الوقت، بعد زمن طويل، فتنتشلها أمي بدلو، وقد ضلّت وأذهلتها الظلمة، لتغسل بها ملابسنا والدرج وأرضية البيت.

لم تكن في هذه اللحظة ترتاب في شيء. كانت تركض فرحة صاخبة على الحجارة المسطحة، وكنت أشعر نحوها بنوع من الشفقة وأنا أصغي إلى ضجيجها.

وعندما كانت السماء تمطر على التوالي ثلاثة أيام أو أربعة، كان أبي يغيّر إتجاه الميزاب لمنع طفح الصهريج.

وكان هذا واسعاً جداً يمتدّ تقريباً على المساحة التي كان بيتنا يشغلها، ولو حدث يوماً أن جاوز الماء الحوّاف لأمكن أن يغرق القبو أوّلاً ثم أن يدمِّر أسس البيت لأن مدينتنا مائلة ومن الممكن توقّع كل شيء.

وبينما كنت أتفكّر متسائلاً أيهما أشد ضيقاً بالأسر الإنسان أم الماء سمعت خطى جدّتي ثم صوتها قادماً من الغرفة المجاورة:

«أسرعا، انهضا، نسيتما أن تغيّرا موقع الميزاب».

قفز أبي وأمي من سريرهما مذعورين. وركض أبي بسراويله الطويلة البيضاء في الظلمة إلى آخر الدهليز ففتح النافذة الصغيرة وأدار الميزاب بعصا طويلة. وسرعان ما سمع صوت تساقط الماء في الفِناء.

وأشعلت أمي قنديل الكاز وهبطت الدرج متقدّمة أبي وجدّتي. واقتربت من النافذة وحاولت النظر إلى خارج. كانت الريح تبعث بالمطر بحدّة فيرتطم بزجاج النوافذ، وكان يسمع أنين تخشيبات السقوف العتيقة.

كنت على درجة من الفضول لا تسمح لي بالبقاء في سريري، فنزلت بدوري ووجدتهم هم الثلاثة ساهمين. ولم يلاحظوا حتى مجرّد وجودي. كانوا قد رفعوا غطاء الصهريج وراحوا يحاولون معرفة الحدّ الذي وصلت إليه الأمور. كانت أمي تمسك بالقنديل وأبي ينظر من خلال الفتحة وقد مدّ رأسه.

سرت في جسدي رعدة وتشبثت بتنورة جدّتي فوضعت

يدها على رأسي بحنان. وكان باب الفِناء وباب البيت يرتجفان تحت الريح.

قالت جدّتي: «يا للطوفان!»

واستمرّ أبي وقد انثنى على نفسه ينظر داخل الصهريج.

وقال لأمي: «اذهبي وائتيني بصحيفة!».

وحملتها إليه. دعكها وكوّرها وأشعل النار فيها وتركها تسقط داخل الصهريج. وأطلقت أمي صرخة خفيفة.

قال أبي: «وصل الماء إلى الحوافّ».

وراحت جدّتي تتمتم بدعاء.

قال أبي: «بسرعة، الفانوس!»

وأشعلته أمي ويداها ترتجفان. كانت شاحبة جداً. وأخذ أبي الفانوس من يدها بعد أن ألقى على رأسه مشمّعاً كبيراً أسود واتجه صوب الباب. واشتملت أمي أيضاً بثوب عتيق ولحقت به.

سألت مذعوراً: «إلى أين ذهبا يا جدّتي؟»

- يدعوان الجيران.

- لأي شيء؟

- لمعاونتنا على خفض الماء.

وسمعت خلال ضجيج المطر الرتيب قرعات مخنوقة على أحد الأبواب ثم على آخر فعلى ثالث.

- كيف العمل يا جدّتي لخفض الماء؟

ـ بانتشاله بالدلاء يا صغيري.

اقتربت من الفتحة ونظرت إلى أسفل. ظلمات. لا شيء سوى الظلمات وشعور بالخوف.

وقلت بتؤدة«أووه!». ولكن الصهريج لم يجبني. كانت تلك المرة الأولى يظل فيها أصمّ لندائي. كنت أحبه كثيراً، وكثيراً ماكنت أنحني فوق فمه الكبير لأتحدث طويلاً إليه، وكان دائماً يهرع لإجابتي بصوته الكهفي.

قلت مرة أخرى «أووه»! ولكنه ظل صامتاً. واستنتجت أنه ينبغي أن يكون غاضباً جداً.

كنت أتخيل كيف استجمعت قطرات المطر التي لا تحصى غضبها هناك في القعر. وكانت القديمات التي أضواها طول المكث تنضمّ إلى القادمات الجديدات، إلى القطرات المنفلتة من عاصفة هذه الليلة، لترتكب وإياها عملاً خبيثاً ما. يا للأسى أن نسي أبي تغيير موقع الأنبوب! ما كان ينبغي بأي ثمن ترك مياه العاصفة تنفذ إلى صهريجنا الوديع وتدفعه إلى الثورة.

سمعت ضجة عند الباب ودخل على التوالي «دجدجو» و«مان فوتسو» و «نازو» تصحبها كنتها. ثم جاء أبي تتبعه أمي مرتعدة برداً. صرّ الباب مرة أخرى وكان الداخلين «جعفر» وابن «نازو» و«مقصود» وفي يد كل منهم دلو فاندسوا بنشاط في الرواق.

أحسست بالارتياح لقدوم كل هؤلاء الناس. وأخذت

السلاسل والدلاء بالرنين. وساورني شعور بأن هذه القعقعة كانت تخلص قلبي من كآبته.

بقيت منزوياً قليلاً أرقب هؤلاء الناس المنهمكين بصخب، «مان فوتسو»، وهو طويل ضامر أشيب الشعر، وابن «نازو» وكنّتها البارعة الجمال بلحظها الناعس، و «دجدجو» التي كانت تتنفس بمشقة. كان «مان» و «دجدجو» و «نازو» ينتشلون دلواً بعد دلو، بينما كان الآخرون يفرغونها عند باب الفناء. وفي الخارج كان المطر لا يزال وابلاً، وكانت «دجدجو» تردد بين الفينة والفينة بصوتها الأخنّ:

«يا إلهي، أي طوفان»!

وكنت أقول للماء بصمت بعد قلب كل دلو: «إذهب، إذهب إلى الشيطان لأنك لم ترد البقاء في صهريجنا»!. كانت كل دلو مملوءة بقطرات أسيرة، وكنت أعتقد أنه خير لنا أن نُخرج أولاً أشدها خبثاً ومشاكسة للتمكن من تقليل الخطر.

وضعت «دجدجو» دلوها لتستريح لحظة وأشعلت سيكارة وهمست لجدتي وهي تقترب منها: «هل عرفت بما يحدث لإبنة «تشتشو كايل». نبتت لها لحية». فهتفت جدتي: «لا تهرفي بما يُقشعر البدن»!.

ـ أحلف لك بعينيَّ. لحية سوداء مثل لحية الرجل. ولهذا لا يدعها أبوها تخرج.

أرهفت أذني. كنت أعرف تلك الفتاة، وكان قد مر زمن طويل من غير أن أراها في المدينة.

وتنهدت «دجدجو» قائلة: «آه ياعزيزتي «سلفيدجي» ما أشدّ ما أشقانا! إنها لنُذُر شؤم يبعث بها الله إلينا. وهذا الطوفان في هذا المساء»!.

ثم همست »دجدجو» وهي تتبع نظراتها كنة «نازو» الجميلة التي لم يكد يمرّ على زواجها أكثر من ثلاثة أسابيع بضع كلمات في أذن جدتي، فما كان من هذه إلا أن عضت شفتيها. واقتربت وقد ثار فضولي، ولكن «دجدجو» قذفت بعقب سيكارتها وذهبت إلى فتحة البئر.

وسأل «مان»: «في أي ساعة نحن يا ترى»؟ فقال أبي: «انقضى منتصف الليل». وقالت جدتي: «سأصنع لكم قهوة» وقامت بإشارة يُفهم منها أن عليَّ اصطحابها.

كنا نرتقي الدرج عندما سمع صرير الباب، فقالت جدتي: «ها قد وصل جماعة آخرون».

مددت عنقي من فوق الدرابزين لأرى القادمين، ولكن بلا جدوى. كان الظلام في الممر شديداً، وكانت تنساب على الجدران ظلال مرعبة ذات أشكال متحركة كما في الكوابيس.

صعدنا إلى الطبقة الثانية ودخلنا الغرفة الشتوية فأوقدت جدتي ناراً في المدفأة، وأما أنا فتمددت في فراشي من جديد.

كانت العاصفة في الخارج تعوي، وكانت المدافىء فوق السطح تنتحب وكأنها كائنات حية. وكنت أفكر في أن قسماً من أسس بيتنا كان يسبح في مياه الصهريج الماكرة بدل أن تكتنف تلك الأسس أرض صلبة.

أوقات خبيثة، أوقات كدرة، أيتهـا الأخت العزيـزة، إنه لزمن خؤون. وإذ كان النعاس يجتاحني على بقبقة ركوة القهوة اللذيـذة عـادت إلى ذهني بشكــل مختلط نتف من الحـديث وكلمـات مجتناة من هنـا وهنـاك وسط الكبـار، كلمـات ذات دلالات مائعة كالماء.

كان البيت يبدو أخرس عندما استيقظت. وكان أبي وأمي لا يزالان نائمين. ونهضت بلا جلبة ونظرت إلى ساعة الحائط. كانت الساعة التاسعة. وانسللت إلى الغرفة الأخرى حيث ترقد جدتي؛ كانت نائمة هي أيضاً. كانت تلك المرة الأولى التي لم يكن فيها أحد قد نهض في مثل هذه الساعة.

كـانت العاصفـة قد هـدأت. واقتربت من نـوافذ غـرفة الاستقبال ورحت أنظر إلى الخارج. كانت السماء عالية ومغطاة بسحب رمادية لا حراك بها. وكانت تبدو باردة. ربما كان الماء المنتشل طوال الليـل من الصهريـج قد تبخّـر الآن وصعد إلى أعلى لملاقاة الغيم والنظر من هناك بصرامة إلى السطوح الرطبة والأرض المكفهرة.

كان أول ما استرعى انتباهي وأنـا أسرِّح طـرفي باتجـاه الأحياء السفلى بعيداً هو النهر الذي قد فاض. كان الأمر نذير شؤم، وما كان ليكون غير ذلك في طقس مثل هذا. لا بد أنه قضى الليل على عادته جاهـداً في اجتياز قنـطرة الجسر هـازّاً إياها كجواد جامح يسعى للخلاص من السـرج الذي يعقـره. وكانت تلك الجهود الضارية التي بذلها طوال الليل تبدو أكثر ما

تبـدو فوق متنـه المدمّى. وإذ لم يتمكن في نهـايـة الأمـر من اجتيـاز الجسر فقـد انقضّ على الطريق وابتلعهـا. وها هـو ذا الآن، بعـد أن طما بشكـل لا يحد، يحـاول أن يذيبهـا فيـه. ولكنها كانت عنيدة معتادة على هذه الهجمات العنيفـة، وأنها لتتجلد الآن مـطمئنة بـلا ريب تحت المياه الكـدرة المحمـرّة بانتظار انسحابها.

كنت أقول في نفسي ما أشد بله هذا النهـر. إنه يسعى كل شتاء إلى نهش المدينة من قـدميها. ومـع ذلك فـإنه ليس خطراً بالقدر الذي يبدو عليه. كـانت السيول التي تهـدّ جبالاً أخطر منه. هي أيضاً كانت تحاول مثله نهش المدينـة. ولكن في حين كان هو يتبختر بشكل رائع عند قدميها قبل الانقضاض عليهـا، كانت السيـول تنقض بغدر على ظهـرهـا. كـانت في معظم الأحيان جافة. وكانت تبدو كحيّات ميتة جفّ جلدهـا، ولكنهـا كانت في الليـالي العاصفـة تبعث حيّـة وتنفـخ وتفـحّ وتزمجر. كانت تهرع إلى أسفـل شاحبـة من الحنق بأسمـائها القصيرة وكأنها أسماء كلاب (تشولو، فيتسو، قفك) جارّة قطعاً من التراب والصخر اقتلعتها خلال مسيرتها انطلاقاً من الأحياء العليا.

أخذت أتأمـل المشهد الـذي أُعمِل فيـه تغييراً وتبـديلاً طـوال الليل، مفكـراً في أنه إذا كـان النهر يكـره الجسر فـإن الـطريق كانت تبـدي الكره نفسـه للنهر، والسيـول للجـدران والريح للجبل الذي يلجم سورتها، وأنهـا كانت جميعـاً تكره

المـدينة المنبسـطة رطبة رمـادية مستخفـة وسط ذلـك الحقـد الجارف. وكنت أحبّها لأنها كانت في تلك الحرب وحدها ضد الجميع.

ومن غير أن أرفع بصري عن السطوح رحت أسعى إلى فهم العلاقة المحتملة بين عاصفة العشية وابنة «تشتشكو كايل» التي عـادت لحيتها المشؤومـة بغتة إلى خـاطري. ثم انتقلت أفكـاري إلى الصهريـج فقمت وهبـطت السلّم. كـان الممـر مبلّلاً. وكانت الدلاء والحبال قد تُركت على الأرض بلا نظام. ولم أدر لماذا بدا أن وجودها كان يزيـد من حدة السكـون في الممـر. واقتربت من فتحـة الصهـريـج ورفعت عنهـا الغـطاء وانحنيت فوقها.

قلت على مهـل وكـأني كنت أخشى إيقـاظ وحش مـا: «أووه»!.

رجّـع إليَّ الصهريـج «أووه» وكـأنمـا يفعـل ذلـك على مضض بصوت أجش لم أكن قد ألفته. وكان ذلك يعني لي أن غضبه قد هدأ، ولكن هدوءه لم يكن تاماً مع ذلك لأن صـوته كان أشد خفوتاً من المألوف.

وصعدت من جديد إلى الغرفة الكبيرة في الطبقة الثانية ورأيت بفـرح أنه ظهـر بعيداً، على مسـافـة لم أكن أستـطيـع قياسها، على شكل قوس قزح نوع من معـاهدة سـلام لم يمر وقت طويل على عقـدها بين الجبـل والنهر والجسـر والسيول والطريق والريح والمدينة. ولكن كان في وسع المرء أن يحزر أنها لم تكن سوى هدنة قصيرة.

إليك، أعطيك فرنسا وكندا فهات اللوكسمبورغ.

ـ لا تتظارف. «السيد» يريد اللوكسمبورغ؟

ـ إذا كان يرضيك.

ـ إذا بادلتني حبشتك باثنتين من بولونيا فعندها قد نتفاوض.

ـ لا، الحبشة لا. إليك، خذ فرنسا وكندا.

ـ كلا!

ـ إذن أعد إلي الهند التي أعطيتك إياها أمس بدل فنزويلا.

ـ الهند؟ خذ. وماذا أفعل بها؟ البارحة، صدقني، ندمت على أخذها.

ـ ترى، ألا يمكن أن تكون قد ندمت لأجل تركيا أيضاً؟

ـ تركيا؟ لقد بعتها وإلا كنت أعدتها إليك بالتأكيد.

ـ لن تنال إذن ألمانيا التي كنت قد وعدتك بها أمس. أفضّل بالحري تمزيقها إرباً.

ـ أوه! لربما ظننت أني متمسك بألمانيا!

لقد مرت ساعة تقريباً ونحن نتخاصم مساومين على طوابعنا في وسط الشارع. ولم نكن قد كففنا عن الخصام حين مرّ «جعفر». وهتف بنا قائلاً: «ما هذا، تتقاسمان العالم»؟

٢

كانت «دجدجو» والأم «بينو» قد جاءتا تزوراننا. وكانتا تحسوان القهوة جالستين على الديوان في الغرفة الكبيرة وهما تجاذبان جدتي أطراف الحديث. كانت «دجدجو» قلقة. وأما جدتي فبدت أشد هدوءاً مع أنها كانت تبدي إحساساً بالخطر. وكانت الأم «بينو» الهزيلة اللابسة السواد من رأسها حتى أخمص قدميها تهتز باستمرار رأسها الصغير ذا القسمات المنمنمة مرددة وكأنها في حلم بعد نهاية كل جملة تقولها «دجدجو»: «إنها نهاية كل شيء»! كنت مهتماً جداً بحديثهن. فقد كن يتحدثن عن «عيسى» ابن «مان فوتسو» البكر الذي فعل في الأسبوع الماضي ما لا يفعل، فقد وضع نظّارتين.

قالت «دجدجو»: «عندما علمت ذلك لم أرد في البدء أن أصدق أذنيّ، ثم نهضت وألقيت إزاري على رأسي وهرعت إلى بيت «مان». كان المسكين متجلداً، وأما نساء المنزل فكانت وجوههن مقلوبة. لقد بدون وكأنهن تحجرن. وكنت على وشك سؤالهن عما أصابهن ولكنني لم أجرؤ. فكيف السبيل إلى الكلام على ذلك بلا مقدّمات! ولكن ما هي إلا أن انفتح الباب ورأيت «عيسى» داخلاً. كانت زجاجتا نظارتيه تلمعان. «كيف حالك»؟، قال لي. وفكّرت عندئذ في أنه كان أولى لي أن أكون ميتة. لقد أحسست وكأن كرة تعترض حلقي. ولا أدري كيف فعلت لأتماسك ولا أشهق بالبكاء. وأما

هو فقد توجه إلى الخزانة وأخرج منها بعض الكتب فتصفحها برهة، ثم ذهب إلى النافذة فتوقف ورفع نظارتيه. وعندئذ راح يدعك عينيه. وكانت أمه وأخواته يحلقن فيه وشفاههن ترتجف. وأما أنا فقد مددت يدي فتناولت النظارتين ووضعتهما على عيني. لن تصدقنني يا صاحباتي العزيزات! أحسست فجأة بدماغي يدور في رأسي. لا بد أن هاتين الزجاجتين ملعونتان. لقد رأيت عدداً من الدوائر كدوائر جهنّم. كان كل شيء أمامي يتعكّر ويتقلّب ويعصف كما لو أن الشيطان ينفخ فيه. نزعتهما بسرعة وخرجت كالمجنونة».

تنهّدت «دجدجو» تنهدة عميقة. ودلقت جدتي فنجان قهوتها. قالت: «لم فعل «عيسى» ذلك؟ فتى مثله مهذب وذكي! لو حدث الأمر لواحد تافه مثل «لام» لهان الأمر، أما «عيسى» . . .».

قالت الأم «بينو»: «إنها نهاية كل شيء».

واستأنفت «دجدجو» قائلة: «صحيح جداً يا عزيزتي «سلفيدجي»، وها نحن أولاء نشكو من كل هذه الشرور النازلة بنا. ولكننا نحن أنفسنا مذنبون. بالأمس بُني بيت من ورق، وأخذ الشباب اليوم يضعون نظارات، ومن يدري ما قد يُفعل غداً. ولكن الذي فوق ـ واصطنعت «دجدجو» نبرة مهددة وهي ترفع إصبعها إلى السقف ـ يرى كل شيء ويكتب كل شيء. وسوف يجازينا على كل ذلك».

وكررت الأم «بينو»: «إنها نهاية كل شيء».

وبالإشارة إلى بيت الورق أدرت رأسي بشكل لا إرادي نحو حيٍّ «غجوبك» حيث ينتصب ذلك البناء العجيب من الألياف المضغوطة، وقد أقامه الإيطاليون قبل بضعة أسابيع لإيواء راهباتهم، بين بيوت الحجر المتجهّمة، بيتاً غريباً لا يتآلف مع البيوت. لقد كدر هذا البناء الوقح ذهن عدد من الناس زمناً طويلاً. وقالت النساء العجائز اللواتي كن يعرفن الدنيا، وكن قد ذهبن حتى إلى تركيا، إنه لم يسبق أن شاهدنا مثل ذلك. لقد بلغنا هذا العمر، ولكننا لم نسمع قط عن بيت من ورق. فلا بد أن تكون يد الشيطان من تحته.

وإذ جاء دور الحكم على ابن «مان فوتسو» فقد رحن يستخدمن الأقوال التي استخدمنها قبلاً للكلام على بيت الألياف المضغوطة. لم أنت ظالم إذن، أتريد أن ترى العالم على غير ما هو عليه؟ لماذا تتمرّد؟

لقد خضن طويلاً في هذا الحديث وكنت أستمع إليهن بانتباه لأن ما فعله ابن «مان» لم يكن غريباً عن سرٍّ من أسراري. فأنا أيضاً كنت قد وضعت فوق عيني إحدى هذه الزجاجات الملعونة. كنت قد وجدتها في خزانة جدتي الصغيرة، وذات يوم رفعتها صدفة وأنا ألهو بها إلى عيني. ظللت مشدوهاً. فكل ما كان يحيط بي بدا لي فجأة وهو يتقلقل.

تقلّصت حوافّ الأشياء وتوضحت بلا رحمة. وإذ احتفظت طويلاً بالزجاجة ملتصقة بإحدى عينيّ وقد أغمضت

الأخرى فقد رحت ألاحظ المشهد المترامي المنبسط أمام بيتنا. وتبدّى لناظري منظر عجيب. لكأن يداً غير مرئية، مثل زجاج مغشّى، كانت قد حجبت حتى ذلك الوقت العالم، وها هوذا يبدو لي الآن جديداً صافياً. ومع ذلك فإنه لم يكن يروق لي على هذا الشكل. كنت متعوداً أن أراه خلف طبقة من البخار تتلاقى فيها حواف الأشياء أو تتباعد بلا إكراه ومن غير أن تخضع لقواعد صارمة. وكان يخيَّل إلي أن أحداً لم يكن يسأل السطوح أو الشوارع أو أعمدة البرق أن تقدم حساباً عن تنقلاتها الضئيلة أو عن مواضعها لحظة الانطلاق. بينما بدا لي العالم الآن خلف هذه الزجاجة المستديرة متصلباً، خاضعاً لقواعد، بخيلاً، غير مسبغ على الأشياء القائمة أكثر ممّا لها. لقد بدا مثل بيت كل شيء فيه، الزيت والطحين وحتى الماء، مقيس بالغرام، فلا يهدر شيء فيه بلا تقدير، ولا تبقى قط فضلة من شيء فيه.

ومع ذلك فقد كانت الزجاجة ذات نفع كبير لي في السينما. فكنت قبل الذهاب إليها أغسلها وأدسها في جيبي. وفي الصالة كنت أخرجها بسرعة ما إن تنطفىء الأنوار وأغمض عيني اليسرى وأثبتها فوق عيني اليمنى. ولدى عودتي لم يكن أحد ليدرك السبب الذي جعل إحدى عيني تحمرّ قليلاً. وذات مساء حار كثيراً غجريان كنت اصطحبتهما إلى السينما وهما يريانني أسحب الزجاجة من جيبي، وقد سمعتهما طوال مدة العرض يتساءلان عدة مرات: «ألا يكون جاسوساً»؟

رددت الأم «بينو»: «إنها نهاية كل شيء».

ولكنهن ما لبثن أن استأنفن مناقشاتهن المملة المألوفة عن غلاء المعيشة. أما أنا فكنت لا أزال أتساءل كيف اتفق أن لا يرى الإنسان إلا بعينيه لا بأصابعه ولا بخدّيه ولا بأي جزء آخر من جسده. لأن العينين ليستا في الواقع إلا قطعة من لحم جسدنا. كيف كان العالم يدخلهما؟ وكيف لا ينفجر المرء بهذه الكتلة الكبيرة من الضوء والفضاء والألوان التي تنصب باستمرار عن طريق العينين فيك؟ لقد مضى زمن طويل وأنا منغّص بلغز البصر. وكان سرّ العمر الذي كنت أخشاه أكثر ما أخشى يساورني. وربما كان هذا الخوف ناتجاً في الواقع عن أن معظم اللعنات التي كنت أسمع بها كانت تصيب العينين. وذات مرة انسدت مغسلتنا، وإذ نظرت في ثقب المصرف الأسود شعرت كأنه عين عمياء. وقلت في نفسي إنه هكذا بالتأكيد تنسدّ العيون. فدفق النور بكل ما ذاب فيه من رؤى لا يستطيع المرور في ثقوب العيون، وذلك ما ينبغي أن يكون العمى. ولا بد أن تكون تلك الرطوبة السوداء هي القابعة في قعر عيني « وهيب» الأعمى قوّال الشعر الشعبي في المدينة.

البصر. يا للملكة المستعصية على التفسير! إني أدير وجهي ناحية أحياء المدينة السفلى فتبدأ عيناي مثل مضخّتين قويتين بإمتصاص الضوء ومعه طائفة من الصور: سطوح ومداخن وشجرة تين متفرّدة وشوارع ومارّة. أيشعر كل أولئك أني أمتصّهم؟ أغمض عينيَّ. وقوفاً. يتوقف الدفق. أفتحهما من جديد. يستعيد الدفق مجراه.

بدت لي السطوح وقد تقاربت بشكل خارق بعد ليلة مضطربة. إن تلك السطوح غارقة بالماء. لقد انبسطت الصفائح الحجرية الواحدة تلو الأخرى في فوضى شكلية ممضّة، وسقط عليها ضوء مائل. وعند أسفل البيوت تتلوّى الشوارع والأزقة وقد طرقها قلّة من المارة، بعض الفلاحين على خيولهم وراهب وبعض النساء اللابسات السواد الخارجات للزيارة.

يصعد شارع «فاروش» بمشقة على طول مجاري السيول، بينما ينحدر على ميمنته انحداراً شديداً شارع «غجوبك» الذي ابتعد عن بيت الألياف المضغوطة منزل الراهبات وكأنه يبتعد عن مسكن تفشّى فيه الطاعون، وأتى يصطدم بشارع «فاروس» فالتوى الاثنان بفعل الاصطدام. وعلى بُعد منهما هجم زقاق «المجانين» الأعمى العنيد على شارع «المعهد الرياضي» الأنيق، ولكن هذا تمكّن من الإفلات بمهارة بانحرافة بسيطة قام بها في اللحظة الأخيرة. وعندها انحدر زقاق «المجانين» بسرعة في الحي وهو يقوم بالتواءات مباغتة ومدهشة وكأنه يسعى للعراك مع شوارع أخرى.

كنت في هذا الوقت أنتظر أن يبرز في عطفة من العطفات «إيلير» أفضل رفاقي وابن «مان فوتسو» الأصغر. فما إن لمحته حتى اندفعت في السلّم ولاقيته. قال: «نذهب إلى المسلخ؟ لم يسبق لنا أن ذهبنا إليه».

ـ إلى المسلخ؟ وماذا نفعل هناك؟

ـ ماذا نفعل؟ نتفرج. نرى كيف تذبح الثيران والخرفان.

ـ وماذا للفرجة عند الجزارين؟ نعرف دكاكينهم. ماشية مقطّعة معلقة في عِلاقات وقوائمها إلى أسفل أو في الهواء.

قال «إيلير»: «أجل ولكن المسلخ مختلف. يرى فيه المرء كيف يتم الذبح، حتى ذبح الثيران. فليس هناك من عمل سوى ذبح الحيوانات».

كانت كلمة «مسلخ» في الأيام الأخيرة من بين الكلمات التي أخذت تتردد أكثر فأكثر بمدلول غير محدد تماماً. وقد أضاف «إيلر»:

«لقد أفلت في الأسبوع الماضي ثور من أيدي الجزارين وأخذ يركض كالمسعور. وانقضوا عليه وهم يضربون بكل ما كان يقع في أيديهم، ولكن الحيوان انزلق على درجات المدخل وكسر رقبته. إن كثيرين من الراشدين يذهبون إلى هناك لا لشيء إلا للفرجة.»

والحق أن الأمكنة التي كان فيها ما يستحق الفرجة في المدينة كانت تعدّ على أصابع اليد. فباستثناء السينما التي كان يختلف إليها الأولاد والناس الذين خلعوا العذار لم يكن هناك سوى موضعين من الممكن أن يثيرا الاهتمام بما كان يدور فيهما من شجار، ولا سيما يوم الأحد: حي الغجر والساحة الواقعة أمام المسجد، وفيها كان الحمالون يتقاسمون أرباحهم. وأما المشاجرات الأخرى فكانت طارئة، وكانت تحدث بشكل عام في أماكن خفيّة. ومع ذلك فإن كثيراً من

الخصومات لم تكن في الأيام الأخيرة تشرّف العهود التي كان يقطعها المتخاصمون أنفسهم. فقد سمعت المتسكعين أكثر من مرة يتنهدون قائلين: «آه! أن العراك الحقيقي كان في زماننا!» ثم ينصرفون خائبين. الغجر وحدهم، ولا سيما الحمالين، كانوا يتضاربون بأمانة محافظين تقريباً على كل الوعود التي تحملها مسبّاتهم.

كان المسلخ في الظاهر تسلية جديدة فلم أعارض في الذهاب.

كنا نصعّد في الشارع المبلّط حين لمحنا «جعفر» و«مقصود» اللذين كانا ينحدران. لم يكونا يتكلمان وقد بدا أنهما تناكفا. ولم نقل نحن أيضاً شيئاً. كانت عينا «مقصود» جاحظتين قليلاً خلقةً، وما كنت أستطيع النظر إليه بلا اشمئزاز. وذات يوم وقد سمعت امرأة تنافر جارتها فتقول لها: «ليتك تعدمين عينيك!» لم ألبث أن فكّرت في عيني «مقصود» والآن فإنني في كل مرة ألتقيه فيها أحس أن عينيه ستنسلخان عن محجريهما وتتدحرجان على الأرض، وأنني سوف أمشي عن غير قصد مني فوقهما وأجعلهما تنفجران.

قال «إيلير»: «ما بالك؟ لماذا تبدو بهذه السحنة؟»

ـ بسبب «مقصود». إنني أصاب بالغثيان لرؤيته.

ـ «عيسى » هو الآخر لا يطيقه. وفي هذه الأيام الأخيرة تراه يقطب مثلك ما إن يسمع كلاماً عنه.

ـ ألا تمزح؟ هو أيضاً يشعر أن عينيه سيفرّان ؟

ـ ألست مخبولاً قليلاً؟

لم أُصِرّ.

كان يقبل نحونا رجل وقد ألقى على كتفيه غطاءً وفي يده منديلٌ صرّ فيه رغيفاً. كان ذلك «لو كـان» الملقّب بِـ «صديق الفيء».

وسأله أحد المارة: «ايه «لوكان» خرجت من السجن؟»

ـ أجل.

ـ ومتى تعود إليه؟

ـ وما يدريني! الحبس للرجال!

منذ أيام الأتراك و«لوكـان» يُرْسَـلُ عشرات المـرات إلى السجن بسبب سـرقـات صغيـرة. وفي المـدينـة كـان النـاس يتذكرونه على هذه الحال، هـابطاً شـارع القلعة وغـطاء أسمر على ظهـره وفي يده منـديـل يضم زاداً لا يسمن ولا يغني من جوع.

وقال له آخر: «ايه، ها أنت خارج السجن من جديد يا «لوكان»!

ـ ايه، أجل.

ـ ربما كان من الأفضل أن تترك غطاءك هناك...

وأخذ «لوكان» يكيل الشتائم رافعاً صوته كلما ابتعد.

مشَيْنا نحو قلب المدينة. كانت الشوارع حافلة بأصوات غريبة عنها. كان اليوم يوم السوق. وكان الفلاحون يتقـاطرون

على الساحة من كـل حدب وصـوب. وكانت سنابك الخيـل تدوي وتنزلق وتقدح شرراً على بلاط الشارع. وفي الطلعات كان القرويون يمسكـون بخيولهم من لجـامها ويجـرونها إلى أعلى ضامّين أجسادهم وعرقهم ولهاثهم إلى أجساد بهائمهم ولهاثها.

كانت مصاريع نوافـذ البيوت الكبيـرة مقفلة على جانبي الشارع. وخلفها كانت نساء الأغـوات جالسـات على طنافس وثيـرة وقد سـددن أنـوفهن وشحبن وأصبن بـالغثيـان. وإذ كن موسرات بيض الوجوه مكتنزات فقد كن نادراً ما يخـرجن إلى الأسواق. وكن يشكون من أن إغلاق الحدود مع اليونان قد منعهن من أن يستقدمن من بحيرة «جانينا» أسمـاك الحنكليس الناجعة في مداواة الروماتيزم الـذي يعانين آلامـه. وبالإضـافة إلى احتقارهن القرويين الذين لم يكنّ يتحدّثن قط عنهم دون أن يتبعن اسمهم بِـ «أجلّك الله» التي كن يـرددنها عنـد ذكـر المـراحيض، كن بصورة عـامـة رازحـات تحت وطـأة العهـد الجـديد، منتـظرات عودة الملكيـة وقـد جلسن صفـوفـاً على الدواوين يحتسين فناجين القهوة.

كـان بعض الجنود الإيـطاليين الواقفين أمـام إعـلانـات السينما يرقبون المارة. وصعّدنا في الشـارع. وكانت يـافطات المتاجر تتتابع. سمكريون وحلاقون وسرّاجون ثم مقهى «أديس أبابا»، وكانت يافطة تحمل كلمة «خلّ» ثم إعلان بدأ بِـ «آمُر» مكتوبة بحروف ثخينة.

تابعنا طريقنا. ها قد أضحى المسلخ قريباً. لم يكن يسمع أي ثغاء، ولا كانت تُشَمّ رائحة دم، ولا كانت يافطة تعلن عن وجوده، ومع ذلك كان المرء يخمّن أنه لم يكن بعيداً. كان سكون الطريق المرصوف حوالينا وزوايا الشوارع المقفرة تدل على قربه. وأخذنا نرقى سلّماً مبللاً أملس لم يكن يشبه أيّاً من سلالمنا الحجرية. كان عالياً جداً ولم يكن يزيّن درجاته أي منحوت حتى ولا من أبسط المنحوتات التي كانت تزيّن السلالم التي ألِفناها. كنا نصعد بمشقة. وكان يسود في الأعلى صمت كصمت القبور. لم يكن هناك أي صوت، لا صوت بشر ولا صوت بهائم. ماذا كان يجري هناك؟ ووصلنا أخيراً. كان كل شيء جاهزاً. هناك رجال ينتظرون باردي الوجوه غير مبالين. وكانوا يرتدون ثياباً جميلة وقمصاناً بيضاء منشاة الياقات وربطات عنق. وكان بعضهم يعتمرون قبعات ليّنة، وقد اعتمر أحدهم قبعة عالية قديمة. ونظر مستطلعاً الوقت في ساعته.

سمعنا قرقرة. كان أحدهم يُرشّ الأرض بأنبوب من المطّاط الأسود. وآخر يدفع الماء بمقشّة نحو الأقنية الجانبية. وانبثق دفق من الماء عند أقدامنا. خفضنا عيوننا وقمنا بحركة تراجع ولكن كان قد سبق السيف العذل. كانت الأرض مخضوبة بالدم. وبدا أن كل شيء كان قد تمّ قبل وصولنا. ومع ذلك فإن الزمرة الصغيرة لم تتحرك. وكان ذلك يعني أن يُحَضِّرَ لعملية ذبح جديدة. وكان الماء يزبد فوق بقع الدم الكبيرة

فيفصلها عن السطح الإسمنتي ويجرفها من غير أن يسمح لها بالتجمّد.

ثم انكشف كل شيء لنواظرنا. كانت الساحة المستطيلة محاطة من جميع الجهات ببناء من الإسمنت بلا طبقات ومفتوح من الداخل. وكانت مئات العِلاقات الحديدية معلّقة إلى السقف. وعلى الأرض كانت الخراف وبينها الفلاحون بملابسهم الصوفية السميكة متدثرين بمعاطفهم السوداء الفضفاضة منحنين على ظهور بهائمهم متشبثين بأصوافها. هم أيضاً كانوا ينتظرون.

لم تكن تظهر على الناس الواقفين هناك أية علامة من علامات نفاد الصبر. وأخرج اثنان منهم سبحتيهما وأخذا يداعبان حبّاتهما على مهل. لم أكن قد رأيتهما قط. ونظر الرجل ذو القبعة العالية في ساعته. يبدو أن الوقت قد حان.

وبغتة ظهر لنا الجزارون بمآزرهم البيضاء وأيديهم العصبية الحمراء. وقفوا قرب نافورة الماء في وسط الساحة ولم يتحرّكوا عندما أخذ القرويون يدفعون بهائمهم أمامهم داخل الممرات الخشبية من جميع الجهات. وحدث ما يشبه الهدير الخافت من جرّاء آلاف الأظلاف التي كانت تحكّ الأرض بشكل خفيّ. كانت ضَجة عميقة موقّعة، وقد دامت بعض الوقت. وإذ اقتربت البهائم الأولى من النافورة حيث كان الجزارون بانتظارها رأينا فجأة السكاكين تلتمع في أيديهم. وبدأ الأمر.

شعرت بألم في يـدي اليمنى. كانت أظفـار «ايلير» قـد نشبت في لحمي. وشعرت برغبة في التقيؤ.

هيا بنا.

لم ينطق أحد منا بهذه الكلمات، ومع ذلـك كنا نبحث على غير هدى عن درجات المدخـل وقد وضعنـا أيدينـا على عيوننا.

واهتدينا إليها أخيراً ونزلنا. اندفعنا سائرين. وكلمـا كنا نبتعد كانت الشوارع تزداد نشاطاً. كان بعضهم قد رجعـوا من السوق متأبطين بعض الملفوف، وكان آخرون يقصدونها. هل كان يدور في خلدهم شيء مما كان يجري فوق، في المسلخ؟

وهـدر بغتة صـوت بـدا وكـأنـه هبط من السمـاء: «أين كنتما؟» ورفعنا رأسينا. كان أمامنا والد «ايلير»، وكـان في يده رغيف من الذرة وإضمامة بصل أخضر.

كرر: «أين كنتما؟ ما بالكما شاحبين إلى هذا الحد؟»

ـ كنا في... في المسلخ.

ـ في المسلخ؟

واضطربت البصلات في يده وكأنها حيّات.

ـ وماذا كنتما تفعلان في المسلخ؟

ـ لا شيء يا أبي، كنا نتفرّج فقط.

ـ تتفرّجان على أي شيء؟

هدأت البصلات وسقطت أذنابها متهالكة. وقال «مان» بصوت خفّف من حدّته: «لا تذهبا إليه البتة بعدُ.»

أخذت أصابعه تبحث عن شيء في جيب صدريته. وأخرج منه نصف «لِك».

«خذا، واذهبا إلى السينما».

تَرَكَنا، وشيئاً فشيئاً خرجنا من ذهولنا. وشدد من عزمنا مشهد السوق التي كنا نجتازها. فعلى الرفرف وفي السلال والقفف وعلى المناديل المفروشة كان ينبسط عالم أخضر لم يكن موجوداً عندنا. ملفوف وبصل وخسّ وبقدونس وخبازى وبيض طازج وجبن. ووسط هذا كله رنين الفلوس والطلبات والإجابات والأسئلة. بكم؟ بكم؟ همهمات ولعنات: «فلتهلك قبل أكلها!»، «احتفظ بدراهمك للطبيب!» كم من سمّ كان ينزلق فوق أكوام الخسّ والملفوف! وكانت الديدان تنزلق، والموت ينزلق. كم؟

ابتعدنا. وفي طرف ساحة السوق كان جندي إيطالي يعزف على الهارمونيكا وهو يحدج بنظراته الفتيات العابرات. ووجدنا أنفسنا أمام إعلانات السينما. لم يكونوا يعرضون فيلماً هذا المساء.

عدنا إلى البيت. وسمعت وأنا أصعد السلم ضحكة عمتي الشابة. كانت جالسة على كرسي ترجّح ساقها وهي تقهقه. وحدجت «دجدجو» جدّتي مرتين أو ثلاثاً فاكتفت هذه

بمطّ شفتيها قليلاً وكأنها تريد أن تقول: «ما باليد حيلة يا «دجدجو»، هكذا هنّ البنات اليوم.»

دخل أبي فما لبثت عمتي أن قالت له: «أسمعت؟ لقد أطلقت النار على ملك إيطاليا في «تيرانا».

قال أبي:

- علمت بالأمر في المقهى.

- لقد أخفى محاول الاغتيال مسدسه في باقة ورد.

- آه! صحيح؟

- سيُشنق غداً. عمره سبع عشرة سنة فقط.

قالت جدتي: «آه! يا لهؤلاء الشبان التعساء!»

- إنها نهاية كل شيء.

قالت عمتي: «يا للخسارة إذ لم يصبه! لقد أربكته الورود.»

قالت أمي وكأن في صوتها نبرة مؤاخذة: «أين تعلّمت هذا كله؟»

قالت عمتي: «في مكان ما.»

سوّت «دجدجو» منديلها فوق رأسها وانصرفت بعد أن استأذنت. وبعد ذلك بقليل حضرت الأم «بينو» فبقيت عمتي بعض الوقت.

صعدت إلى الطبقة الثانية. كانت الشوارع لا تزال نشطة، وكان آخر سكان المدينة راجعين من السوق. وكان

«مقصـود» متأبـطاً ملفوفـة كانت تبـدو وكـأنهـا رأس مقـطوع. وخالجني شعور بأنه يبتسم لنفسه.

كـان القرويـون يرجعـون أدراجهم، ولن تلبث شـوارع «فـاروش» و«بالـورتـو» و«هـزمـورات» و«تشتميـل» و«زلي» والـطريق الكبـرى والجسـر فـوق النهـر أن تسـودّ من دثـرهم الفضفاضة التي ستنسلّ وتنسلّ صوب قراهم التي لم يكن أحد ليراها. ولسوف تبتلع المدينة الخضرة التي جلبوها ابتلاع جواد مربوط برسنه. لكن هذا الشيء الأخضر الليّن الـذي تركـوه، وندى المروج ذاك، ورنين الجلاجل هذا، كانت غير كافية بل عاجزة عن تخفيف شيء ولو قليلاً من صرامة المـدينة. كـانوا ماضين، وكانت اللفـاعات السـوداء تتراقص الآن في الغسق، وبلاطات الشـوارع تقدح آخـر شرارات غضبهـا تحت سنابك الجياد. كان الوقت متأخراً، وكان على الفـلاحين أن يسرعـوا في الوصول إلى قراهم، فلم يكونوا حتى ليلتفتوا إلى المدينة التي بقيت وحدها مع حجارتها. وها قد انتشرت جلجلة خافتة صادرة عن السجن فوق القلعة. وكما هي الحال كل مساء كان الحـراس يتفحصون قضبـان النوافـذ بضربهـا بوتيـرة منتـظمـة بقضيب من الحديد.

كنت أشاهد آخر القرويين الذين كانوا يمرون الآن فوق الجسر وأفكر في أنه لأمر عجيب أن يكون الناس مقسومين إلى مدنيين وقرويين. كيف هي القرى؟ وأين هي؟ لماذا لا تُرى؟ الحق أنني لم أكن أومـن كثيـراً بـوجـودهـا. كنت أشعـر بـأن

الفلاحين الذاهبين كانوا يتظاهرون فقط بالتوجّه إلى قراهم وأنهم لم يكونوا في الحقيقة يعودون إلى أي ضيعة بل كانوا يتفرّقون للاختباء في مكان ما خلف التلال اللينة المغطاة بالشجيرات التي كانت تحيط بالمدينة بانتظار أسبوع طويل يأتي بعده يوم آخر من أيام السوق ليملأوا من جديد شوارعنا بالخضرة والبيض والجلبة.

وأخذت أتساءل كيف استطاع الناس أن يفكّروا في تكديس هذا القدر من الحجارة والخشب ليصنعوا منها كل هذه الجدران وهذه السطوح ثم يسبغوا على هذه الكومة الكبيرة من الشوارع، من البيوت والفِناءات، من السطوح والمداخن، اسم مدينة. ولكن الأمر الذي كان يبدو لي بعدُ أشد هو كلمتا «المدينة المحتلّة» اللتين كنت أسمعهما تترددان أكثر في أحاديث الراشدين. كانت مدينتنا محتلّة. وهذا يعني أن في هذه المدينة جنوداً غرباء. وكنت أعرف هذا، ولكن ما كان يزعجني هو شيء آخر. فلم أكن أفهم كيف يمكن ألا تكون مدينةٌ من المدن محتلّة. ثم إنه حتى وإن لم تكن مدينتنا كذلك أفما كان ليكون فيها هذه الشوارع نفسها وهذه النوافير ذاتها وهذه السطوح عينها وهؤلاء الناس أنفسهم، أفما كان ليكون لي بعدُ الأب نفسه والأم عينها، أفما كان ليزورنا كما هي العادة «دجدجو» والأم «بينو» والخالة «دجيمو» والأشخاص الذين يختلفون إلى منزلنا هم أنفسهم؟

قال لي «جعفر» يوماً: «وقد سألته عن هذا الأمر: «ليس

في إمكانك أن تفهم معنى مدينة حرّة لأنك تكبر في العبودية. صدّقني ليس من السهل شرح ذلك لك. وإلا لغدا كل شيء مختلفاً وجميلاً بحيث نكون مع بدايته كالمذهولين.

ـ يكون لنا كثير من الطعام؟

ـ أجل، نأكل. بالطبع. ولكن يكون هناك أيضاًكثير من الأشياء الأخرى. أوه! طائفة من الأشياء الأخرى لا أملك عنها أنا نفسي فكرة واضحة كل الوضوح.»

* * *

كانت الشمس تسطع من حين إلى آخر بين الغيوم. وكان يتساقط رذاذ قليل القطرات، وكانت تلك القطرات تبدو وكأنها تبتسم في خفر. وانفتح الباب الخشبي وخرجت الأم «بينو» إلى الشارع. كانت هزيلة مرتدية ثياباً سوداء وتحت إبطها حقيبتها الحمراء وقد حشتها بأدواتها، وأخذت تسير رشيقة الخطو. وكان المطر يتساقط خفيفاً فرحاً. كان هناك عرس في مكان ما. وكانت الأم «بينو» ذاهبة إليه. لسوف تزيّن يداها المعروقتان إذ تخرجان من حقيبتها جميع أنواع الملاقط والخيطان والعلب وجوه العرائس بنقوش النجوم وأغصان السرو والرموز السماوية التي سوف تسبح في بياض البودرة العجيب.

غشّت أنفاسي الزجاج قليلاً فاكفهرّت صورة الأم «بينو». ولم أكن أميّز غير تهاديها الأسود عند طرف الشارع. لسوف تخرج هكذا يوماً لتأتي فتبرّج عروسي. هل في وسعك أن

ترسمي على وجهها قوس قزح أيتها الأم «بينو»؟ كنت منذ زمن طويل أفكّر في هذا السؤال.

ها قد انعطفت الآن إلى الشارع الآخر حيث بدت أشدّ قصراً بين المنازل ذات العلو الذي لا يصدّق. وخلف الأبواب الثقيلة ذات الرزّات المتينة كانت العرائس الشابات الجميلات.

* * *

مقطع إخباري

... التقينا هذه المرة في «نورمبرغ»». لقد أعلن الخبر السعيد. سوف يستقبل بلدنا قريباً صديق البانيا العظيم «موتي»[1] سكرتير الحزب الفاشستي! وها هي ذي مدينتنا تستعد لاستقباله. دعوى. تدابير إجرائية. مِلْك. إنتشلت من النهر جثة أحد مواطني مدينتنا «ل. زوانو». قُتِل في الوقت الذي كان ينبغي أن يشهد فيه في دعوى آل «أنغوني» على آل «كارلاش». إن هذه الدعوى التي عمرها أكثر من ستين سنة قد أضرّت كثيراً بالمنطقة. كشف النقاب عن أن «أحمد زوغو» السلطان الألباني آكل لحوم الشعب قد أهدى إلى عشيقته «ميزي» في فينّا فندقاً دفع ثمنه مليونين. أثقل رجل في المدينة حالياً هو «عكيف كشاه» الذي يزن مائة وخمسين كيلو. طردت العناصر المشاغبة من الثانوية. على جميع المواطنين الذين لا

(١) تعني هذه الكلمة نفسها في اللغة الألبانية براز الإنسان.

يزالون يملكون أسلحة غير مرخصة أن يتقدموا إلى القيادة. آخر مهلة هي السابع عشر من الجاري. قائد الموقع «برونو أرسيفوكال». عاد مواطننا «بيدو شريف» أمس من «تيرانا» حيث أمضى عشرة أيام. ولادات. زيجات. وفيات. «أ. دهرامي و ز. بشاري» رزقا إبناً، ورزق «م. دجيكو» بنتاً. تزوّج «ن. فيكو» «أ. كرافيلي»، وتزوّج «ف. دوبي» «ذ. كصرب». أعلن عن وفاة «ز. بابا ميتو».

٣

كانت المدينة مسرحاً لبعض الأحداث التي ظهر بادىء بدء أنه لا رابط بينها. فقد شوهدت امرأة ملتفعة بشرشف مقرفصة وهي تنكت الأرض في التقاطع الأخير من الشارع المؤدي إلى القلعة. ثم إنها روت الموضع ورجعت سريعاً متوارية عن أنظار الذين حاولوا اللحاق بها. وشوهدت امرأة مجهولة تحت نافذة «نازو» حيث كانت كنتها الشابة تقلّم أظفارها. وقد جمعت العجوز أطراف الأظافر المقلّمة واحداً واحداً ورجعت وهي تضحك هازئة. ولقد نهض «بيدو شريف» فجأة في أثناء الليل وأرسل صيحتين أو ثلاثاً شبيهة بصياح الديك ثم عاد إلى النوم. وصباح اليوم التالي قال إنه لا يذكر شيئاً. وبعد يومين وجدت الأم «بينو» رماداً رطباً مرمياً في فِنائها. ولكن بعد الذي حدث لامرأة «فوتسو» غدا كل شيء جلياً ولم يكن في وسع أحد القول إنه لا رابط بين هذه الأحداث كما كان يظنّ في البداية. فذات يوم حوالي الظهر

قرعت امرأة سمراء باب «مان فوتسو» وطلبت كوب ماء. وأحضرته لها ربة البيت ولكن المرأة المجهولة لم تشرب سوى نصفه. وإذ مدّت الأولى يدها لاستعادة الكوب أخذت عليها الثانية بعنف أنها جاءتها بالماء في كوب وسخ وقذفت بما بقي فيه من ماء في وجهها. وأسرعت امرأة «مان فوتسو» فغلت مـاء في خلقين واغتسلت بعناية وأحرقت الثياب التي كانت ترتديها.

الآن غدا الأمر واضحاً: كانت أعمال سحر قد انتشرت في المدينة. كانت أيد خفيّة تضع أشياء مؤذية في كل مكان، على عتبـات الأبـواب، وخلف الجـدران، وفـوق سقـائف السطوح، أشياء ملفوفة في قصاصات ورق أو في أسمال قذرة من القماش تقشعرّ لمرآها الأبدان. كان يقال إن أذية سحريـة قـد ألقيت على منزل آل «تسـوت» الذي دب فيـه البغض بين الإخوة ولم تهدأ فيـه قط الخلافـات والمشاجـرات... وفُعِلَ الشيء نفسه بمنزل «دينو تسيتسو» الشخص الوحيد المشغـول في مدينتنا بالاختراعات، وقد جاءت هذه الأعمال السحرية الآن تشوّش حساباته. أضف إلى ذلك أن مسلك بعض الشابات في الأيام الأخيرة ما كان من الممكن تفسيره إلا بفعل أعمال السحر هذه.

وفي منزلنا كـان القوم ينتـظرون زيارة «دجـدجو». وقـد جاءت بالفعل وهي تتنفس بصعوبـة كما في كـل مرة وتُسمـع صوتها الأخنّ حتى قبل أن تكون قد فتحت الباب.

وهتفت من أسفل السلم «هاه، لا تعلمن يا مسكينات. إن كنّة «بابارامو» عاجزة عن إرضاع وليدها.» وقالت أمي وقد شحبت:

ـ لا تنفّرينا بالفظائع.

ـ كان عليكن أن ترين ما حدث عندهم. انهمكوا في البحث عن الكرة المؤذية على السقوف وتحت ألواح الأرضيات. قلبوا الفرش وقلبوها وأفرغوا صناديق الثياب. ولقد كوفئوا على تعبهم.

ـ وجدوها!

ـ أجل، أجل، في مهد الرضيع بالذات. كرة من شعر ميت وأظافره. وكان عليكن عندها أن ترين ما حصل! يا لعواءات الفزع! يا للجنون والذعر! ولم يهدأ كل ذلك بعض الهدوء إلا حين عاد الابن البكر إلى المنزل ليخرج منه على التو لإخطار رجال الدرك.

ـ قالت أمي: «أولئك هن الساحرات، فكيف لا يوفق أحد إلى كشف أمرهن.»

وسألت «دجدجو»: «وفي بيتك، ألم يحصل شيء؟»

قالت جدتي: «لا، حتى الآن.»

ـ حسن طالع.

كانت أمي لا تني تردد: «آه! أولئك الساحرات!»

ـ وابن «نازو» هل تمّ القضاء على الأذيّة التي أصابته؟

قالت جدتي: «ليس بعد. لقد استنجدوا مرتين بالخوجا، لكنه لا يملك حتى الآن للأمر شيئاً. لقد قلبت السماء والأرض للعثور على الشيء المؤذي، ولكن بلا جدوى.»

قالت «دجدجو»: «يا للخسارة، فتى مثله!»

كنت أنا قد سمعت بحكاية «مقصود» ولد «نازو». لم يكن قد مرّ على زواجه وقت طويل، وها إن الإشاعة تسري بأنه ضحية أعمال السحر. لقد سمع «ايلير» بذلك في منزله ونقله إلينا. وكان فضولنا عارماً لمعرفة ما كان يجري في ذلك المنزل منذ إصابة السحر المؤذي. ولم أفهم إلا فيما بعد أن «مقصود» أصيب بالعجز عن القيام بواجباته الزوجية. وكثيراً ما كنا نبقى ساعات بالقرب من بابهم، ولكن ما كان يظهر أن شيئاً غير عادي كان يدور في بيتهم. فخلف النوافذ كان كل شيء هادئاً كما من قبل. لقد كانت «نازو» وكنّتها تنشران غسيلاً على أسلاك من الحديد في الفِناء، وفوق السطح كان الهرّ الرمادي يتدفأ بلا انقطاع بأشعة الشمس.

كنا نقول في أنفسنا: «يا لها من أذيّة عجيبة، بلا شجار ولا ضرب!»

وسألت جدتي ذات يوم: «ما هو ذلك السحر المؤذي الذي أُلقيَ على ابن «نازو»؟»

ـ أين سمعت بذلك؟

ـ الرفاق هم الذين قالوا ذلك لي.

قالت جدتي: «إسمع، تلك أمور مخجلة لا ينبغي لمن في مثل عمرك الكلام فيها. هل تسمعني؟»

نقلتُ ذلك إلى رفاقي الذين لم يزدهم الأمر إلا حيرة وفضولاً.

وفي المساء، حين كان الخوجا يرتل دعاءه في المسجد وكانت أعشاش طائر اللقلق التي تتوج أعلى المداخن والمآذن تبدو وكأنها عمائم سوداء، كنا نذهب ونجيء أمام باب «نازو» لرؤية العروس الشابة. كانت تخرج إلى العتبة وتقعد مع حماتها على أحد المقاعد الحجرية المحيطة بالباب. وكانت تداعب بأصابعها ضفيرتها الطويلة، وكان وميض غريب أخّاذ يلتمع بين الفينة والفينة في نظراتها. إنه لم يسبق لحيّنا أن شهد عروساً شابة بمثل هذا الجمال. وكنا فيما بيننا ندعوها «العروس الجميلة» ونتمنى أن تنظر إلينا عندما كنا نركض في الغسق أمام باب «نازو» الكبير لمطاردة فلول الحباحب. كانت تظل هناك مفكّرة تُتبعنا نظرات عينيها الرماديتين وهي تبدو وكأنها تفكر في أمر آخر. ثم كان «مقصود» يصل عائداً من السوق أو المقهى متأبطاً رغيفاً. وعندئذٍ تنهض المرأة الشابة وحماتها بلا ضجة فتدخلان المنزل بينما يغلق هو وراءه الباب الثقيل الذي كان يصرّ وكأنه يئنّ.

هناك خلف هذه العتبة الحجرية كان ينبغي أن يبدأ فعل السحر. وكنا نرثي لحال الزوجة الجميلة التي كان عليها أن تحتبس كل مساء خلف ذلك الباب التعس. وكان الشارع يبدو

لنا خالياً وسرعان ما كانت رغبتنا في اللعب تهمد. وكنا ننظر إلى «نازو» تشعل قنديل كاز كان لا بد أن يثيرضوؤه الكدِر المصفرّ الضجر في نفس أي كان.

كانت «دجدجو» تقول: «أجل يا عزيزتي «سلفيدجي»، الذنب ذنبنا في كل ما يحدث. لقد تخطّى الناس الحدّ حقاً. يزعمون أنه بعد بضعة أيام سيسير رجال المدينة ونساؤها في الشوارع تتقدمهم الأعلام والموسيقى، وسيكون عليهم أن يهتفوا «يعيش «موتي»»! هل سبق لأحد أن رأى مثل هذا الرجس؟»

وقرصت أمي خدّيها فزعاً. «إنها نهاية كل شيء»

وقالت جدتي: «يا للعار»!»

قالت «دجدجو»: «من ذا يدري ما يُخبّأ لنا! ولكن الذي فوق ـ ورفعت يدها في الهواء كعادتها في كل مرة تذكّر فيها بالله ـ يمهل ولا يهمل. لقد أنبت بالأمس لحية لبنت «تشتشكو كايل»، وغداً سوف يكسو أجسادنا جميعاً بالشوك.»

قالت أمي: «أوه! لا قدّر الله!»

ولم تنسَ «دجدجو» أن تقدم لنا قبل أن تذهب بعض النصائح، وفي مثل هذه الأحوال كان صوتها يغدو أكثر خنّة.

ـ عندما تقلّمون أظفاركم لا تتركوا قلاماتها.

ـ ولم؟

ـ يمكن جمعهـا. إن هـذه الكـرات المؤذيـة تصنـع بقلامات الأظافر والشعر يا صغيري، وأنتِ يا ابنتي أتوسّل إليك ألا تدعي شعراً يسقط على الأرض وأنت تتمشطين، لأن الشرير لا ينتظر إلا هذا.

ورددت أمي: «لا قدّر الله!»

ـ ولا تنسوا أن تدفنوا الرماد تحت التراب.

وذهبت «دجدجو» كما جاءت بلهاثها المميّز متدثّـرة في إزارها الأسود تاركة وراءها كالعـادة الويـل والثبور. على هـذه الشاكلة أذكرها، هائجة على الدوام، تسـاورها الهـواجس ولا تخوض في غير الأمور القاتمة متزايدة النشاط بتزايد الخوض. وكان «ايلير» يشـك في أنها هي نفسهـا كانت تتعـاطى أعمـال السحر وتلقي بالأشياء الضارّة.

لم يكن من حديث في جميع البيـوت سوى هـذا. في البدء لوحظ نوع من البلبلة بعد الأحداث الأولى. ثم إنه، كما يحدث عادة في مثل هذه الأحوال، تلاشى الأضـطراب الأول وأخذ الناس يسعـون لاكتشاف مصـادر الشر. واستشيـرت في هذا الصدد «العجائز الطاعنات». وكن نساء بلغن من الكبر عتياً فما يدهشهن شيء ولا يخيفهن شيء. ولم يكنّ يخـرجن منذ زمن طويل من بيوتهن. وكانت الدنيا تبدو في عيونهن مضجّرة لأن جميـع الأحـداث، وحتى أهمّهـا ـ من أوبئـة وفيضـانـات وحروب ـ لم تكن في نظرهن سوى تكـرارات مبتـذلة. لقـد كنّ عجـائـز أيـام الملكيـة، وعجـائـز قبـل ذلـك في عهـد

الجمهورية، وعجائز زمن الحرب العالمية الأولى، وحتى قبل ذلك في بداية القرن. فـ«حجيّة» العجوز لم تغادر منزلها منذ اثنين وعشرين عاماً. وعجوز كبيرة من عائلة «زكا» كانت محتبسة منذ ثلاثة وعشرين. وأخرى، «نزلهان»، سبق لها أن حجبت نفسها منذ ثلاث عشرة سنة بعد وفاة حفيدها. وأما العجوز «شانو» فقد خرجت مرة لبضعة أمتار من منزلها بعد احتباس دام إحدى وثلاثين سنة لتضرب جندياً إيطالياً كان يحوم حول ابنة حفيدتها. ومع أن أولئك «العجائز الطاعنات» كنّ قليلات الأكل يقضين النهار بأسره في التدخين وشرب القهوة فقد كنّ قويات شديدات الأعصاب والعظام. وعندما أمسكت «شانو» بأذن الضابط أطلق صرخة حادة وأخرج مسدسه بسرعة وضرب بعقبه يد العجوز ظناً منه بأنه يستطيع بذلك الخلاص من قبضتها. ولكن هذه لم تفلت أذنه إلا لتكيل له اللكمات من يديها المعروقتين. فلم يكن أولئك العجائز يملكن إلا القليل من اللحم والمواضع الحساسة. في أجسادهن. وكأنما كانت تلك الأجساد تهيّأ للتكفين وقد نزعت منها جميع الأحشاء الكفيلة بأن تفسد بسهولة. وكن إلى جانب الشحم واللحم اللذين لا نفع منهما قد حرمن الرغبات الفائضة عن الحاجة والفضول والخوف والانفعالات ولذة الاغتياب. وقد ذهب «جعفر» إلى حد القول بأن «شانو» العجوز ما كانت لتتحرّج من عرك أذن موسوليني نفسه بمثل ما فعلت بأذن الضابط الإيطالي.

وكانت أقوال العجائز الطاعنات بشأن أعمال السحر في منتهى الحكمة. فقد أوردن أمثلة قديمة تدلّ على أن مثل هذه

الفورات من سوء الطالع تحصل عادة عشية الأحداث الخطيرة عندما ترتعش النفوس ارتعاش الأوراق قبل هبـوب العاصفـة.
وظل كثير من الأمـور بحاجـة إلى التوضيـح، ولا سيما الأمـر الرئيسي. من كان ملقي (أو ملقيـة) الأذيّات السحـرية؟ ولكن الناس لم يكونوا يكتفون بطرح هذه الأسئلة بل نهدوا لبحـوث أكثر واقعية. فقد كان أبناء «عكيف كشاه» يتناوبون المراقبة ليل نهار من كوّة سـطحهم. واشترت الأم «بينو» التي كـانت بحكم عملها كمبرّجة لعرائس المدينة هدفاً أساسياً للاتهام بممـارسة أعمال السحر هذه كلباً بحجم الذئب، وهي الآن تتركه يمرح على هواه في فِناء البيت. وأخرج «مان فوتسو» من قبوه بندقيته القديمة من أيام الأتراك واحتفظ بها جاهزة للعمل معلّقـة على بابه. وفي المقبرة عيّنت الحكومة حارساً جديداً.

وبالإضافة إلى ذلك اتخذ الناس لحمـاية أنفسهم بعض التدابير الوقائيـة. فكانت النسـوة يخبئن الأرمدة في خـزائنهن ويقفلن عليها بالمفتاح كما يفعلن بالطحين، وكان الرجال وهم خارجون من عند الحلاق يحملون في أيديهم منديلاً أو قطعـة من جـريدة يكـون الصبي قد لـفّ فيهـا بعنايـة بقـايـا الشعـر المقصوص.

وأحس الناس بعد هذه التدابير بأن النشاطات الشريرة أخـذت تتباعد. وعاد القوم يتحـدثون عن هـواجسهم اليوميـة الصغيرة التي كانت تلك النشاطات قد طـردتها من أحـاديثهم. وسيطر شعور نسبي بالطمأنينة ونوع من هدوء البال. ولكن الأمر ما كان ليدوم. فما إن خيل إن تلك النشاطات كانت على أهبة الزوال

حتى عادت كأقوى ما تكون. وقد برزت آية ذلك ولا ريب بانفجار برميل جبن مزنّر بقضبان من المعدن ذات مساء محدثاً ضجة مخيفة في منزل المدفعي العجوز «عبده بابارامو». فبعد تجدد النحوس في عدة أمكنة من المدينة نشرت إعلانات تدعو الناس إلى المعاونة لإلقاء القبض على الجناة. ولكن هذه المبادرة لم تُجدِ هي الأخرى شيئاً. فلقد استمرت الأعمال المشؤومة. وكان أن إبتسم أحدهم ذات مساء من كوة سطحه لإمرأة «عكيف كشاه» وقام بإشارة من يده يدعوها بها لزيارته.

وبعد انفجار برميل الجبن تشاجر ابن «عبده بابارامو» البكر على ما يبدو مع زوجته. ولكن ما أحدث أشد الضجة كان السحر المؤذي الذي ألقي على الأم «بينو». ولم يكن في الشيء المؤذي ما يخرج عن حد المألوف، بل على العكس كان هناك كالعادة رماد، ولكنه كان مبللاً هذه المرة بالخل! ومع ذلك فقد لفت الضجيج الذي أحدثناه نحن الأولاد لدى رؤية الأم «بينو» في جميع أطوارها إنتباه دورية إيطالية كانت تمر بالقرب من هناك. وينبغي الإعتقاد بأن هذه أخطرت الحامية بذلك الغليان الشاذ عن المألوف لأنه ما لبث أن وصل بعد ربع ساعة أربعة منقبين إيطاليين مزودين بالأدوات وأجهزة البحث عن الألغام ودخلوا بسرعة فناء بيتها. ورأوا نظراتنا المذعورة والأم «بينو» التي كانت تخمش خديها من الرعب فاندفعوا من غير أن يطلبوا توضيحات يفتشون في المكان الذي كانت أعيننا محملقة فيه.

كان أحدهم يرد بين الفينة والفينة: «يا للشيطان! الجهاز لا يكشف عن شيء».

وبعد بضع دقائق رجعوا أدراجهم محنقين، وإذ كانوا يبتعدون صاح أحدهم بصوت مرتفع موجهاً حديثه إلى الأم «بينو»: «يا للعاهرة»!

كانت أذهاننا الآن مشغولة كل يوم لدى اِقتراب المساء بفكرة أعمال السحر. وكان الأمر معقولاً لأنه عندما كان الليل يلف كل شيء، من أبراج القلعة والسجن حتى مجرى النهر الكثير الحجارة، كانت هناك في مكان ما من الأروقة المقفرة أيدٍ مجهولة تجمع قلامات الأظافر وبعض الشعر وسخام المداخن وبقايا أخرى ذات سلطان سحري مشؤوم وتصرها في أسمال من القماش على همهمات عرّافية تقشعرّ لها الأبدان.

كانت المدينة الكبيرة العبوس التي طالما تحدّت الأمطار وحبّات البَرَد ودويَّ الرعود وأقواس قزح تتآكل. فتقبض سقائف السطوح والتواء الشوارع ووضع المداخن، كل ذلك كان يشهد بعذابها.

«المدينة مصابة بالحمى». كانت تلك المرة الثانية أسمع فيها هذه العبارة. ولم أكن قادراً على أن أفهم كيف يمكن لمدينة أن تمرض. وكنا نسمع أنا و «إيلير» - ونحن في فناء بيت«مان فوتسو» - «جعفر» و «عيسى» يتحدثان عن تعاطي السحر. وكانا يستعملان كالعادة كلمات صعبة كنا نجهلها ولم يكن جرسها ليتلاءم قط وسر أعمال السحر. وقد سمعناهما عدة مرات يتلفظان بكلمة «تصوّف» وكلمتي «الذُهان الجماعي» ثم يسأل «عيسى» «جعفر»:

ـ هل قرأت «جونغ»؟

ويجيب «جعفر»:

ـ لا، ليس في نيتي أن أقرأه.

ـ أما أنا فوقعت بالصدفة على أحد كتبه. إنه يتكلم على هذا بالضبط.

ـ لست في حاجة إلى قراءة «جونغ». فهذا كله واضح أشد الوضوح. إن من مصلحة الرجعية ترويج هذا الذُهان لأنه يُلهي الناس عن المستجد من الأمور والقضايا. هاك ما هو مكتوب في إحدى الصحف: «تنتمي أعمال السحر بشكل من الأشكال إلى التراث الفولكلوري لشعب من الشعوب».

قال «عيسى»: «إنها لنظرية فاشستية»!

وألقى «جعفر» الصحيفة أرضاً وقال: «إن هؤلاء البرابرة بريشاتهم فوق الرؤوس مستعدون لبعث تقاليد القرون الوسطى شرط أن يكون فيها بعض الفائدة لموسوليني».

وكان «جعفر» قد طرد من الثانوية قبل أسبوعين لاشتراكه في أعمال عنف ضد أستاذ إيطالي. وكان الآن مستخدماً في مدبغة «ماك كلاشي».

وسحب من جيبه قصاصة ورق وكتب عليها بخطه المائل: «لا تهتمّوا بأمور السحر السخيفة هذه. إن لنا لهواجس أخرى».

ولاحظ «عيسى» قائلاً وهو يمسح زجاجتي نظارتيه:

«الأمر مقول بوضوح، ولكن ربما كان من الأفضل شرحـه لهم بطريقة علمية بعض الشيء».

تكـدّر «جعفـر» قليـلاً، ولكن الأمـر لم يـطل ومـا لبث الصديقان أن لاحظا أننا كنا نصغي لحديثهمـا فقال «جعفـر»: «إيه! يا صيادي الأشياء السحرية المؤذية! تتنصّتان علينا»؟

والحق أننا كنا مثـل معظم أولاد الحي نبحث عن هـذه الأشياء الضارّة بالناس. وكنا نقضي أياماً كاملة في البحث في كل مكان تحت عتبات البيوت وفي خزائن المؤن العتيقة وفوق السطوح وفي أسافل المواقد، وكنا نترك في كل مكان آثاراً من عمليات بحثنا. وكـان الناس يشعـرون بنتائجها على الأخص حين كان المطر يهطل وكانت ألواح القرميد المزحزحة في عدة أماكن تسمح للقطرات بالتساقط. وكنا قد ركزنا أبحاثنا بصورة خاصة حول منزل «نازو»، وذلك شغفاً طبعاً بالزوجة الشابة.

وعلى الرغم من جهودنا فإننا لم نفلح في العثور على أية كرة وكنـا قد يئسنا من أن نكتشف ولو واحدة عندمـا ابتسم لنا القدر أخيراً.

حدث ذلك في يوم مشمس في زقاق «المجانين». وعلى الرغم من بشاعة هذا الممر وكثرة التواءاته فإننا ما كنا لنستبدل بـه إي بولفـار في الدنيـا لأن أي شارع كبيـر ليس من السخاء بحيث يسمح للأولاد باقتلاع بـلاطاتـه واللهو بهـا على هواهم في رابعة النهار. فأما زقاق «المجانين» فكان يسمح لنا بذلك.

كنا نلعب ذلك اليوم برمي الحجارة حين صاح أحدنا فجأة مذعوراً: «الكرة»!

وركضنا جميعاً إليه، وما إن وصلنا حتى توقفنا وكأننا تحجّرنا. كان شاحباً وكان يشير بإصبعه إلى بقعة على الأرض. وهناك بين الحجارة كانت تقبع واحدة من تلك الكرات المؤذية بحجم قبضة اليد. وأخذ بعضنا ينظر إلى بعض بفزع واختنقت الكلمات في حلوقنا. (كان على «دجدجو» أن تشرح لي فيما بعد أن العمل المؤذي هو الذي أفقدنا النطق) ثم إننا ما لبثنا أن تملكتنا شجاعة عظيمة كالتي تحدث أحياناً في الأحلام حين يكون المرء وحيداً في طريق مقفرة، وبعد أن يكون قد شعر في العتمة بقلبه يخفق من الخوف لأن خطراً محققاً يتهدده، تراه بغتة، وقد أحس بأن شيئاً على بعد خطوات منه يتحرك، أو أن طيفاً أو وجهاً لا يغمره ما يكفي من النور يقترب، يساوره سُعر مجنون فينحلّ إسار أعضائه ويعود إليه نطقه ويبادر بالانقضاض على الطيف المؤذي... فيستيقظ.

صاح «إيلير» فجأة بملء رئتيه: «الكرة السحرية»! وانحنى فوقها فالتقطها وقذف بها في الهواء. وصحت أنا مع الآخرين: «الأذيَّة! الأذيَّة»!، ومن غير أن نفهم السبب أخذنا ننهب الممر بأقصى سرعتنا. كان «إيلير» يركض أمامنا وكنا نتبعه صائحين لاهثين من الفرح الممزوج بالفزع.

لم تلبث مصاريع النوافذ أن إنفتحت بصخب كاشفة عن رؤوس نساء مذعورات: «ما الأمر»؟

ـ السحر، سحر»! . كان ذلك جوابنا ونحن نمـرق مثل قطيع مسعور خلال الحي .

ظهـرت الأم «بينـو» في شبـاكهـا وهي تـرسم إشـارة الصليب، وابتسمت عينا كنة «نازو» الجميلة الواسعتـان، ومدّ «مان فوتسو» ماسورة بندقيته خارج كوة مخزن الغـلال، وأضاء وجـه «عيسى» خلف زجاجتي نـظارتيه الثخينتين اللتين كانتـا تلتمعان وكأنهما شمسان .

كـانت أم «إيليـر» تصيـح وقـد انـدفعت وراءنـا لاطمـة خـديها: «ايليـر، أيها التعس! ايليـر، بحق السمـاء ارم هـذا الشيء، ارمه!» .

ولكن «إيلير» لم يكن يصغي إليها . واستمَر يركض سابقاً عصبتنـا الصغيرة وقـد جحظت عينـاه مثلنا جميعـاً : «السحر! السحر!»

كانت أمهاتنا ينادينـا من النوافـذ والأبواب والجـدران . وكن يخمشن خدودهن علامة الهلع ويتوعّدننا ويبكين، ولكننا استمررنا نركض من غير أن نتخلى عن الشيء المؤذي . وكنـا نـظن أننا نمسـك بقلق المدينـة في هـذه الكـرة من الأسمـال القذرة .

تعبنا أخيراً فتوقفنا في ساحة «الزمان» غارقين في العرق متسربلين بالغبـار وقد تقـطعت أنفاسنـا، ولكن وجوهنـا كانت تتألّق بهجة وحبوراً .

قال أحدنا: «والآن ماذا نفعل؟»

ـ نحرقها. أليس مع أحد ثقاب؟

كان مع أحدهم ثقاب. أشعل «ايلير» النار في الشيء المؤذي وطرحه أرضاً. وإذ كان يحترق ويتأجج استأنفنا صياحنا ثم فككنا أزرار فتحات بنطلوناتنا وأخذنا نبول عليه ونحن نطلق التهاليل ويتلقى أحدنا رشاش بول الآخر بفرح.

* * *

لم يكن ماء الصهريج يحدث رغوة فقالت «دجدجو»: «لقد رمي فيه سحر مؤذٍ. بدّلوه على الفور وإلا كانت القاضية».

كان تبديل الماء عملاً شاقاً فتردّد أبي، وأصرّت جدّتي على القيام بالتبديل، ووقفت في صفها اللواتي كن يستقين الماء من عندنا من نساء الحي. واكتتبن فيما بينهن لجمع بعض المال وأعلنّ فوق ذلك أنهن مستعدات للعمل طوال النهار إلى جانب المفرّغين.

وأخيراً اتخذ القرار وابتدأ العمل. كان العمال ينزلون ويصعدون بواسطة سلّم من الحبال حاملين القناديل. وكان التفريغ يتم دلواً دلواً. وأخذ الماء القديم يخرج ليحل محله الماء الجديد.

كان «جعفر» و«عيسى» يتحدثان عند أسفل الدرج وهما يدخنان، وكانا ينفجران بالضحك من حين إلى آخر. وسألتهما «دجدجو»: «ما الذي يضحككما؟ الأحرى بكما أن تأخذا

دلوين وتساعدانا». قال «جعفر»: «يذكّرنا هذا العمل بأهرام مصر».

ابتسمت كنة «نازو». وكانت الدلاء تقرقع عالياً وهي تصطدم بحواف الصهريج. واستأنف «جعفر» قائلاً: «ليس الماء هو الذي ينبغي أن يبدل، بل العالم».

وأخذ «عيسى» يضحك. ونظر أبوه إلى الشابين نظرة تنمّ عن الموافقة. وكانت جدتي تهبط الدرج حاملة صينية حافلة بفناجين القهوة المعدّة للعمال. وقف هؤلاء يحتسون القهوة وهم يتنفسون بمشقّة. كانوا شاحبين من جراء نقص الهواء في قعر الصهريج. كان أحدهم يدعى «عمر». وحين هبط اقتربت من فتحة الصهريج وصرخت باسمه.

رجّع الصهريج: «عمر!». وإذ كان فارغاً فقد كان صوته هادراً، ولكنه كان أجش بشكل غريب وكأنه أصيب بالزكام. وسألني «عيسى»: «هل تعرف من كان «عمر» أو «أومير»[1]؟

- لا، قل لي من كان.
- كان شاعراً اغريقياً أعمى.
- من الذي فقأ له عينيه؟ الطليان؟

قهقها. «لقد كتب كتباً رائعة عن وحوش ذات عين

(١) لما كان اسم «عمر» يلفظ في اللغات التي لا تملك حرف العين أقرب ما يكون إلى «أومير»، وكان اسم «هوميروس» الشاعر اليوناني يلفظ بالطريقة نفسها فقد استغل الكاتب ذلك للعب على الموقف. (المترجم)

واحـدة، وعن مـدينـة اسمهـا «طـروادة» وعن حصـان خشبي أيضاً».

مددت رأسي فوق فتحة الصهريج وصحت: «اومير!»

كـانت بقع من الضـوء والظل تختلطان في الصهـريج. وردّد قائلاً: «أومير!» فشعرت وكأنني أسمع عصا الأعمى تدق الأرض.

قالت «دجدجو» وسط قرقعة الدلاء: «مـا الذي يجعلك دوماً بين أرجلنا؟».

* * *

مقطع إخباري

... في الوقت الذي تستعدّ فيه اليابان لمهاجمة الهند واوستـراليا. دعـوى. حاجب. مِلْك ـ «غـول بالـوما» من حي «فاروش» مطلوب للمثول أمام القضاء من أجل دَيْن. يتم بيـع أثاث «ل. زوانو» بيعاً قضائياً يوم الأحد. صدرت مذكّرتا توقيف بحق العجـوزين «هـ. ز». و«ك. ف.» المتهمتين بـتعـاطـي أعمال السحر. ليعلم القراء أن رداءة العدد الأخير من الجريدة والأخطاء المحتمل أن تكون قد انـزلقت اليه سببهـا أني كنت أشكو ألماً في المعدة الأسبوع الماضي. رئيس التحرير. طُرد تلاميذ مشاغبون آخرون من الثانوية. تلقينـا عدة شكـاوى من أولياء التلاميذ على المعلّم «كاني ككيـزي». النظام التـربوي الذي يتّبعه هذا الأستاذ غريب حقاً. ففي درس التشريح يشرح قـططاً أمام أنـظار التلاميـذ المساكين المـذعورة. وفي المـرة الأخيرة أفلت منه القطّ المذبوح وقفز على المقاعد وهو يجرجر

أمعاءه. سافرت أمس الآنسة «ليلى كرلاش» إلى ايطاليا. ننتهز الفرصة لنقدم لكم أوقات انطلاق بواخر شركة «دوريس - باري». عناوين قابلات المدينة القانونيات. أثمان الخبز. ولادات، زيجات، وفيات.

٤

قالت لي جدتي: «تبدو مصفرًّا قليلاً. حبذا لو ذهبت لقضاء بضعة أيام عند جدك».

لقد طالما سررت بالذهاب لزيارة جدي لأمي. فالأمكنة المجاورة كانت أكثر بهجة وأقل قسوة، ولم يكن المرء يشعر عنده على الأخص، كما هي الحال عندنا، بوجود الجوع. ففي بيتنا الكبير، وربما بسبب الممرات وخزائن المؤن والأقبية، كان ذلك الشعور أكثر وضوحاً. أضف إلى ذلك أن حينا كان رمادياً، وكانت البيوت فيه متلاصقة أشد التلاصق. وكان كل شيء فيه قد ثُبّت وغُرس مرة واحدة وأخيرة منذ قرون وقرون. وكانت الشوارع والمنعطفات وعتبات البيوت وأعمدة البرق وكأنها مسمّرة في الحجر بمسافات محدّدة يكاد الفرق بين الواحدة والأخرى منها يكون سنتمتراً واحداً. وعلى العكس من ذلك لم يكن عند جدي شيء جامد. فكل شيء كان يبدو ليّناً متحرّكاً. فالطرق كانت تبدو وكأنها نسيت ما كان عليه مخطّطها في الأسبوع الماضي وتحركت وئيدة بلا ضجيج من جانب إلى آخر. وقد يكون ذلك لأنه لم يكن هناك فتر من

الأرض مبلّط، وأنها كانت مكسوّة في كل مكان بالتراب الليّن. كـان في المشهد هنـا شيء من الانسان: كـان يُـرى على مـرّ الفصــول يسمن أو يضمــر. يستضيء أو يعتم، يحـلو لـي أو يتبشّع. وكان حيّناً شبه لا مبالٍ بهذا التغيّر.

والأغـرب أن هـذا الحي لم يكن فيـه غيـر بيتين، بيت جدي وآخر على بعد مئتي خطوة منه. وكانت السفوح الوعـرة حوله مغطاة بشجيرات وبعشب برّي. وكان يـزيد من تـوحش مظهرها صخور وحجارة كبيرة لا يعلم غير الله من أين دُحرجت منذ قرون وقرون فأقامت هنا بين الأجم والعشب المنثور. كان ذلك جزءاً من المدينة محتضراً تحت أبصار الجميـع. وكانت الدروب متحركة مؤقتة وكأنما نفد صبرها لمغادرة هذه الأمكنة إلى الأبـد. وكانت الشجيـرات تـزداد جـراءة فتنبت في أشـد الأمكنــة غـرابــة: وسط الشـارع وبجــانب عين المـــاء وفي الفِناءات؛ حتى إن شجيرة حـاولت أن تنبت على عتبة بـاب. وغني عن القول إن هذه الجسارة كلفتها حياتها.

كـانت الشجيرات تستـدعي الموت. وكنـا نـلاحظ أنـا و«ايلير» ونحن نركض في الأحياء العليا أن بعض الأدغال نمت خلف صف الأطلال التي كانت تؤلفها آخر البيـوت المهجورة منذ أمد طويل. وإذ كانت ترقب وتترصد وكأنها بهائم غادرة فقد حاصرت المدينة. وكنت في الليل أسمعها تعوي. وكان عواء خافتاً يكاد لا يسمع وكأنه نشيج.

في الشمـال كان يمـر الـدرب الـذي يؤدي إلى القلعـة ويربط أحياء المدينة العليا بوسطها. وكـان يعلو فوق سـطحي

المنزلين الوحيدين، وذات مرة انقلبت شاحنة فسقطت في فِناء بيت جدي. وكان يحدث أن يقع سكير فوق سطحنا فيظل المطر يتقاطر أسابيع وأسابيع. ولكن ذلك لم يكن كثير الحدوث. فالمارة الذين يسلكون هذا الطريق كانوا نادرين، وبين الفينة والفينة كان متوحّد مجهول يرفع عقيرته بالغناء وهو عائد من السوق في الساعات الحارة من النهار:

«كانت الساعة السابعة مساء
«فجئت أقف ببابك
«وسمعت صوتك يا «ماري»:
«كنت تشكين من ألم في رأسك.»

كانت هناك «مريام» ما تشكو الصداع كل مساء في الساعة السابعة وتبدي شكواها. وكان ذلك مبتذلاً جداً، ومع ذلك فإن تلك الأغنية كانت تعجبني كثيراً. فلم يكن أحد ليجرؤ على غناء أغنية مماثلة في حينا. ولو أن أحداً تجرّأ على فعل ذلك لانفتحت عشرات النوافذ في آن واحد، ولخمشت النسوة شاباتٍ وعجائز خدودهن خجلاً ولَكِلْنَ اللعنات، ولربما ألقى أحدهم في نهاية الأمر دلواً من الماء على رأس المتهوّر. أما هنا فعلى العكس من ذلك كان الفضاء شاسعاً وكان في وسع المرء أن يرفع صوته إلى عنان السماء من غير أن تمتلىء به. ولم يكن من قبيل الصدفة أن المجهول لم يكن يصدح بتلك الأغنية إلا بعد أن يكون قد دخل ذلك الطريق. كان بالتأكيد يجترّها في ذهنه طوال النهار، في السوق والمقهى وقلب المدينة، وكان عليه أن ينتظر بفارغ الصبر أن

يصل إلى هذا الموضع القفر لغنائها بأعلى صوته.

كانت العشيات على الأخص في هذا الحي جميلة جداً وذات سحر خاص. وما إن كنت أسمع الناس يقولون «مساء الخير» حتى كنت أفكر في بيت جدي حيث كان الغجر الذين يسكنون في غرفة معزولة منه يعزفون على الكمان في حين كان جدي يدخن غليونه العظيم الأسود وهو جالس على كرسيه الطويل. فمنذ أمد بعيد لم يكن في وسع الغجر دفع أجرة سكنهم، وكانوا على ما يبدو يتخففون من جزء من دينهم حسب تفكيرهم بهذه الحفلات الموسيقية في عشيات الصيف.

كنت أقول لجدي بصوت خافت: «لفّ لي سيكارة أنا أيضاً يا جدي»، وكان هو يصنع لي واحدة نحيلة ويناولنيها من غير أن ينبس بكلمة. وكنت أجلس إلى جانبه وأمجّ دخانها بلذة غير عابىء بالإشارات المتوعّدة التي كانت خالتاي وأخوالي يوجهونها إلي في العتمة.

كنت أرى أنه لا فرح في الدنيا يعدل الفرح الناتج عن تدخين سيكارة بعد وجبة دسمة والعينان مغمضتان كما يفعل جدي والاستماع إلى العزف على الكمان.

وكنت أفكر في أنني ما إن أشب عن الطوق حتى أشتري غليوناً عظيماً أسود تتعالى منه غيمات من الدخان وأطلق لحية كلحية جدي وأقرأ كتباً ثخينة مستلقياً على كرسي طويل.

وكنت أقول له وأنا أمطّ صوتي كما في الحلم: «أتعلّمني التركية يا جدي؟»

وكان يجيبني: «أجل، حين تغدو أكبر قليلاً.»

كان في صوته العريض نبرات مهدهدة، وكنت أفكر وأنا مستند إلى كرسيه الطويل حاسباً في ذهني كم يلائمني أن أدخن وكم من الكتب ينبغي أن أقرأ قبل أن يحين أجلي بعد عدد وافر من السنين.

كانت الكتب السميكة في الصندوق مكدّسة بعضها فوق بعض، مجموعة لا حصر لها من الحروف العربية التي كانت تنتظر أن تقودني وتكشف لي الغوامض والأسرار لأن الحروف العربية وحدها تعرف دروب الأسرار كما يعرف النمل جميع الثقوب والشقوق في التربة.

«هل تتقن قراءة النمل يا جدي؟»

وكان يضحك بهدوء ثم يداعب خصلات شعري المشعثة.

ـ لا يا ولدي إنها لا تُقرأ.

ـ ولماذا؟ إن النمال إذا اجتمعت خيّل أنها حروف تركية بالتمام.

ـ إنه انطباع لا غير.

وكنت أصرّ للمرة الأخيرة قائلاً: «ولكني رأيتها».

وكنت أمجّ عندئذٍ دخان سيكارتي متسائلاً عن سبب خلق النمل إن لم يكن بالإمكان قراءته كما تُقرأ الكتب.

كان ذلك كله يرد على خاطري كيفما اتفق وأنا أصعّد مخلّفاً ورائي منزل المدفعي العجوز «عبده بابا رامو»، وهو المنزل الوحيد القائم عند أسفل القلعة. ثم هبطت خلال

الأجم الدرب الضيق الذي خيّل إلي أنه انتقـل من مكانـه هو الآخر. وكانت مقاطع من ذكريات وأجزاء من جمل أو كلمات وأشلاء من أحداث غير مهمة تتقاطع وتتدافع وتتماسك بالآذان أو بالأنوف بفظاظة كانت تزداد حدّتها بازدياد سرعة خطوي.

ها هو ذا الآن منزل «سوزان». إنها ما إن تعلم بوصولي حتى تهرع وتحوم حول بيت جدي إلى أن تلمحني. كـان في حـركاتهـا شيء من الفراشـة واللقلق معاً. كـانت أطول مني، ناحلة ذات شعر طويل تبدل تسريحه حسب الأيام، وكـان كل الناس يقولون إنها جميلة. ولم يكن هناك غيرهـا، لا بنت ولا صبي، في حي جدي. وهكذا كانت دائماً ترقب مجيئي بفارغ الصبـر. وكانت تقـول إنهـا تتضجّـر كثيـراً مـن وجـودهـا مـع الراشدين. كانت تتضجّر في بيتها من التطريز، وتتضجّر عنـد عين المـاء، وتتضجّر وهي تتنـاول وجبات الـطعـام. وبكلمـة كـانت تتضجّر «بـلا حدود». وكـانت تحب هذه العبـارة كثيراً وتلفظها من فمها مبينة مقاطعها بعناية فائقة وكأنما تخاف إماتتها عن غير قصد بأسنانها.

كنت أحكي لها طائفة من أمور الحياة في حيّنا. وكانت تصغي إلى كل شيء وقد شالت بحاجبيها متيقظة أشد التيقظ. وفي آخر مرة، وكنت أحكي لها حكاية لحية بنت «تشتشو كايل» بحلقت بعينيها وعضت شفتيها مرة أو مرتين وكانت على وشك أن تقول لي شيئاً، ولكنها تمالكت نفسها وتردّدت بعض الشيء ثم قـرّبت فمها من أذني وسـألتني وقد شحب وجههـا: «هـل تعرف كلمات ماجنة؟»

قلت لها: «اغربي عني أيتها البلهاء!»

قالت وهي تكاد تصرخ: «أنت الأبله!» وولّت الأدبار مطلقة ساقيها للريح. وأدارت وجهها وهي تركض وصرخت من بعيد: «أبله».

وفي المساء عادت إلى الفِناء وهمست في أذني برقة وهي تحيط كتفي بذراعها الطويلة النحيلة: «سامحني على نعتي إياك بالأبله قبل قليل. كنت أريد أن أعهد اليك بـ «سرّ»، ولكني كنت قد نسيت أنك صبي». وأجبتها: «وما علي من أسرارك، إني أملك طائفة من الأسرار في بيتنا».

وخنقت ضحكة ورجعت راكضة سعيدة بأننا كنا قد تصالحنا تقريباً.

كنت قد وصلت هذه المرة إلى بيت جدي طافحاً بالأخبار المفزعة. وكنت أشعر وكأنني بطل عائد من مملكة السحر، وأفكر في الدهشة التي سأحدثها من غير أن أرتاب في أنه تنتظرني أنا نفسي في هذا المنزل القديم مفاجأة مكدّرة: «مرغريت».

ما كدت أجتاز عتبة الباب الكبير حتى لمحتها وأنا أرفع رأسي بحركة آلية خلف إحدى النوافذ في الطبقة الأولى. ولم يكن قد سبق لي أن رأيت وجهاً نسوياً بمثل هذا الجمال في هذا البيت الذي لم يكن في وسعي تخيّله إلا حافلاً بالخالات والأخوال والحروف العربية والمؤن.

كانت جالسة قرب أحواض الزهر غريبة كليةً وبشكل

معجز؛ غريبة مباغتة كوردة تتفتح فجأة ذات صباح على ساق مغطاة بالأشواق. وسألت جدتي وأنا منفعل بعض الشيء: «من هذه؟»

قالت جدتي: «إنها المستأجرة الجديدة. لقد أجرناها منذ أسبوع الغرفة القائمة في الزاوية».

ابتسمت «مرغريت» من بين أحواض الزهر وسألت: «هذا حفيدك؟»

أجابت جدتي: «أجل».

أحسست بأنني احمررت خجلاً حتى أذني وهرعت إلى باب الفِناء. وكنت واقفاً على العتبة حين سمعت صوتاً كحفيف الأجنحة، فخطر في بالي أنها «سوزان». قالت: «هه، جئت؟»

اختفت فجأة رغبتي كلها في أن أقص حكايات حيّنا: «ماذا تريدين أن أحكي؟ ليس هناك ما يُحكى».

قالت بلهجة الخيبة الفائقة: «لا شيء؟»

- هناك بعض حكايات عن السحر.

- السحر؟ كيف يُصنع هذا؟ إحكِ.

- هناك أنواع متعددة منه.

- لا تريد أن تحكي لي عنه؟

لزمت الصمت.

- لماذا لا تريد أن تقول لي شيئاً؟ حدثني عن السحر، أو عن الايطاليين.

بقيت ساكتاً.

ـ أنت أبله حقاً. «بلا حدود».

ـ آه! نعم، «بلا حدود»؟

وبغتة سحبت من جيبي زجاجة النظارة وثبّتها على عيني بين رأس خدي وقوس حاجبي. وكان عليّ لكي أحتفظ بالزجاجة على هذه الشاكلة أن أصطنع تقطيبة مريعة وأن أبقي عنقي جامداً وكأني مسمّر. وكانت «سوزان» تكره رؤيتي على هذه الشاكلة، فقالت: «هوه! البشع!»

ـ أنا يعجبني أن أكون هكذا.

ـ لماذا تبشّع نفسك؟

ـ يعجبني الأمر.

وأخذت أتحرك بتؤدة وعنقي ممطوط ووجهي مشوه الشكل مقبّضاً جميع عضلاتي لمنع الزجاجة من السقوط. وكانت تنظر إلي باحتقار. ونسيت لحظة غضبي عليها غير المسوّغ، وإذ كنت أريد أن أتبختر فقد دخلت والزجاجة على عيني غرفة الغجر وسط صيحات صغيرة من الفزع المخلوط بالإعجاب كانت تثيرها مناورتي الصغيرة في العادة. ولدى خروجي أحسست بخدي متقلّصاً تماماً، وإذ لم يعد في مكنتي إبقاء الزجاجة على عيني فقد نزعتها عنها وأعدتها إلى جيبي.

ورجعت «سوزان» إلي وهي تراني أنزع الزجاجة وقالت لي بلطف: «لماذا تكون معكر المزاج على الدوام في كل مرة تأتي فيها من هناك؟»

وحدجتها بنظرة فأدركت من تعبير وجهها الصافي أن

العطف انتصر على الضغينة. وتقدمت مني خطوة وقالت: «ليتك كنت تعلم! إنني هنا وحيدة! وأنا أتضجّر».

واستبقت بابتسامة كلمات التصالح التي كانت تنتظرها مني، وكأنما كنت في تلك اللحظة مدفوعاً بقوة عمياء لا تقاوم فصحت بها بصوت فاتر بدا لي أنا نفسي غريباً بالطريقة التي سمعت بها الجنود الإيطاليين يتلفظون بهذه الكلمات: «يا للعاهرة!»

رفعت يدها إلى فمها وتراجعت خطوة ثم أخرى، وبعدها انفتلت فجأة وانطلقت راكضة بساقيها الطويلتين في الأجم.

وبقيت هناك لحظة كالمشلول. كان جبيني ينضح بالعرق. وأعادني إلى نفسي صوت جدتي التي كانت تدعوني للغداء.

لم أر قط «سوزان» طوال الأيام الأربعة التي قضيتها بعد ذلك هناك. وكنت أظن أحياناً أني أسمع ما يشبه الحفيف حولي من غير أن أتمكن من تحديد مكانه، ولكني لم أر صديقتي أبداً.

كان الخريف يقترب، وكانت الأزهار في الفِناء قد بدأت تذبل والأماكن المجاورة تتعرّى كل يوم أكثر فأكثر، وأما بيت جدي العتيق فقد غدا أكثر انكشافاً. وكانت تلك العشيات الأخيرة التي يعزف فيها الغجر على الكمان. وفي ظل الفِناء كان جدي، بعد أن يقرأ كتبه السميكة طوال بعد الظهر، يدخن

غليـونه مستلقيـاً نصف استلقاء على كـرسيه الـطويـل. وكنت أجلس كالعادة على كـرسي بالقـرب منه، ولكنني لم أكن في الوقت الحاضر أفكر بالتبغ ولا بالكتب التركية لأن «مرغـريت» كـانت كثيراً مـا تأتي فتجلس بقـربي وتحيط عنقي بذراعهـا. وكانت السماء تظلم، ومن حين إلى حين كان نجم يهوي في المدى الواسع.

كـانت «مرغـريت» تقول بصـوت خافت: «إنـه نيـزك، أرأيته؟»

وكنت أهزّ برأسي.

والحق أن سقوط نجم لم يكن يهز مشاعري بـأكثر ممـا يفعل زر إذا سقط من قميص لأن شعر «مرغريت» الكثّ كـان يتدلى على عنقي وكان يفوح منه ومن جسدها كله عبق خفيف لم تكن تملكه أمي ولا جدتي ولا خالاتي ولا كان يشبه الروائح اللذيذة التي كنت أحبها ولا حتى قتار أشهى اللحوم.

أخذ الجو يبرد وأخذ جدي يغادر كرسيه الطويل أبكر مما كان يفعل في عشيات الصيف. وكان الجميـع ينهضون بعـده ويعيد الغجر كمنجـاتهم إلى صناديقهـا ويسود عنـدها سكـون يدوم بضع لحظات. ثم إن برقـاً كان يلتمـع في مكان مـا في الأفق فيقـول جدي: «غـداً ستمطر». ويقـول الغجر: «مسـاء الخير» ويعودون إلى غرفتهم.

كان زوج «مرغريت» يقول «مسـاء الخير»، وتكـرر هذه بصـوتها الـدافىء «مساء الخيـر» فيجيب كـل بـدوره «مسـاء الخير».

كنت الأخير في قول «مساء الخير» وأنا أكاد أسقط من النعاس، ثم إن درجات السلّم القديم كانت تطقطق بعض الوقت إلى أن يستقر الهدوء والنوم في كل مكان.

عندها كانت تنشط سقوف المنزل. وكانت حركة الفئران التي تبدأ خجولة متقطعة تغدو أكثر انتشاراً وجراءة؛ وكان قطيع جامح منها يندفع بصخب من طرف مخزن الغلال إلى طرفه الآخر. وكلما كانت الدقائق تمر كانت قطعان الفئران تلك تتماهى في ذهني وجيوش «جنكيز خان» التي كنت قد رأيتها في السينما. وها هي ذي الآن تتجمع في مكان ما في أعماق آسيا (كان سقف «مرغريت» هو «آسيا»). إنها ولا شك تستعد. وتلي ذلك سكنة قصيرة. الظاهر أن «جنكيز خان» يخطب في جيوشه. إنه يمد ذراعه نحو حدود «أوروبا» (سقف الممر). وتتحرك الجيوش. وتزداد الجلبة. وتئن السقوف. لقد اجتازت الجيوش أطراف قارتنا. بلغت الجلبة ذروتها. وهي الآن فوق رؤوسنا. رعب. مذبحة. ثم ينحرف الجيش. رسول يحمل نبأ من أعماق «آسيا». ثارت إحدى القبائل. يعود الجيش أدراجه. يجتاز الحدود مجدّداً. إنه الآن في «آسيا» معارك طاحنة تدور. تحت ساحة المعركة تنام «مرغريت». على «جنكيز خان» أن يوقف هذه الجلبة. هل يدور في خلده أنه يزعج منام «مرغريت»؟ ولكنه لا يريد أن يعلم شيئاً. ها هوذا يصيح أنه لا أهمية للنوم في الحرب. ويستمر اختلاط الحابل بالنابل.

في صباح اليوم التالي وضعت جدتي يدها على جبيني

وقالت: «لقد حكيت في الليل وأنت نائم. أتُراك محموماً؟»
ـ لا.

كان اليوم رابع أيام زيارتي لجدي وجدتي وآخر يوم. وبعد الفطور استأذنت من الجميع ومضيت.

ولدى عودتي إلى المنزل حاملاً قطعة من معجون اللحم كانت جدتي قد لفّتها لي بعناية في ورقة، واسم «مرغريت» (كنت أحمل اللحم في يدي، وأما اسم «مرغريت» فلم أكن أنا نفسي أدري أين أحمله) لمحت بعض التلاميذ يصعّدون في شارع «فاروش». كانت وجوههم مربدّة. بالتأكيد. لا بد أن أستاذهم «كاني كيكيزي» قد شرّح هرًّا في أثناء درسه.

* * *

لم يتغير شيء في البيت ولا في الحي، وأما في السهل وراء النهر فشيء ما كان يحدث. والذي لاحظته أول ما لاحظت اختفاء الأبقار التي كانت ترعى فيه عادة. زد على ذلك رفع أكوام التبن. وكانت بعض الشاحنات تقطع السهل ذهاباً وجيئة. وأخيراً بدأت الأمور تتوضح شيئاً فشيئاً. ثم إن كلمة جديدة مجهولة تماماً ومنحوتة من كلمتي «هواء» و«طريق»[(١)] كانت تسمع هنا وهناك. ثم اتضح كل شيء تمام الاتضاح: في السهل عند أسفل المدينة كان يقام مطار.

---

(١) كلمة (aérodrome) الفرنسية التي هي (مطار) في العربية مؤلفة من (air) أي (هواء) و(drome) اليونانية التي تعني (الطريق). (المترجم)

وكثيـراً ما كـان المـارة في الشـوارع والأزقـة يتـوقفـون ويلتفتون صوب النهر وقد بدا عليهم السهوم وهم ينظرون إلى بعيد.

كان ذلك ضيفاً جديـداً. ضيف خارق للمـألوف منبسط عند أسفل المدينة ويكاد لا يرى. ولو لم يحدث غياب الأبقار وأكوام التبن لما كـان الناس على يقين من أمـر قدومـه. كنت آسفاً على الأبقار.

ـ لماذا يسمونه مطاراً؟

ظلت عينا «جعفر» الرماديتين لحظة ساهمتين ثم قال:

«لأن الطائرات تنطلق من هذا الطريق إلى السماء».

ضيف. ضيف يُمن أو ضيف شؤم. لقد وصل زاحفاً بلا صخب. وكانت آلاف العيون المنـذهلة تنظر اليـه من غير أن تعي تمام الوعي أمر قدومه. وكان وهو ممدّد على طـوله فـوق السهل مهدِّداً متعذراً دخوله قد أقلق راحة جميع الناس.

ـ إنها الاستعدادات للحرب.

ـ قد تكون. ولكن قد يكون هذا أيضاً لحماية المدينة.

ـ لا أظن. إنه علامة على أن الحرب واقعة.

ـ قد يكون كما تقول. وعلى كـل حال فـإن طائفـة من الناس وجدت فيه عملاً.

ـ ذلك المال الذي يكسبونه ما هو إلا دَيْن يقترضونه من الموت.

كان هذا الحـديث قد دار بين شخصين غيـر معروفين.

وكـان المـطار الآن على كـل لسـان. ومُـنذ أُطلق عليـه اسم «المطار» أدرك الناس أن السهل لم يكن له اسم حتى اليـوم. ويبدو أنه كان قد انتظر مجيء الطائرات ليتخذ اسماً.

٥

شعـرت لدى عودتي من بيت جـدي أن أعمـال السحـر المؤذي في حينا كانت قـد فقدت تقـريباً حـدّتها كلهـا. وكان تطهير صهريجنا قد انتهى أيضاً. وإذ كان قد تخلّص آخر الأمر من القوى الخفيّة فقد أخذ يمتلىء بـالماء الـطازج الذي كـان يهدر بفرح على امتداد سقيفة السـطح. وانحنيت فوق فتحتـه وقلت: «آو!». ومع أنه كان ممتلئاً بماء جديد ومجهول فإنه لم يلبث أن جاوبني. كان صوته لا يزال هو إيـاه وإن أرقّ قليلاً. وكان ذلك يعني أن كل مياه الدنيا، مهما كان الجزء السماوي الذي تهطل منه، تتكلم اللغة نفسها.

وباستثناء الأبقـار التي لم تعد تـرعى في المروج خلف النهر فإنه لم يحدث ما يقلق إلا أن يكون اختفاء هرّ الأم «بينو» المفاجىء.

لقد كانت في نافذتها مشغولة بالحديث إلى زوجة «بيدو شريف» التي كانت قد أطلت هي الأخرى من نافذتها ويداهـا معفّرتان بالطحين:

ـ قلت لك إنه هو الذي أخذ هرّك، هذا الأستاذ اللعين الذي لم يبق هرًّا واحداً حياً. إنه هو الذي خطفه منك.
ـ طبعاً، ومن غيره يستطيع ان يفعل ذلك؟ يا للجنون!»

كانتا تتحدثان بالطبع عن «كاني كيكيزي».

ـ تلك هي نتائج التعليم أيتها الأم «بينو»، ربما كان يضرّ أكثر مما ينفع. هل سبق أن رأى أحدهم ذات يوم إنساناً يسرق هرًّا؟

قالت الأم «بينو»:

ـ أجل، أجل، لقد أصبح ذلك خصلة من خصاله. لم تعد تلك الحيوانات المسكينة تجرؤ على الخروج. إنها الدنيا بالمقلوب.

قالت الأخرى:

ـ وهذا بعدُ لا شيء. سترينه ينقضّ ذات يوم على الناس والسكين في يده. ألم تشاهدي عينيه؟ إنهما حمراوان بلون الدم.

نفضت امرأة «بيدو شريف» يديها فأطارت سحابة من الطحين أخذت تحمرّ تحت أشعة الشمس. قالت الأم «بينو»: «يا للجنون! لم يعد المرء يدري من يحذر من الناس أولاً».

أُغلقت مصاريع النافذتين من جانبي الشارع، الأمر الذي وضع حداً للحديث. لم يكن لدي ما أعمله فأخذت أرقب الشارع. كان يقطعه هرّ قافزاً من سطح إلى سطح. وكان «مقصود» عائداً من السوق متأبّطاً أيضاً رأساً مقطوعاً. رأس من؟ أدرت عيني لأجنب نفسي هذه الرؤية المؤلمة.

حـاولت أن أتـذكـر «مـرغـريت»، ولكن لم أستطع ويا للعجب أن أذكر قسمـاتها. البـارحة كـان كل شيء يتمثّل لذهني بوضوح شديد. كانت قد عادت مـرتين أو ثلاثـاً تجول فيـه. هل كـانت تعلم أني كنت أجيل اسمهـا معي في البيت صادماً إياه بالحجارة، معلقاً إياه بالمسامير؟ ألم تكن تشعر من جراء ذلك بأي ألم؟

لقد ذكرت البارحة أمرها لـ«ايلير». قلت: «عند جـدي الآن عروس شابة».

لم يثر فيه ذلك أي شعور فما أجابني بشيء. وبعد برهة ألمعت مـرة أخرى إلى «مـرغريت». بقي كـذلك غيـر حافـل واكتفى بسؤالي: «هل خدّاها ورديان؟»

أجبت منذهلاً بعض الشيء: «أجل، ورديان».

والحق أني لم أكن أذكر لون خديها. وفي اللحظة التي سألني فيها «ايلير» بدا لي وجه «مرغريت» بغتة وكأنه يسبح في ضباب. وانقضى يوم فازداد تعكّر الصورة. كنت قد نسيتها.

ثم تمثّلت مـرة ثـالثـة في ذهني وحـدثت عنهـا «ايليـر» مجدّداً. نظر إلي هنيهة فظننت أنه سيتكلم وخامرتني الفرحة. قال: «أتعرف؟ سرقت مساء أمس حاملي جوارب أمي لأصنع منهما مقلاعاً. خذ، خبئهما بضعة أيام عندك فـإني أخاف أن تعثر عليهما.»

وضعتهما في جيبي.

لم يكن أحد يقطع الشارع. وتذكرت أن «جعفر» كان قد

وعدني أن يعيرني كتاباً. نهضت وخرجت للذهاب اليه.

كـان وحده، وكـان يدخن وهـو يصفّر لحنـاً. قلت له: «كنت قد وعدت بإعارتي كتاباً.»

ـ أجل سيدي. هاك كتبي، إنها هناك، تستطيـع خدمـة نفسك بنفسك.

كـان جزء من الجـدار مغطى بـرفوف مـلأى بـالكتب. اقتربت ونظرت مشـدوهاً. لم يكن قـد سبق لي أن رأيت هذا المقدار دفعة واحدة.

شرح لي «جعفر» الأمر قائلاً: «إليك، هذا اسم المؤلف اسم الذي كتب الكتاب، وهذا هو العنوان. أخاف ألا يجذب اهتمامك أي من هذه الكتب».

أخذت أسحب طائفة منها على التوالي من رفوفها. بدا لي معظمها خلواً من المعنى. ثم قلت: «انظر، سآخـذ هذا. اسم المؤلف جونغ».

انفجر ضاحكاً.

ـ أنت تودّ أن تقرأ لـ «جونغ؟»

ـ ولم لا؟ إنه يتحدث عن أعمال السحر، أليس كذلك؟

قهقـه من جديـد. وإذ شعرت بـأني أُهنت فقـد هممت بالانصراف، ولكنه استوقفني قائلاً: «خذ غيره. «جونغ»، أنـا نفسي أكاد لا أفهم منه شيئاً. ثم إنه ليس مكتوباً بالألبانية.»

عدت أتصفح الكتب. واستغرق مني هذا وقتاً طويـلاً. واستمـر «جعفر» يـدخن وهو يـدندن. وأخيـراً اكتشفت واحداً

قرأت في الصفحة الأولى منه «أشباح»، «ساحرات»، «قاتل أول» وحتى «قاتل ثانٍ».

قلت لـ «جعفر» من غير أن أنظر إلى العنوان: «إذن آخذ هذا».

ـ آه! «ماكبث»؟ إنه صعب عليك قليلاً.

ـ هذا هو الذي أريده.

ـ حسناً، خذه، ولكن احذر أن تضيعه.

خرجت شبه راكض، وما إن وصلت إلى البيت حتى دفعت الباب. كنت أرى من المدهش أن أجد بين يدي كتاباً. ففي بيتنا الكبير كان هناك أشياء من كل الأصناف: قدور من نحاس وأطباق من كل القياسات وصناديق من خشب وحجر وصنانير من حديد وعوارض خشبية وأكر حديدية (كانوا يقولون عن إحداها إنها كرة مدفع) وبراميل وصناديق ثياب ذات نقوش قديمة وجميع أنواع الدلاء والعِلاقات وأكواز وأباريق وصفائح وطسوت وبندقية ذات كعب مصدّف، مجموعة من الأشياء العتيقة العجيبة، وحتى لحدٌ لإطفاء الكلس، ولكن لم يكن هناك كتاب واحد. فباستثناء كتاب لتفسير الأحلام ممزّق الأوراق مصفرّها لم يكن يُعثر على ورقة واحدة مطبوعة.

أغلقت الباب ورقيت الدرج أربعاً أربعاً. لم يكن في الغرفة الكبيرة أحد. جلست قرب النافذة وفتحت الكتاب وأخذت أقرأ. وكنت أقرأ على مهل جداً من غير أن أفهم شيئاً تقريباً. وبلغت موضعاً من الكتاب ثم رجعت القهقرى وشرعت

أعيد قراءة ما كنت قد قرأت. وبدأت أدرك شيئاً فشيئاً معنى ما كنت أقرأه. كان رأسي مشوّشاً جداً، وكان المساء قد أقبل فأخذت الحروف تتراقص محاولة الخروج من سطورها. وآلمتني عيناي.

بعد العشاء اقتربت من قنديل الكاز وفتحت الكتاب من جديد. وعلى ضوء القنديل الشاحب كانت الحروف تبدو مريعة. وقالت أمي: «لقد قرأت ما فيه الكفاية فقم للنوم».

- نامي أنتِ، أما أنا فسأقرأ بعدُ قليلاً.

قالت أمي: «كلا فالكاز ينقصنا.»

جفاني النوم، وكان الكتاب هنا قريباً جداً مني. صامتاً. على الديوان. شيئاً رقيقاً. غريباً... فبين ورقتين من الكرتون كانت محبوسة أصوات صاخبة وأبواب وصيحات وخيول وناس. قريب جداً بعضها من بعض. ملتصق بعضها ببعض. مفكّكة في رموز سوداء. شعور وعيون وسيقان وأيدٍ وأظافر ولحى وجدران ودم وقرعات على الأبواب وضجيج سنابك خيل وصيحات وأصوات. وديعة كلها. مطيعة طاعة عمياء للرموز الصغيرة السوداء. الحروف تركض بسرعة تجلب الدوار، من هنا تارة ومن هناك طوراً. الألفات تركض والفاءات تركض والجيمات والياءات والقافات. وتجتمع لتشكل حصاناً أو حبّات البَرَد. ثم تعود إلى الركض. عليها خَلْق خنجر والليل وجريمة قتل، ثم الطريق والأبواب المصطفقة والصمت. تركض وتركض. باستمرار. بلا نهاية.

نمت نـوماً مقلقـلاً جـداً. وظننت أني محمـوم. وكنت والنـوم يداعب أجفـاني أكاد أسمـع بشكل غيـر واضح لهـاثـاً متـواصلاً آتيـاً من خارج، حـركة شـوارع وأحياء تبعث الألم. لكأن المدينة كانت تحكّ جسدهـا على مهل. وكـان ذاك ألم الاستعارة. كانت الشـوارع تنتفخ وتتشـوّه أشكالهـا. وجدران بيت تضخم لتصبح أسوار قلعة في اسكوتلندا. وكانت تبرز من هنا وهناك أبراج مرعبة.

وعند طلوع الصباح بدت لي المدينة منهوكة لما بـذلتْ من جهد. متغيّـرة. تغيّراً غير كبير في الواقع.

قضيت النهار بطوله تقريباً وأنا أقرأ.

وعاد المساء. نـظرت إلى الخارج شـارد اللبّ. وبدت محيطات الجدران والمنازل منعتقة أشد الانعتاق من كل قهر. كان من الممكن توقّع كل شيء منها.

كان «عكيف كشاه» يهبط متثاقلاً شارع «فاروش» يصحبه ابناه. ثم دخل شارعنا. وأخرجت الأم «بينو» رأسها لحظة من النافذة ثم عادت فأدخلتـه. وكان بـاب «بيدو شـريف» العظيم مفتوحاً على مصراعيه. توجّه «عكيف كشـاه» نحوه. كـان كل شيء جلياً. لا بد أنها ليلته الأخيرة. وخرج «بيدو شريف بنفسه إلى باب بيته يستقبـل ضيفه الـوجيه. واستنـدت امرأة «بيـدو» بمـرفقيها إلى شبّـاكها لحـظة ثم اختفت. وفعلت الأم «بينـو» الشيء نفسه. كانت تلك علامات لا يمكن أن يخطىء المرء

فهمها. ودخل «عكيف كشاه» ووريثاه. وانغلق الباب الكبير محدثاً طنيناً معدنياً. صوت أبواق.

ـ لماذا تظل محتبساً في البيت طوال النهار؟ اخرج فالعب مع رفاقك.

ـ صهٍ يا جدتي!

كنت أنتظر أن أسمع صرخة موت «عكيف كشاه». لقد كان قد انتهى كل شيء الآن بالتأكيد. سمعت صوت ضربة. ثم آخر. وبرزت امرأة «بيدو شريف» في إحدى النوافذ. كانت تريد غسل يديها المخضّبتين بالدم. نفضتهما. سقطت سحابة من طحين على الأرض. كان الطحين محمرًا من الدم.

وضعت جدتي يدها على جبيني.

ارتفع من الطبقة الأرضية جَرْس أبواق. قالت جدتي: «انزل إلى القبو. إنهم منهمكون بإخراج القدر النحاسية الكبيرة. قلبي لا يطاوعني على رؤية ما يجري.»

كان الحديث دائراً منذ عدة أيام عن بيع القدر النحاسية الضخمة. وكان الحمّال قد جاء على ما يبدو، وكانت القدر ترسل وهي خارجة طنّات الوداع. كانت الأبواق تصوت.

كان الليل قد أسدل ستاره. وغدت المدينة المأهولة فجأة بالأبراج والأسماء الغريبة والبوم غارقة في الظلام. قالت جدتي:

ـ لقد أضناك هذا الكتاب. اذهب غداً إلى جدك فتستعيد نشاطك قليلاً.

ـ حسناً، اذهب.

«مرغريت».

كنت منهكاً. وكان رأسي يتثاقل إلى حافة النافذة.

وخرجت في اليوم التالي لزيارة جدي. وما إن اجتزت جسر «المشاجرات» ووصلت إلى شارع «القلعة» حتى كانت المدينة قد تخلصت من أبراجها وبومها. وقطعت المرحلة الأخيرة من الطريق شبه راكض.

ما إن وصلت حتى سألت جدتي التي وجدتها تعجن عجيناً لصنع بعض الفطائر: «أين مرغريت؟» قالت: «وماذا تريد منها؟ أَوْلى لك أن تسأل أولاً عن حال جدك وخالتيك وأخوالك من أن توجه اهتمامك فور وصولك إلى «مرغريت».

ـ لم ترحل، أليس كذلك؟

قالت جدتي بنبرة ساخرة: «لا، لا، لم ترحل»، وعادت إلى عجينها وهي تهمهم.

جست بعض الوقت في أرجاء المنزل، وإذ كنت لا أدري ما أفعل فقد صعدت إلى السطح حيث كنت أحب أن أظل ساعات وساعات جالساً على الصفائح المائلة المصنوعة من الحجر الأبيض بالقرب من الكوّة. فمن هذا المكان العالي كان مشهد الدنيا مشهداً مختلفاً. وكنت أتأمل في عمود تلفون نصف منخور عندما تذكرت العلبة الصغيرة التي كنت قد ملأتها بأعقاب سكاير جدي وخبّأتها تحت تخشيبة السقف مع كتاب بالتركية وعلبة فيها عودا ثقاب أو ثلاثة. كنت أشعر برغبة في

التدخين فوق السطح وعلى ركبتيّ مفتوحاً الكتاب التركي ذو الأوراق الصفراء وكأنها مريضة.

أردت إشعال سيكارة فاقتربت من الكوّة ومددت ذراعي في الفضاء المتروك بين قطع الزجاج المكسور المغبر فأخرجت الكتاب أولاً ثم علبة التبغ فعلبة الثقاب. كان غلاف الكتاب عفناً وكانت الأوراق التي تبلّلت قد التصق بعضها ببعض. مزقت طرفاً من الورقة الأخيرة، ومع أن التبغ بدا لي أقرب إلى العفن فقد لففت سيكارة على طريقتي وحملتها إلى شفتيّ وحاولت إشعالها، ولكن عود الثقاب كان رطباً فلم يشتعل.

أعدت كل شيء تحت التخشيبة على عارضة مسودّة، وإذ نفضت ذراعي التي كان يغطيها الغبار فقد خطرت ببالي فكرة جديدة.

كانت الكوة القديمة موضوعة فوق غرفة «مرغريت». وكانت قد أضاءت في السابق الممر الصغير، ولم تعد اليوم، بعد أن حُوّل جزء من ذلك الممر إلى غرفة، ذات نفع، فهي لا تضيء شيئاً.

لقد انتشلتني فكرة القدرة على رؤية ما تفعله «مرغريت» من بلادتي. رفعت بحذر قطع الزجاج المكسورة التي لا تزال مثبتة إلى الكوة ومرّرت ساقي ووضعت قدمي على إحدى العوارض، ثم أخذت وقد انزلقت بكاملي تحت التخشيبة أنزل متعلقاً بقطع الخشب المسودّة التي كانت تتقاطع في جميع الاتجاهات. وما هي إلا دقيقة حتى كنت فوق سقف غرفتها.

وإذ كنت أتقـدم بتؤدة كيلا أحـدث ضجة فقـد انبـطحت على بطني جاعلاً رأسي قريباً من شقّ ألصقت به عيني ونظرت.

كانت الغرفة خالية.

أين يمكن أن تكون «مرغريت»؟ كانت فوق الغطاء الذي غلف به السرير بعض قطع من الثياب الداخلية مطويّـة بعنايـة ودقة. وسمعت قرقرة ماء فخمّنت أنها تغتسل.

انتظرت وقتاً طـويلاً. وأخيـراً عادت من الحمـام وبدت ملتفّة بثوب حمام وشعرها المشعث لا يزال مبلّلاً. اقتربت من المرآة وتناولت مشـطها وبـدأت تصفف شعرهـا. وكانت وهي تفعل ذلك تغني بصوت خافت:

«هناك في هولندا

بلد طواحين الهواء.»

ثم تنـاولت حُقّ البودرة وفتحت ثـوبها وأخـذت تتـطرى بواسطة طرة البودرة.

وفي اللحـظة التي تعـرّت فيهـا وانحنت لتنـاول ثيـابهـا الـداخلية من فـوق السريـر أغمضت عيني. وعندمـا فتحتهما أثارت الدانتيلا فوق جسدها في نفسي شعـوراً بأنهـا فراشـات كأنما وضعت في دائرة فوق صدرها ورد فيها وأعلى فخذيها، من تلك الفراشات البيضاء التي تمرح في الحقول ربيعاً والتي طالما لاحقتها من غير أن أتمكن يوماً من التقاط إحداها.

كنت ممـدّداً هناك كـالمذعـور عندمـا سمعت صيحات

جدتي التي كانت تبحث عني في البيت،ثم صوت خالتي آتياً من آخر الفِناء.

انتصبت مجدداً على مهل وتمكنت وأنا أتشبث بالعوارض من أن أعلو السطح من جديد منزلقاً من ثم إلى أسفل على طول جدار خلف البيت. قالت جدتي: «أين كنت؟ ولماذا أنت متّسخ هكذا؟» أجبت: «على السطح.»

- وماذا كنت تفعل فوق؟ سوف تزحزح لنا الصفائح وما إن تمطر الدنيا حتى ينشّ الماء إلى الداخل.

- لا، لا يا جدتي إني أنتبه للأمر جيداً.

قالت: «أشك في ذلك. ولكن هيا إلى المائدة.»

كان يفوح من جدتي على الدوام رائحة الخبز الطازج، وحين كنت أشعر بالجوع كانت تخطر في بالي ببشرتها البيضاء وجسدها الطويل البدين الذي كانت تئن تحت وطأته ألواح الخشب القديمة في أرض البيت وكأنها تقول: «كرْ، كرْ! إنك تسحقيننا أيتها الجدّة، تخنقين أنفاسنا.»

لفظ جدي باللغة التركية دعاءه المعتاد عند الطعام فبدت لي كلماته وكأنها كلمات سحرية، وبدأنا نَطْعَم. ولاحظت أن جدتي تبدو غضبى، لأن الأواني والملاعق كانت تصطك في يديها أكثر من المألوف. وكانت كلما استثيرت غدت حركاتها أشد فظاظة. وإذ لم تستطع تمالك نفسها في نهاية الأمر قالت بغضب: «العاهرة!»

ولم تثر هذه الشتيمة أي انفعال في الطاعمين الآخرين

الذين استمروا يأكلون بهدوء. وقد بدا أنهم كانوا يعرفون إلى من هي موجهة. وسألت: «من هي العاهرة يا جدتي؟»

وحدجها جدي بنظرة تـأنيب فهزت بـرأسها والحنق بـادٍ على وجهها وكأنما كانت تقول: «نعم، طيب، طيب!»

قالت لي: «ذلك لا يعنيك» ورفعت طبق المرق بصخب عن الطاولة.

قـالت كبرى خـالتيّ: «لو كنت مكـانـك لانتـزعتـه من يديها.»

ـ ايه! ماذا! ربما كان علي أن أتشاجر مع فتيات!»

لم يكن في وسعي تصور جدتي مشتبكة بيديها مع أحد، هي التي لا أذكرها إلا طابخة أو عاجنة عجيناً لصنع الفطائر.

قال جدي وهو يوميء برأسـه ناحيتي: «كفى حـديثاً في هذا الأمر.»

أطاع الجميع. جدتي وحدهـا كانت على مـا يبدو غيـر قادرة على أن تهديء من روعها لأن الآنية أخـذت تطنّ أعلى فـأعلى. وكـان جـدي الـذي لم يكن يحتمـل الضجـة أول الناهضين عن المائدة.

قالت جدتي ثانية: «العاهرة القذرة!»

وألحّت كبرى خالتيّ قائلة: «كان عليك انتزاعه بنفسك عن السلك الحديدي الذي علقته عليه.»

تناولت خالتي الصغرى الجريـدة وأخذت تقـرأ. فقالت جدتي: «دعي هذه الجريدة؛ إنها مصنوعة للرجال.»

انفجرت خالتي ضاحكة.

ـ ما الذي يضحكك. ترينا جميعاً هائجين ولا تجدين ما تفعلين خيراً من قراءة الجريدة وأنت تقهقهين.

نهضت خالتي فغادرت الغرفة والجريدة في يدها.

وأكملت جدتي: «اليوم فوط السفرة، وغداً تكون الملاعق، وبعد غد السجاجيد.»

أصبح الحديث الآن على المكشوف وفهمت ما الأمر. كانت «مرغريت» تسرق.

قالت لي خالتي الأخرى: «لم تركت صحنك ملآن؟»

قلت وأنا أنهض: «لم أعد أشعر بالجوع.»

ـ لم تأكل شيئاً؛ ترى ألست مريضاً؟

ـ لا!

قالت جدتي: «بلى بالطبع. لقد أصبت بالبرد. غير معقول أن يقضي المرء اليوم بطوله على السطح. كما لو أنك لا تملك بيتاً.»

نهضت دون أن أنبس بكلمة وانتقلت إلى غرفة الجلوس. كانت صغرى خالتيّ جالسة في زاوية تقرأ الجريدة.

لم أكلمها. كان يخيّم صمت عميق. ومن أعلى شارع «القلعة» كان غناء شخص مجهول ينحدر نحو الأحياء السفلى.

«سمعتك يا ماري
تشكين أنك مريضة.
لكنتُ دعوت الطبيب،

ولكن ماذا سيقول الناس؟»

وما عسى أن يقول الناس؟

كان في وسع المرء أن يشعر بتحرّكات الخريف. وهناك تحت، بين الأغصان التي كانت تتعرى من أوراقها، انزلق طيف، إنها «سوزان». لا بد أنها علمت بقدومي.

كانت تكتكة الساعة الكبيرة تصوت بشكل مدهش. وكان الضيق مخيماً في كل مكان. كان ينتشر في دوائر كبيرة مشتركة المركز في الفضاء اللانهائي. وما هي إلا أن يلف كل شيء.

* * *

كان الغداء كئيباً، وكنا نأكل من غير أن نتكلم. وكان الجميع على ما يبدو ينتظرون بفارغ الصبر اللحظة التي ستتفحص فيها جدتي هيكل الديك العظمي.

فما كان يذبح ديك في الحي في الأيام الأخيرة إلا علم بذبحه جميع الناس لأنه كان يقرأ في عظامه المستقبل وتُتوقع عند ذلك أحداث خطيرة. فقبل أسبوع أرسلتنا أم «إيلير» إلى الأم «بينو» قائلة لنا: «لقد ذبحت اليوم ديكاً. إذهبا إذن يا صغيريَّ واسألاها شيئاً مما قرأت في هيكله العظمي».

وفي ذلك اليوم كنا قد ذبحنا بدورنا ديكاً. ولسوف يُقرع بابنا بعد الظهر ولا ريب لمعرفة الأخبار. ثم إن جدتي ستُسأل في إحدى الزيارات، وأمي ستُسأل أيضاً ما إن تظهر على عتبة بيتنا، وربما سئل أبي هو الآخر في المقهى. والسبب أنه لم يكن يُذبح بالطبع كثير من الدواجن في المدينة.

إنتهى الغـداء. وتناولت جـدتي أخيـراً هيكـل الـديـك وضيقت عينيها وأخذت تـدقق فيه وقتـاً طويـلاً وهي تقلبه بين يديها معرّضة للنور هذا الجانب تارة وذاك الجانب طوراً. وكنا جميعـاً ننتظر صـامتين. قالت جـدتي بغتـة بصـوت خـافت: «الحرب. إن جوانب الكتف حمراء. حرب ودم». قالت ذلك وهي تشير بإصبعها إلى الجزء الذي كان يُنبىء بالحرب.

لم ينبس أحد بكلمة.

وتابعت جدتي لحظة أخرى تفحّصها.

كررت وهي تضع يدها اليسرى على رأسي كما لتحميني من شرٍ ما: «الحـرب». وما إن انتهى الغـداء حتى ذهبتُ إلى كدسة الأطباق الموضوعة للغسل بحثاً عن هيكل الديك فتناولته وصعدت إلى الطبقة الثانية لأنفرد بنفسي في غـرفة الجلوس. جلست أمام إحدى النوافذ الكبيرة وأخذت أتفحص بدقة ذلك العظم المأسوي. حدث ذلـك بعد ظهـر أحد الأيـام من شهر تشرين الأول (أوكتوبر). وكانت تهبّ في الخارج ريح جافة. ولم أكن أرفـع عيني عن العظم البـارد الـذي كنت أحمله في يدي. وإذ كان لونه محمرّاً ضارباً إلى البنفسجي فقد خيِّل إلي تارة وكأنه مخضّب بقطيرات من الدم، وأخرى وكأنـه متوهّـج بلهب نار عظيمة.

وشيئاً فشيئاً غدا أحمر بكـامله، ولم تكن تلك قطيـرات على الجزء المسطّح منه بل سيول من الدم كانت تجري على المنحدرات محمّرة في مجراها كل شيء.

وإذ كان النعاس يستولي عليَّ والعظم في يدي فقد رأيت لآخر مرة النيران المتوهجة على جوانبه ثم سمعت بشكل مشوّش أصوات قرع الطبول الأولى مؤذنة بالمعارك.

* * *

حزرت الأمر بمجرد دخولي الفناء. لقد رحلت «مرغريت». لم أسأل عما جرى. كان الشارع مقفراً وكانت أشجار الفناء تتعرّى من أوراقها التي كانت تحوّم على مهل فوق سطح الغرفة التي يسكنها الغجر. وكنت حزيناً.

كانت الأمطار الحقيقية تقترب. لسوف تتعرّى الأشجار عرياً تاماً وتأخذ الريح بالعويل تحت تخشيبات السطوح. وسيقطر المطر من السطح على السقوف في الأماكن التي كنت قد دست عليها أثناء الصيف، وتحت الكوّة القديمة سوف تُنهي علبة التبغ وعلبة الثقاب والكتاب التركي تعفّنها.

وستتنقل «سوزان» في الجوار خفيفة مناورة من غير أن تدري أبداً ما الذي حدث لرجل يدعى «ماكبث» هناك في اسكتلندا البعيدة. ولو قالوا لي في زيارتي المقبلة إنها طارت مع اللقالق فلن أدهش قط.

وسوف تزحف جيوش الفئران طوال ليالي الشتاء على السقوف. حارب يا «جنكيز خان»؛ دمّر كل شيء لدى مرورك! فتحت آسيا لم يعد هناك من ينام. إنها الصحراء.

مقطع اخباري:

... تصريحه. قال أدولف هتلر إنه لم يقُد أي هجوم

جويًّ ليلاً خلال الحملة على بولـونيا، وإنـه قصف البلاد في رابعـة النهار. وكـذلـك كـانت الحـال في النـروج وبلجيكـا وفرنسا. ثم إن السيد تشرشل أطلق قاصفاته بغتة على ألمانيا في أثنـاء الليل. وأنتم تعملون مـدى صبري أيهـا الـرفـاق. لقـد انتظرت ثمانية أيام. وجدّد غاراتـه. وعندهـا قلت في سري: هـذا الرجـل مجنون. وانتـظرت أسبوعين. وجـاء ناس كثـر يقولون لي: «أيها الفوهرر، كم علينا أن نتحمـل هذا بعـدُ»؟ عندها أصدرت أوامري بقصف إنكلترا ليلاً. دعـوى. تدابيـر إجـرائية. ملكيـة. الجلسة السـابعة والعشـرون بعـد المئـة. «أنغوني» ضد «كارلاش». مسجل الوقائع «زيفو غـافو» رفض التعـاون لجلاء مسـألة سنـدات الملكيـة القـديمـة. مـواطننـا المخترع «دينو تسيتسو» يستعدّ للسفر إلى «هامبورغ». وبهذه المناسبة فاننا نقف مستنكرين مقالاً في إحدى صحف «تيـرانا» بعنوان: «في الوقت الذي ينوء فيه العالم بخطر حرب عالمية يزعم أحد المختلّين أنه قام باختراع لحماية المدينة». شـرب مواطننا «ت. ف». ثلاثين فنجاناً من القهوة على التوالي. آمر بـالتعتيم في المدينـة. قائـد الحاميـة «برونـو ارسيفـوكـال». ولادات، زيجات، وفيات. «د. ق».

٦

كنت عائداً من بيت جدي. وكنت قد بقيت فيه أطول من المعتاد لأنها المرة الأخيرة من السنة أذهب فيها إلى هناك. ففي الشتاء لم يكن أحد تقريباً يذهب إليه لأن هـذا الفصل شـديد

القسوة والرياح تتعاور المكان من كل صوب. أبي وحده كـان يخاطر أحيـاناً بـاجتياز ذلـك القفر ليـذهب فيقترض قليـلاً من المال.

ماإن دخلت البيت حتى شعرت بأن شيئاً فيـه قد تغيَّـر. كانت أمي وجدتي ترقعان أغطية ممـزّقة. وكـانت كنّة «نـازو» تساعدهما. سألتهن:

ـ ماذا تفعلن؟

قالت أمي:

ـ سوف نغلّف النوافذ في الليل. إنه أمر من الحكومة.

ـ ولماذا؟

ـ بسبب الغارات. ألم يحذّروهم هناك فوق؟

هززت كتفيَّ وقلت:

ـ لا، لا أعرف شيئاً.

قالت جدتي:

ـ لقد مرّوا ينبّهون من باب إلى باب.

سُمع طرق حانق على الباب فقالت أمي: «دجدجو»!

كـانت هي، وصعـدت السلم. قـالت وقـد تقـطعت أنفاسها: «هيه، كيف حالكن يا صديقـاتي العزيـزات؟ تخطن أغطية؟ يا لله للكارثة! يا للمقدر لنا أن نـراه! أن يضطر المـرء إلى الاحتباس في بيته وكأنه في قبر. منذ الصباح و «هاريـلا» يـركض من باب إلى بـاب ويقول إن علينـا بـالتعتيم، التعتيم الكامل.

قالت كنّة «نازو» من غير أن ترفع عينيها عن الغطاء:

ـ التعتيم الموجّه. هكذا يسمّون الأمر.

قالت «دجدجو»: «لتنفقىء عيونهم. ليقدّر الله أن أراهم جميعاً وقد أصبحوا مثل «وهيب» الأعمى».

لم أكن أفهم من كانت «دجدجو» تلعن، ولا لماذا.

قُرع الباب من جديد. كانت الطارقة الأم «بينو» ترافقها «نـازو». قـالت اِلأم «بينـو»: «هـه، بلغكن الأمـر؟ يبـدو أننـا سنضطر حتى إلى سدّ المداخن. إنها نهاية كل شيء».

صاحت «دجدجو»: «في وسعهم إغلاق كل شيء، سدّ المداخن وارتاج الأبواب وحتى سدّ المراحيض إذا شاءوا. لقد جُنَّ العالم يا عزيزتي «بينو»، أجل، جُنَّ. ضاع».

وأمنت الأم «بينو»: «صحيح جداً، لقد جُنَّ. يـا للسعد إن قام عرس واحد في الأسبوع! إنها نهاية كل شيء».

ـ إنهم يطردون البقر من السهل ويفرشـونه بـالاسمنت، هل رؤي قط مثل هـذا يا «سلفيـدجي»؟ يتحدثـون عن واحد اسمـه «يوسـف» ذي لحية حمراء، «يوسف ستالين»، ويقولون إنه سوف يسحقهم جميعاً.

سألت «نازو»: «أمسلم هو؟»

ترددت «دجوجو» لحظة ثم قالت بثقة: «أجل».

قالت «نازو»: «خير وبركة».

كـان النقاش قـد احتدم. فبينمـا كانت «نـازو» تحـدّث

جدتي مالت «دجدجو» على أذن إمرأة «مقصود» وبدا أنها تسألها شيئاً. وبدر من هذه إيماءة بالرأس علامة على النفي من غير أن ترفع عينيها عن الغطاء، فما كان من «دجدجو» إلا أن قرصت خدّيها وقد بدت عليها سيما الهلع.

كنّ جميعاً يتكلمن الآن مثنى مثنى بصوت رتيب باستثناء الأم «بينو» وكنّة «نازو». وصاحت الأم «بينو» بغتة وكأنها تحدّث نفسها: «إنها نهاية كل شيء!» ثم نهضت وخرجت. وتبعتها «نازو» وكنّتها.

كان الحي قلقاً وكان ذلك واضحاً. وكانت مصاريع النوافذ التي تُفتح وتُغلق، والقرع هنا وهناك على الأبواب، وصفير الريح الجافة المتواصل، وحتى الطريقة التي كانت النسوة ينشرن بها غسيلهن على الأسلاك الحديدية، تبثّ شيئاً من القلق العام.

لم يتمكن الناس من التعوّد على الأضواء المحجوبة. وكان بعضهم يرون في الأمر مدعاة للسخرية، وأكثرهم يرونه غير معقول، والآخرون يرون فيه طالع شؤم. وفي الليلة الثالثة رفع «بيدو شريف» الستائر، ولكن لم تمض دقائق حتى سمع صوتاً صارماً نفّاذاً يصعد إليه من الشارع: «أطفىء النور!»

وعندما أطلقت نار الرشاش في نقطة المراقبة على منزل مسجل الوقائع «زيفو غافو» بعد ليلتين، وكان قنديل البترول فيه آخر قنديل يطفأ في المدينة، علم الجميع أنه ما

كان ليُمزَح مع «التعيتم». كانت عين شرسة تراقب ليلة بعد ليلة من كل صوب وفي جميع الاتجاهات. ولم يكن أي وميض ليخفى أبداً عليها. وخضعت المدينة لِـ «التعتيم» بوداعة. وها هي ذي المدينة الآن تتلاشى رويداً عند هبوط الليل. كانت الشوارع والسطوح تترنّح وكأنها دائخة في الهواء لتغوص في الظلام. «تعتيم».

كان بناء المطار موضوع حديث يومي أيضاً. وكانت كلمة «مطار» تخرج من أفواه العجائز بعد أن تطحنها أسنانهن وبقايا أسنانهن بلا رحمة مشوّهة بحيث تعجز الأسماء عن معرفتها؛ ومع ذلك فقد كان لتلك «الميمات» و «الطاءات» و«الراءات» (حبات رمل مروّاة بالبصاق) الموصول بعضها ببعض بأكثر الأشكال إثارة للضحك سلطان إنذار عجيب.

وكان العمل جارياً ليل نهار في السهل الذي أصبح الجميع يدعونه «سهل المطار». وكان آلاف من الجنود ومئات من الشاحنات تتحرّك على امتداد اليوم منجزة عملاً كان يبدو من بعيد وكأنه لا شيء. وكان صوت الكسّارات وغاسلات الحصى وصاقلاته تترامى إلينا بين الفينة والفينة.

حدثت في تلك الآونة عدة سرقات في المدينة. وكان اللصوص يستغلون الظلمة فيزيحون صفائح القرميد ويدخلون المنازل من السطوح (على كل حال، كانت معظم السرقات تتم في هذه المدينة دائماً عن طريق السطوح.)

ولم تلبث أن حلّقت طائرة مجهولة فوق المدينة بعد

السرقات الأولى. كانت تطير على ارتفاع كبير جداً، وما كان أحد ليلحظها لو لم تكن ترسل من فوق الغيوم أزيزاً قوياً غريباً عن آذاننا كان يصل إلينا في ذبذبات شبيهة بسلسلة لا تنتهي من قصف الرعد. وكانت تخلّف وراءها نوعاً من الذعر محلّقاً فوق رؤوسنا ومعلّقاً بالغيوم البيضاء.

مرّ غيرها في الأيام التي تلت وكانت من البعد والعلو بحيث بدا وكأنها تريد أن تثبت أنها لم يكن لها شأن بمدينتنا. إلى من كانت تنتمي؟ من أين كانت تجيء؟ إلى أين كانت تذهب؟ أية مهمة هي مكلّفة؟ كانت السماء تستعصي على الاختراق وكانت غير مبالية.

وربما كانت تضاعفت السرقات من السطوح لولا أن ظهر فجأة وحش جديد: المصباح الكشاف. وكان قد اقترب من المدينة بصمت كامل من غير أن يرتاب إنسان بوجوده، إلى أن أضاءت عينه الوحيدة التي تشبه عين الوحش العملاق المذكور في الأساطير اليونانية ذات ليلة من ليالي تشرين الأوّل(أوكتوبر) فوق مجرى النهر المفروش بالحجارة. وامتدت فجأة ذراع من النور إلى الأمام وكأنها من الزواحف الشفافة تبحث عن المدينة. وكانت تبدو في غيهب الظلام شاحبة، ولكنها ما إن تلامس السطوح حتى تسطع بنور جائر وتنزلق على الواجهات البيضاء من الرعب.

تكرر ذلك في الليالي التالية. وكان المصباح الكشاف يبحث كل مساء عن المدينة، وما إن يعثر عليها حتى يتشبّث

بها. كان حيواناً بحرياً هلامياً زاحفاً على الأحياء مبـدّلاً شكله باستمرار متلاحماً مع محيطات المنازل أو الشوارع التي يتهالك عليها.

أصبحت زيـارات العجائـز المتصابيـات في تلك الآونة أشد تكرّراً، وكان ذلك متوقّعاً. وعلى عكس الشمطاوات فقد كن غالباً ما يغادرن بيوتهن، ولا سيما في أوقات الشدائد. وكن يختلفن عن الشمطاوات في عدة أمور. فالمتصابيات مـا يزلن يشتكين من كنائنهن في الوقت الذي غادرت فيـه الشمطاوات هذا العالم منـذ زمن طويـل. وكن يشتكين من داء المفاصـل والنقـرس وغيـرهمـا من الأمـراض الممضّـة في حين لم تكن الشمـطاوات يعـرفن غيـر داء العمى الشـريف الـذي لم يكنّ يشكـون منه قط. ولم يكن من الممكن مقـارنة المتصـابيـات بالشمطاوات في أي أمر.

وكما كان ينبغي أن يحدث عادة في مثل هذه الـظروف فقد كانت العجائز المتصابيات ينتشـرن في الشوارع والأزقـة. وكن يمشين ويمشين في شـارع «القلعـة» وشـارع «السـوق القديمة»، في «الحي الأعلى» و «الحي الأسفل»، في الساحة المـركزيـة، على جسر «المشـاجرات»، في الأزقـة المحيـطة بالمسلخ، تحت قطرات المـطر النادرة، مشتمـلات بخُمُرهنّ السوداء، نازلات بـاتجاه «فـاروش»، طالعـات إلى «دونافـا»، محدودبات الظهور، لاهثات محمّلات بالأخبار.

كـانت ريح بـاردة جافـة تهبّ بـاستمـرار من الممـرات

الجبلية في الشمال. وكنت أسمع عويلها شبه المتناسق، وكانت تدور في خلدي من غير دافع عبارة «الألفاظ تحملها الريح» التي كنت قد سمعتها تُلفظ في الصباح. وكان يحدث لي في الآونة الأخيرة بعض الأمور الغريبة. كانت عبارات وكلمات سمعتها عشرات المرات تتّخذ في ذهني فجأة معاني جديدة. وكانت الألفاظ تنفصل فجأة عن المعنى المراد منها في العادة. وكانت العبارات المؤلفة من كلمتين أو ثلاث تتجزّأ بشكل مؤلم. فلو قال أحد «رأسي يغلي» لتخيّل ذهني رغماً عني رأساً يغلي مثل قِدر من الفاصوليا. كان للكلمات قوة محدّدة في حالتها الجامدة الطبيعية. وأما الآن وقد أخذت تلطف وتتراخى فقد كانت تطلق طاقة عجيبة. ولقد كنت أخشى تفككها. وكنت أجهد بجميع الطرق أن أحتاط له، ولكن عبثاً. فقد كان يولد في ذهني سديم حقيقي تتعاطى فيه الكلمات رقصة جنائزية خارج حدود المنطق والواقع. وكانت عبارات مثل «ليُقدّر لك أن تأكل رأسك!» التي تستعمل عندنا للدعاء بالشر تزعجني. وكان ينضاف إلى التقزّز الذي تثيره فيّ رؤية إنسان حاملاً رأسه بين يديه وناهشاً فيه الصعوبة في أن أفهم كيف يستطيع إنسان أن يأكل رأسه في الوقت الذي نعرف فيه جيّداً أن كل شيء يؤكل بالأسنان وأن هذه موجودة في الرأس، حتى وإن كان رأساً ملعوناً.

أخذت اللغة اليومية التي كانت حتى ذلك الحين هادئة ثابتة تهتزّ وكأن ما يهزّها زلزال. وأخذ كل شيء يضطرب ويتحطّم ويتناثر.

كنت قد دخلت مملكة الكلمات. وكان يخيّم عليها طغيان جائر. وفجأة أخذ العالم يمتلىء بأناس حلّت يقطينات محل رؤوسهم؛ وكانت رؤوس أخرى تدوّم وتنفجر عيونها انفجار العيارات النارية، وكان الدم يجمد لدى بعضهم جمود الجليد؛ وكان آخرون هائمين وقد جفّت ألسنتهم؛ وآخرون كانت أيديهم معدنية (من ذهب أو فضة)؛ ومن هنا وهناك كانت تبرز قطعة من اللحم مثقوبة بعينين، وكانت المدينة نفسها مصابة بالحمى (كنت قد رأيت زجاج النوافذ يرتجف، حتى اني رأيت العَرَق الرمادي)؛ وكان أحدهم يسير حاملاً جذوراً مُقْتَلَعة؛ وكان آخرون يطرحون على أنفسهم كالمجانين أسئلة خِلواً من المعنى: «أين أذناك؟ أين عيناك؟»؛ وكان أحدهم يسعى إلى التهام آخر لا بأسنانه وإنما بعينيه؛ وكان دهّانون مجهولون قد دهنوا بغتة باللون الأسود باب بيت أو قَدَر صبية (وكنت أتساءل من أين جاءوا وما الذي كان يدفعهم، ولماذا كانوا يتعاطون هذا العمل، وما السبب في اهتمام الناس مثل هذا الاهتمام الكبير باللون الأسود أو الأبيض الذي كانت تدهن به أقدارهم). وأخيراً فإن أحد العاشقين على ما يبدو كان قد صُعِقَ ذات يوم. وأخذ العالم يتفتّت تحت ناظريّ. وإلى هذا كانت تُلمِع الأم «بينو» بلا شك عندما كانت تتكلم باستمرار على «نهاية كل شيء».

في ذلك اليوم بلغ سلطان الكلمات ذروته. وأخذت أرقب السطوح المائلة محاولاً أن أفهم كيف يمكن أن يَصْعَقَ الحب. أين هو؟ وأين كان يقيم قبل أن يسقط بغتة على رؤوس

الناس؟ لم يكن يُدمي الرأس ولا يُحدث فيه حدبة كما كان يُقدّر أن يفعل أصغر حجر. فلماذا إذن ورغم كل شيء يشكو الناس منه كل تلك الشكوى ولا سيما عندما يصيب الشوابّ؟

دوّت فجأة في أرجاء البيت قرعات مخلّصة على الباب. وكانت هذه الطريقة بالقرع مألوفة لدينا. كنا نعرف أن الطارق «دجدجو». ومع ذلك فإن الطريقة الإستثنائية التي كانت تقرع بها هذه المرة والفواصل المقتضبة بين القرعات جعلتنا نخمّن أن أمراً خارقاً للمألوف لا بدّ أن يكون قد حدث. ونزلت أمي بسرعة تفتح الباب وقد بدا القلق على وجهها، بينما وقفت جدّتي عند أعلى السلّم تنتظر. وبعد لحظة نزلت بدورها. وبقيت طبقات البيت العليا ساكنة. انفتح الباب من جديد ودخل أحدهم وخرج آخر ثم عاد أحدهم مرة أخرى. وترامت إليّ أصوات نساء خافتة. وأخذت أهبط الدرج على مهل لكيلا ألفت الأنظار. لا بدّ أن شيئاً خطيراً حقاً كان يدور تحت. صرّ الباب مرة ثانية. وكانت الكلمات المختلطة في همهمة غامضة ترتفع كما يرتفع الضباب. نزلت. لم يلحظ أحد مجيئي. بقين واقفات بجانب الدرابزين قرب فتحة الصهريج عند أسفل السلّم. كان هناك غير «دجدجو» «نازو» وكنّتها والأم «بينو» وزوجة «بيدو شريف» وجار آخر. وكان في وسع المرء أن يخمّن من نظراتهم المذعورة، ومن منظر الخمار الذي انزلق عن رأس «دجدجو» كاشفاً خصلة من الشعر حال لونها، ومن الآثار التي تركها في الخدود خمش الاستنكار، أنه حدث ما لا يمكن إصلاحه. كن يتكلمن في آن معاً، وكان قد حدث شيء

مهول، ولكنني لم أنجح في إدراك كنهه. لم تكن المسألة مسألة موت، ولا مسألة جنون. كان الأمر أسوأ. كانت «دجدجو» واقفة وسطهن، وكان لهاثها الأصم الشبيه بلهاث الكير ينشر الرعب.

أصغيت طويلاً ولكن من غير أن أفهم شيئاً. كن يتحدثن عن بيتٍ ما. لقد أنشأ الإيطاليون مؤسسة. وكانت تحمل اسماً بسيطاً نسبياً، شيئاً يذكّر بمكتبة المدينة العامة. ومع ذلك كنّ مذعورات. كنّ يلعنّها. وكنت قد سمعت ببيت من السكّر تقطنه عرائس جميلات. وكان ينبغي أن يكون هذا البيت من سمّ لأنه كان يسمّم المدينة بأسرها.

قالت«دجدجو» بغصة: «رجل من كل أسرة. هذا ما قالوه. وإذا لم يذهب المرء بخاطره اقتيد بالقوة. ذَكَرٌ من كل أسرة.»

خمشت النسوة خدودهن مرة أخرى. كنّة «نازو» وحدها ظلت غير آبهة. وإذ كان نظر «دجدجو» يجول حولها فقد وقع عليّ. صاحت: «قل أنت أيها المسكين، لا أظن أنك تفكّر في الذهاب إلى هناك.»

قالت لها جدّتي: «أيتها الحمقاء، دعي هذا الصبي وشأنه.»

قالت الأم «بينو» للمرة المئة بالتأكيد: «إنها نهاية كل شيء.»

صاحت «دجدجو» متوجهة إلى جدّتي وكأن هذه ممثِّلة المدينة: «ترى أيثوب هذا الشعب إلى رشده أم أنه لن يثوب؟»

قُرع الباب من جديد، وكان الطارق خالتي «دجيمو».

وما إن دخلت الرواق حتى قالت: «ماذا بكن مضطربات هكذا أيتها المسكينات؟»

لم تكن خالتي «دجيمو» تأتي لزيارتنا إلا في النادر، مرتين أو ثلاثاً على الأكثر في السنة. كانت طويلة القامة منتصبتها، وكانت تبدو وكأنها كلها من عظام. وكانت مشهورة في الأسرة بوسواسها بالنظافة. فلم تكن تأكل أي شيء لمسته يد غريبة. وكانت تحضّر خبزها ووجباتها وقهوتها وشايها بيديها. وكانت تحتفظ في بيتنا بآنيتها وفنجانها وإبريق قهوتها على حدة. وكانت إذا زارت أحداً لفّت في فوطة نظيفة طعامها وفي أخرى فنجانها وملعقتها وكوبها. كان الجميع يعرفون وسواسها، ولم يكن أحد يحس بالإهانة حين تُخرج على المائدة زادها الطيِّب من فوطتيها.

استمعت خالتي «دجيمو» إلى شروح النسوة على تلك المؤسسة. وقالت أخيراً: «تراكنّ مجنونات. كنت أتساءل عما جرى. ظننت أنهم سيفتحون ذلك... كيف يسمونه؟... ذلك المطعم المشترك.»

إن ما كان يقلق خالتي «دجيمو» منذ أمد طويل هو فتح المطاعم المشتركة. فقد كان ذلك في نظرها أعظم البلايا. صاحت: «هيه! ما الذي يقلقكن؟» ثم وجهت حديثها إلى كنّة «نازو» قائلة: «أن تهتم هي ذات الزوج الشاب وتقلق، فهذا ما يمكن أن أفهمه. أما أنتن! يا لكنّ بلهاوات!»

ابتسمت كنّة «نازو» بادىء الأمر، ثم وضعت يدها أمام

فمها وانفجرت ضـاحكة وسط دهشـة عامـة. ولكزتهـا «نازو» بمرفقها في خاصرتها.

تفرّقت النسوة، وصعدت جدّتي وخالتي «دجيمو» السلّم الخشبي على مهل إلى الطبقة الثانية. قالت خالتي: «يا لغرابة ما نسمع يا «سلفيدجي»!»

قالت جدّتي: «حين يضع الغريب قدمه في بيتك فعليك أن تتوقعي كل شيء. تعلمين جيداً أنه ما من امـرأة شابـة تستطيع أن ترتفق نافذة من غير أن يخرج الإيطاليون المرايا من جيوبهم ويأخذوا بمعاكستها بتسليط أشعة الشمس عليها.»

قالت خالتي «دجيمو»: «منذ يوم وصولهم كان بالإمكان التخمين بأن لنا شأناً مع أناس طائشين. الله يعلم كم رأيت من الجنـود، ولكنني مـا كنت لأحسب قط أن ألتقي يـومـاً بجنـود معطّرين.»

- لو كان هذا وحده لهان الأمر، ولكن ما يسوؤني أنا هو ما يجري هناك.

قالت جدّتي ذلك وأشارت بعينيها إلى سهل المطار.

تنهّدت خالتي «دجيمو» قائلة: «الحرب على أبوابنـا يا عزيزتي «سفليدجي»».

استمرّت النسوة في أثناء ذلك بالحديث من النوافذ عن البيت الجديد الذي أُسند إليه بغرابة نعت العام. ولقد استُنزلت على سطحه كل صواعق السماء؛ وكان مئة مرة في اليوم فريسة للنار، وكان يتلاشى ويتحوّل إلى أنقاض، ومع ذلك فإنه ينبغي

الإيمان بأنه كان ينبعث في كل مرة من ركامه لأن اللعنات لم تكن لتكفّ. ومرة جديدة ملأ سيل من العجائز المتصابيات الشوارع والأزقة. وكانت الريح لا تزال تهب من الممرات الجبلية في الشمال وتموّج خُمُر المتصابيات السوداء وتنتزع منهن دمعة كانت تترجّح في مؤق العين وكأنها لؤلؤة من زجاج. وكنّ يمشين، يمشين بلا توقّف.

كانت المدينة محمومة حقاً. وكان من السهل تمييز عَرَقها الآن. وكانت القشعريرة كثيراً ما تعتري زجاج النوافذ. وكانت المداخن تنتحب. وفي الليل كان المصباح الكشاف يضيء عينه الوحيدة. إنه «بوليفيم» أحد عمالقة الأساطير ذوات العين الواحدة. وكنت أحلم بالذهاب إليه وفي يدي جذوة. وأن أفقأ تلك العين الفظيعة. وكنت أتخيّل المصباح الكشاف وقد عمي وملأ الظلمة بعوائه.

كانت الأوقات عصيبة مضطربة وكان كل شيء يدعو إلى الريبة. وفكرت في النتوء المتحرّك حول منزل جدي. فالظاهر أن التربة لن تلبث أن تتحرك عندنا أيضاً. فكل الناس كانوا يتوقّعون ذلك.

كان «ايلير» يهبط زقاق «المجانين». وما إن وصل حتى قال لي: «أتعرف؟ الأرض مدوّرة مثل بطيخة. رأيت ذلك في البيت. «عيسى» هو الذي أحضرها. مدوّرة، مدوّرة تماماً، وهي تدور، تدور دون توقّف.»

ظل وقتاً طويلاً يشرح لي ما شاهد. وإذ قال لي إن تحتنا

مدناً أخرى عامرة بالمنازل والسكان سألته: «ولكن كيف لا تسقط؟» قال «ايلير»: «لست أدري. نسيت أن أسأل «عيسى». إنه يدرس الأرض في البيت مع «جعفر». وذات لحظة وضع «جعفر» إصبعاً عليها وقال: «لن يطول بها الأمر حتى تتحوّل إلى مسلخ.»

- إلى مسلخ؟

- أجل، هذا ما قاله. وقال أيضاً إن العالم سيغرق في الدم.

سألت: «ومن أين سيسيل هذا الدم؟ ليس للسهول والجبال دماء.»

قال «ايلير»: «ربما كان لها. لا بدّ أنهما يعلمان ما لا نعلم. وعندما قال «جعفر» إن العالم سيصبح مسلخاً قلت له إننا كنا في المسلخ ورأينا كيف تذبح الخراف. أخذ يضحك وقال لي: سوف ترى ما يجري حين تُذبح فيه الدول.»

- الدول؟ تلك المرسومة على طوابع البريد؟

- أجل. ذاك هو.

- ومن هو الذي سيذبحها؟!

هزّ «ايلير» كتفيه وقال: «لم أسأله.»

فكّرت في المسلخ. كانت «دجدجو» قد قالت ذات يوم بشأن المطار إن السهل والعشب سيفرشان بالإسمنت. باسمنت رطب لزج. وأن خرطوماً من المطاط سيرش المدن والدول

لغسلها من الدماء. ربما كانت هذه بداية المذبحة. والذي كنت أجد مشقة في تخيّله هو كيف تُقاد الدول إلى المسلخ وما شكل ثغائها. والقرويون بملابسهم الصوفية السوداء المنتفشة. والجزارون بالثياب البيضاء. والتيوس والخرفان والحملان. والناس الذين أتوا لحضور المشهد. وأولئك المنتظرون. أزفت الساعة. فرنسا. النروج. الأرض المرشوشة بالدم. ثغاء هولندا. اللوكسمبورغ بصورة حمل. روسيا وجرس كبير في عنقها. إيطاليا (لست أدري لماذا) بصورة عنزة. خوار منفرد. مَنْ؟

سألني «ايلير»: «وذلك البيت، هل سمعت ما يقال عنه؟»

- السوء، كثير من السوء.

- هل تعلم؟ يبدو أنه يؤاوي عدداً من الفتيات الجميلات.

- حقاً؟ تقول «دجدجو» إنهن نسوة سوء.

- ولكنهن جميلات!

- جميلات؟ يا للأبله! يا للأبله!

- أبله أنت نفسك.

بقينا مدة مستنكفيْن عن الكلام.

وفي تلك الأثناء كان بيت الدعارة قد أهاج المدينة بأسرها. كانت «دجدجو» تأتينا عدة مرات في اليوم، ما يلزم من الوقت لإبلاغنا أخباراً موغلة أكثر فأكثر في عدم القابلية للتصديق. ولم يكن يهدأ هبوب الريح. ولا يذكر الناس أنهم

عرفوا مثل هذه الهبّات العنيفة منذ عشرات السنين. وقد قيل إن «زيفو غافو» العجوز قرر أن يتحدّث عن ذلك في ما يسجله من وقائع.

أُجرِيَتْ في تلك الأيام أول تجربة لصفّارة الخطر. كان الوقت حوالي الظهر حين انبثق عواء يبعث القشعريرة في الأبدان. قالت جدتي: «إنها بالتأكيد حماة «بيدو». ليس سواها من يصرخ على هذه الشاكلة.»

ارتفق أبي وأمي النافذة. واستمر العواء ولكنه لم يكن صرخة بشرية. كان يأتي في موجات ويبدو أنه سيتوقف ثم يستأنف فجأة ممزقاً أستار السماء بقوة جديدة. إن ألف حماة كحماة «بيدو» ما كنّ قادرات على إطلاق مثل هذا الصوت. قال أبي بصوت مغموم: «إنها صفارة خطر. سمعتها ذات مرة في مصر.»

ظلت جدّتي مطبقة الفم.

وهكذا كانت المدينة قد زوّدت بصفارة خطر. وإذ جاءت «دجدجو» تزورنا بعد الظهر فقد قالت: «ها نحن الآن قد زُوِّدنا بنادبة، لتندب علينا كلنا. لم يكن ينقصنا إلا هذا يا عزيزتي «سلفيدجي». لقد فاضت علينا النِعم ولم يبق علينا إلا انتظار الملاك قابض الأرواح.»

كأن ذلك كله لم يكن كافياً، فقد حصل في هذه الآونة ما هزّ حتى أولئك الذين كانوا قد احتفظوا إلى الآن بهدوئهم: إنه زواج «أرجير أرجيري».

كنت قد لاحظت أن إعلانات الخطبة أو الزواج كانت تدهش بعض الناس وتدهش آخرين أو تجعلهم يبتسمون؛ ولكنني ما كنت قط لأظن أن خبر زواج يمكن أن ينزل نزول الفاجعة على رؤوس الجميع بلا استثناء. «هل سمعت، «أرجير أرجيري» يتزوّج؟! ـ هيّا لا تقولي حماقات ـ ولكن ذلك صحيح، إنه يتزوّج: ـ أنت تسخرين مني! ـ ولكني أقول لك إنه يتزوّج ـ كيف؟ يتزوّج! ولكن ذلك مستحيل! ـ طُلِبت الأم «بينو» لتزيين العروس. ـ شيء لا يصدّق. ـ ولكني سمعت بذلك أنا أيضاً. ذاك صحيح إذن؟ ـ أجل، صحيح. . إنه لعار لا يمكن تسميته. عار، شنار.»

كان «أرجير أرجيري» رجلاً قصير القامة شديد السمرة ذا صوت من النعومة والخفوت بحيث يُظن إذا سُمِعَ أن امرأة تتكلم. وإذ كان معروفاً من الجميع فقد كان يختلف إلى جميع الأحياء. وكان يقال إنه نصف رجل ونصف إمرأة، وكان الشخص الوحيد الذكر، أو المفروض كذلك، الذي يتردد بحرية على جميع المنازل حتى في غياب الرجال. وكان يعاون النساء في جميع الأعمال المنزلية ويرعى أطفالهن عندما كنّ يغسلن غسيلهن، ويملأ الماء وإياهنّ، ويحمل الأخبار. كان له منزله، وإذا كان يساعد النساء فإن ذلك لم يكن لأنه معسر بقدر ما كان بسبب حبّه لرفقتهن وللانشغال بأعمالهن. وعلى كل حال فإنه لم يكن هناك ما هو أكثر طبعية من ذلك ما دام نصف رجل ونصف امرأة. فمنذ عدة سنوات، وتعويضاً عن سخريات الجميع، وتعزّياً عن نقصه البدني اكتسب «أرجير

أرجيري» حقاً ما كان ليتمتع به أي رجـل: حق مخالـطة نساء المدينة وفتياتها بحرية.

وهـا هو ذا يعلن فجـأة أنه يتـزوّج. لقد كـان التحـدّي مهـولاً. فالكـائن ذو الصوت النـاعم الخافت يعلن فجـأة أنـه رجل. لقد تحمّل سنوات طوالاً أضنى أنواع الهزء بانتظار ساعة الانتقام. وغامت المدينة. فالإهانة التي لحقت بها لا تُغْتَفَـرْ. فليس هناك بيت إلا وقد تردّد عليه، ولا إمرأة إلا عرفها. وكان حذر مشؤوم يخيّم في كل مكان.

وتلاشى الأمل في أن يكون النبأ كاذباً. لقـد دُعِيَتْ الأم «بينو»، وطُلِبَتْ الجوقة الموسيقية، وحتى يوم العُرس حُـدِّد. وخاب كذلك كل رجاء في أن يعود «أرجير» عن قراره. حتى التهديدات التي هُوِّلَ بها، على ما يقال، لم تفتّ في عضده. ولقد كُرِّرت وبقي صامداً. وقد تمّت كل هذه المحاولات بـلا ضجة، بعبارات مهموسة بين الأسنان وبرسـائل غُفْـل من كل توقيع. ولم يكن أحد يريد حمل الراية ضد «أرجير» خشية أن يبدو وكأنّ هناك أسباباً خاصة تزعجه.

لم ينجح أحد في معرفة الأمـر الذي حـدا بالـرجل ذي الصوت الناعم الخافت إلى التمرّد فجأة على هذا الشكل. ما الذي أصابه؟ لماذا اتخـذ ذلك القـرار؟ ؟ لماذا؟ وأخيـراً حلّ مسـاء العرس. وكـانت الريـح التي هبّت خمسـة عشـر يـومـاً متواصلة قد توقفت عن الهبوب بغتة. وبدا السكون الذي تـلا صفيرها المستمرّ أشدّ إيغالاً. وأضاءت عين المصباح الكشاف

ثم انطفأت. وكـان طبل العـرس يُقرع بـلا توقف وكـأنه يـدق ناقوس شرف المدينة.

قالت «دجدجو»: «لقد طفح الكيل». وكان على الناس في رأيها أن ينتظروا تفجّر الينابيع بالماء الأسود.

وقال «عيسى» لِـ «جعفر» وهـو يدخّن في الـظلمة: «لم يكن ينقص سوى هذا، زواج هذا المخنّث.» قال «جعفر»: يا لجنون ما يحدث. لسوف يكـون مصير هـذه المدينـة كمصير سدوم.»

* * *

كان الهجوم مفاجئاً، لا رحمة فيه. ولم تشتغـل صفّارة الإنذار. واعترت المدينة تشنجات وكأنها مصابة بداء الصرع. مالت وكادت تنقلب. كان ذلك ذات أحد في الساعة التاسعـة صباحاً. وللمرة الأولى في حياتها، في ذلك اليـوم من تشرين الأوّل (أوكتـوبـر)، وعلى مشـارف منتصف القـرن، ضُــربت المـدينة القـديمـة التي قُصفت مـرّات لا تحصى على إمتـداد الأجيال بقذائف المجانيق أو المدافع وهوجمت بالعرادات، ، ضُربت من السماء. وأنّت الأسس المصـدّعة من الألم كمثـل أنين العميان. ونثرت ألوف النوافذ المروّعة زجاجها بفرقعة.

وبـدت الـدنيـا بعـد الـدويّ الجهنمي وكـأنهـا أصيبت بالصميم. وكانت المدينة الزائغة ترقب السماء المنقشعة التي بدت وكأنها تريـد أن تتخفف من ذنب حيادهـا. وفي الفضاء كانت ثلاثة صلبان فضية تبتعد الآن بعد أن جاءت تزعزع هذه

الكتلة الضخمة من الحجر حتى في أساسها.

أسفر القصف عن اثنين وستين قتيلاً. ووجدت العجوز الشمطاء «نزلهان» بين الأنقاض غائصة حتى خصرها في كومة من الحصى. لم تكن تدري ما الذي حدث لها. وكانت تصيح وهي تحرك ذراعيها الطويلتين في الهواء: «من الذي قتلني؟» كان عمرها مئة واثنين وأربعين عاماً. وكانت عمياء.

مقطع إخباري

... هييء نفسك لهجوم جوّي... إبنِ لنفسك ملجأ يحميك أنت وأفراد أسرتك من القنابل الانكليزية. جهّز أوعية كبيرة ملأى بالماء وأكياساً محشوّة بالرمل. زوّد نفسك بفأس ورفش ورافعة لمكافحة النار. محافظة المدينة. دعوى. إجراءات تنفيذية. مِلْكية. علّقت الدعاوى حتى إشعار آخر. وُجد مواطننا «أرجير أرجيري» ميتاً في غرفة الزوجية غداة زواجه المشؤوم. لم تغفر المدينة لمن ألحق بها العار. الدكتور «س. تشوليري». للأمراض الزهرية. كل الأيام من الساعة الرابعة حتى الساعة الثامنة. لائحة القتلى في القصف الأخير. «ب. شتاكو»، «ر. مزيني»، ، «ف. بلّوما»،

٧

قُصِفت المدينة في ذلك الأسبوع كل يوم. وكل ما تبقى نُسِيَ. فلم يكن يدور من حديث إلا عن القنابل والطائرات.

وبجهد جهيد علّق الناس على موت «أرجير أرجيري» الذي وُجد قتيلاً قرب الفجر، أي بعد ساعات فقط من انتهاء العرس. وبقي القتلة مجهولين كما بقي من قبلهم كتبة رسائل التهديد التي كان قد تلقّاها.

وفي اليوم السابع على القصف حدث أمر لم يكن غير ذي شأن. فقد علّقت لافتة من الصفيح في شارعنا سمّرها أشخاص غير معروفين في الصباح الباكر إلى جدار منزلنا على يمين الباب. وكانت تحمل بحروف سوداء كبيرة الكلمات: «ملجأ من الغارات الجوية يتّسع لتسعين شخصاً».

لم يكن في شارعنا أية لافتة. ولم يكن أحد قد قرأ فيه منشوراً قط إذا استثنينا أحياناً إعلاناً من المحافظة كان ينفصل ويسقط بعد يومين أو ثلاثة وقد بلله المطر واقتلعته الريح. وكانت تظهر كذلك في بعض الأحيان كتابات ماجنة بالطباشير أو بالفحم على الجدران. ولكن ذلك كان يحدث في القليل النادر. وكانت أوّل لافتة حقيقية هي تلك التي ثُبِتت على يمين بابنا.

في ذلك اليوم كان جميع المارة يتوقفون وكان من يحسنون القراءة يشرحون أمر اللافتة لمن ليسوا بقارئين.

«البيت للبيع؟»

ـ لا أيها العم العزيز. الأمر غير هذا.

ـ ما الأمر إذن؟

ـ هذا للإعلان بأن علينا أن نلجأ إلى بيتهم حين تـأتي الطائرات لإلقاء قنابلها.

ـ حقاً؟!

ظللت عند عتبة بيتنا مبتسماً للمـارة وكأني أقـول لهم: «إنكم ترون، ، هذا بيت بالفعل!». وكنت فخوراً جداً. كان في حينا كثير من المنازل الكبيرة الجميلة، ولكنه لم يُثَبِّت على جدران أي منها، سواء أكان بيت «تشتشكو كايل» أم بيت «بيدو شريف» أم بيت «ملك كـارلاش» الكبير، لافتـة مماثلة. وكـان ذلك يعني أن بيتنا أمتنها كلها.

بقيت ابتسم، ولكن يا لخيبتي فإن أحداً لم يكن يعيرني إهتمامه على ما يبدو. واحد فقط يدعى «هـاريلا لـوقا» مـا إن رآني حتى رفع لي قبعته بـاحترام وأحنى رأسـه مرتين أو ثـلاثاً باتجاهي. وكان هذا على ما يقال أكثر أهل الحي جبناً.

ولكن لا مبالاة الراشدين لم تؤثر فيّ على الإطلاق. وقد بقيت واقفاً على العتبة بانتظار مرور «ايلير» بفارغ الصبر. لقد كنا قد تشاجرنا قبل يـومين إذ ادعى كل منـا أن بيته كـان أمتن بيت. وكان من عادتنا أن نعقد رهانات من هـذا النوع. وقبـل ذلك بقليل كنا قد تنازعنا في المسافة التي يستـطيع الملِك أن يقـذف إليها بحجـر. فقد زعمت أنـا أنه يستـطيع بلوغ ضفـة «الثالوث المقدس» بينما لم يكن يستطيع في رأي «ايلير» الذي لم يرد أن يتراجع في هذا الأمر أن يتجاوز مجرى النهر. وكان

أكثر ما تنازل إليه أن في وسعه قذف الحجر إلى حدود الجسر لا أبعد.

منذا الذي يعلم المدة التي كان من الممكن أن يستغرقها الشجار لو لم يبرز موضوع النزاع الجديد هذا! فقد كنا نتشبث باندفاع أشد بشأن متانة منزلنا ومن يدري إلى أين كان سيقودنا ذلك التشبث! لعلنا كنا تشاتمنا أو تقاتلنا أو تضاربنا بالحجارة لو لم يلصقوا ذات صباح إلى جانب بابنا تلك اللافتة المصنوعة من الصفيح بكلماتها الرائعة «ملجأ من الغارات الجوية يتسع لتسعين شخصاً».

ولكن «ايلير» لم يمرّ وكأنه تعمّد إهاجة غيظي. لا بد أن يكون قد سمع بالإعلان، ولا بد أنه عاد إلى بيته خلسة سالكاً أزقة ملتوية.

انتظرته بعض الوقت أمام بابنا ثم دخلت مغيظاً. وما لبثت أن نزلت إلى القبو وأخذت أتفحص جدرانه السميكة التي لم تدهن بالجير من وقت طويل وشعور بالإكبار يملأ كياني.

لم يكن الفراغ القائم تحت البيت يؤلف حتى اليوم جزءاً مهماً منه. فقد كنا نكدّس فيه الفحم أو نطفىء الجير. وكان يؤلف بالقياس إلى الحجرة الكبيرة القائمة في الطبقة الثانية نوعاً من غرفة لخادمة. وكانت غرفة الاستقبال مجهزة بست نوافذ كبيرة جميلة يبلغ ارتفاعها طول قامة جدي، وكان سقفها أصفر من خشب منحوت. وكانت موضع عناية كبرى إذ كانت أمي تغسل أرضيتها وتدعكها حتى تلمع وكأنها من شمع.

وكانت ستائر النوافذ بيضاء تحفّ بها الدنتيلا، وكانت النسوة الكبيرات في السن اللواتي كن يجئن لزيارتنا يحتسين القهوة جالسات على الدواوين المرصوفة حول الغرفة وهن يتجاذبن أطراف الحديث بوداعة. وكان المرء يشعر بغيرة سائر الغرف منها، وحتى بغيرة الأروقة.

كان حسدها يرتسم على نوافذها الصغيرة ومتّكآتها المنحرفة وأبوابها الضيقة.

ولكن ها قد تغيّر كل شيء منذ الغارة الأولى؛ لقد تكسّر زجاج النوافذ في الغرفة الكبيرة واضطربت وفقدت جمالها في الوقت الذي لم يكن فيه القبو الهادىء الرؤوف حافلاً قط بما يجري في الخارج.

كنت أرثي لحال الغرفة الكبرى التي تخلّى عنها الجميع في الوقت الحاضر. وفي أثناء الغارات، وفي حين لم تكن جدران القبو تبدي ولو بعض الارتجاج، كنت أشفق عليها لأني أعلم أنها كانت ترتجف وتتقلقل بأسرها وحيدة هناك فوق. كنت أفكر فيها وكأنها امرأة على قسط كبير من الجمال ولكنها مغمومة هشّة الأعصاب، في حين أن القبو كان يبدو لناظري عجوزاً صماء ولكن صلبة . ومذ فقدت غرفة الاستقبال من أهميتها غدا القبو أشد أجزاء البيت تبجيلاً. لكأن بيتنا قُلِبَ رأسه على عقبه.

كنت أصعد أحياناً إلى الغرفة الكبيرة التي أصبحت الآن مهجورة تماماً فأرقب من النافذة البيوت المجاورة بسطوحها

المثقوبة ثقوباً عريضة ينفذ منها رذاذ الخريف. وأخذت أفكّر في أنه لا بد أن يكون قد حدث في كل منها بعد الغارة الأولى الانقلاب الذي حدث في بيتنا. ولعل أقبية المدينة والفراغات الرطبة القائمة تحت الأرض فيها قد انتظرت هذا اليوم طويلاً. ولعلها كانت تستشعر أن ساعتها آتية لا ريب فيها.

والحق أنها كانت مرحلة قاسية جداً على جميع الطبقات الثانية في بيوت المدينة. فعندما بُنيت هذه ارتفع الخشب الواسع الحيلة إلى الطبقات العليا تاركاً للحجر الأسس والأقبية والصهاريج. فهنا في الأسفل في العتمة كان على الحجر أن يقاوم الرطوبة والمياه الجوفية في حين كان الخشب المنحوت المنظف بعناية يزيّن الطبقات الفوقية. وكانت هذه خفيفة شبه أثيرية، وكانت حلم المدينة ودلالها ومَرْكب نزواتها. ومع ذلك فقد وجدت هذه النزوات نفسَها وقد رُسمت لها حدود. فبعد أن منحت المدينة الحرية للطبقات الأخيرة ندمت على ما يبدو وسارعت إلى إصلاح خطأها. لقد غطتها بسطوح من الحجر، وكأنما لكي تؤكد مرة أخرى أن السيادة هنا هي للحجر.

ومهما يكن من أمر فقد أحببت ذلك العهد الجديد الذي كنا نعيش فيه في الأقبية والفراغات القائمة تحت الأرض. ولقد ثُبّتت الآن في كل مكان تقريباً من المدينة لافتات من الصفيح يُقرأ فيها «ملجأ لخمسة عشر شخصاً» أو «لاثنين وعشرين شخصاً» أو «لخمسة وثلاثين شخصاً». ولكن اللافتات الدالة على «ملجأ لأربعة وتسعين شخصاً» كانت نادرة جداً. وكنت

فخوراً بمنزلنا. فقد أصبح بين عشية وضحاها مركز الحي. وكان يسود فيه الآن نشاط كبير ـ وكنا نترك بابنا الكبير مفتوحاً على مصراعيه ليتمكن الناس من أن يدلفوا إلى الداخل لدى أول صفرة من صفارة الخطر. ولقد كان بعضهم يأتون حتى قبل ذلك ويبقون ساعات في الرواق قرب مدخل القبو وهم يأكلون ويدخنون ويتحدثون.

كان القبو غائصاً عميقاً في التربة. وكان جدار سميك يفصله عن الصهريج الذي كان جزء منه يمتدّ تحته. وكان النور يدخله شاحباً من كوة ضيقة نُقبت في الأسس وتطلّ على الخارج فوق مستوى التربة بقليل. وكان الهواء داخله مثقلاً جداً في الوقت الحاضر.

غدا منزلنا وكأنه محلّ عام. وكان يحدث فيه كل يوم بعض المشكلات الصغيرة: يلتوي عقب أحدهم وهو يهبط الدرج الضيق بسرعة، ويتنازع آخرون على موضع مؤاتٍ، ويعنّف أحدهم جميع الناس لأنهم يمنعونه من التدخين لكيلا يزعج المرضى. ولكن المنازعات كانت تجري بشكل خاص على الأمكنة الجيدة. وكان الجميع تقريباً يُحضرون أغطية، وحتى فُرُشاً، وكان تلاصقهم يزداد أكثر فأكثر.

كان «بيدو شريف» يقول: «اي زمان هذا! تصوروا أن المرء مضطر للتواري تحت الأرض».

ويقول «مان فوتسو»: «سيضطرنا هؤلاء الإيطاليون الكلاب إلى عمل أشياء كثيرة أخرى».

ـ صه! لا ترفع صوتك فقد يكون هناك جاسوس.

ـ وذاك الانكليزي، لماذا يطلق قنابله على المدينة بدلاً من رميها فوق الثكنات أو المطار؟

ـ آه ـ طالما أكدت لكم أن أرض الطيران الملعونة هي التي جلبت لنا الغارات.

ـ ولكنك لا تستطيع على ما يبدو أن تتكلم بصوت أخفض.

أجاب «بيدو شريف»: «حسناً، حسناً، ما كان مني طوال حياتي إلا الكلام بصوت خافت».

كان يأتي بالإضافة إلى جيراننا أناس من كل لون. وكان بينهم أشخاص أراهم للمرة الأولى، أو لم أكن على الأقل قد رأيتهم عن كثب أبداً. وكان «كاني كيكيزي» الدحداح ذو الوجه الأحمر يُجيل ناظريه المضطربين في جميع الاتجاهات وكأنه يبحث عن هرّ. وكانت النساء، ولا سيما الأم «بينو»، يخشينه. وكانت السيدة «مينور»، وهي من أسرة «كافوي» الثرية، تهبط درج القبو لاقطة أنفها بين إصبعيها. وكنت قد رأيت ببابها قبل شهرين فلاحاً يُنزل حِمل بغلته. وكان ملوثاً بالطين (لا بد أنه كان قد سقط مع دابته في منقع موحل) وقد بدا وجهه ويداه وكأنها من تراب. وكانت «مينور هانم» مرتفقة نافذتها شاكية حالها إلى إحدى الجارات: «إنه الوحيد ياسيدتي العزيزة الذي يحمل إليَّ الغلّة المتوجبة عليه لي. أما القرويون الآخرون ـ أجلّك الله ـ فقد بدأوا يخدعونني. وسوف أذهب للشكاية إلى

رجال الدرك. أجل، من غدٍ». وقد ظلت ذكرى ذلك الفلاح الوسخ محفورة في خلدي. وما كنت لأستطيع رؤية السيدة «مينور» من غير أن أفكر فيه.

أما «دجدجو»فلم يكن أحد يراها. وكان هذا يحدث لها من حين إلى آخر. فقد كانت تختفي بغتة. ولكن غيباتها لم تكن لتقلق أحداً، كما أن أحداً لم يكن ليدهش لرؤيتها تظهر ثانية.

كان قبونا يستقبل أحياناً ضيوفاً غير مألوفين: عابري سبيل فاجأهم القصف في أثناء الطريق أو أشخاصاً جاءوا إلى حينا زائرين. وهكذا فوجئنا ذات يوم بوصول المدفعيِّ العجوز «عبده بابارامو» وامرأته. وقد جلس بجانب المسنِّين الذين كانوا يتحدثون ساعات طوالاً في الأحداث الجارية في العالم. وكانت محادثات لا تنتهي وتُذكر في أثنائها مختلف أسماء المدن والملوك والحكومات. وكانوا يتحدثون كذلك عن ألبانيا. وكنت أستمع إليهم بفضول مُجهداً دماغي لمعرفة ما كانت عليه في الحقيقة هذه الالبانيا التي كانت تشغلهم. هل كانت كل ما أراه حولي، أي الفِناءات والغيوم والكلمات وصوت «دجدجو»وعيون الناس والضجر، أو أنها فقط جزء من هذا كله؟

قال المدفعي: «سألني درويش عجوز ذات مرة في «إزمير» ما الذي أحبه أكثر، عائلتي أم ألبانيا. وقد أجبته بالطبع، ألبانيا. في وسع المرء أن يُنشىء عائلة بسرعة. فلدى

خروجه من المقهى مساء يلتقي امرأة في زاوية أحد الشوارع ويقودها إلى الفندق، وهكذا تُصنع العائلة والأولاد. وأما ألبانيا فليس في وسعه خلقها في ليلة واحدة بعد أن يكون قد شرب قدحاً. كلا إن ألبانيا لا يمكن صنعها في ليلة ولا حتى في ألف ليلة وليلة».

وتدخلت اِمرأته قائلة: «يا لها طريقة في الكلام! لقد أصبحت خَرِفاً وأقل ضبطاً لكلامك».

ـ أوه! دعيني وشأني! أنتن النسوة لا تفقهن شيئاً من أمور البلد.

قال مسنٌّ آخر: «أجل، إن أمر ألبانيا معقّد جداً».

ـ معقّد جداً. هذا صحيح.

كانت هذه الأحاديث تنقطع في العادة بفعل صفارة الخطر. فقد كان الناس يهرعون إلى القبو. وكانت جدتي من جهتها تصل آخر القوم. وكانت الدرجات تئنّ شاكية تحت قدميها. بسرعة أيتها الجدة، بسرعة. ولكنها لم تكن تسرع قط. وكان ينبغي على الدوام أن تتأخر لسبب أو لآخر. وكان يحدث أحياناً أن تكون بعدُ في السلّم حين كان يُسمع انفجار القنابل الأولى. وكانت لدى سماعها انفجاراً تقوم بحركة من يدها وكأنها تزيح ذبابة مزعجة ثم تقول بعد رفع يدها إلى أذنها: «مت بغيظك!»

وإذ كنت أرقب مجيء «تستشكو كايل» وابنته فقد أخذت أشاهد الناس وهم يتقاطرون نحو السلّم. ولكن «تشتشكو»

الأشقر لم يكن يصل. فالظاهر أنه كان يؤثر مواجهة القنابل في بيته على أن يتحمل النظرات المذعورة التي قد تثيرها لحية ابنته. ولم يكن «زيفو غافو» العجوز الذي كان يقضي أيامه ولياليه في كتابة الوقائع يظهر هو الآخر. ولا العجائز الشمطاوات. وفي المقابل كان «عكيف كشاه» يأتي مع ابنيه وامرأته وابنته. وقد كان طويلاً بديناً بقدر ما كانت هذه قصيرة نحيلة. كانت دائمة الصمت، وكانت تتكوّم في زاوية ساهمة الفكر غائبة عن الوجود. وكان «بيدو ماكبث شريف» ينظر إلى «عكيف كشاه» نظرته إلى شبح. وكانت امرأته في كل مرة تنزل فيها الى القبو تنفض يديها من الطحين. وكان الطحين على الدوام دامياً. وكان طيف «عكيف كشاه» يرقب الناس جميعاً كُلًّا بدوره. وكان القبو قد امتلأ.

«إنذار آخر!»

أخذت الصفارة تطلق صراخها على مهل بادىء الأمر وكأنها أُيقظت من سبات عميق، ثم أصبح الصراخ أكثر فأكثر شراسة. وكان يحدث بين صرختين صمت أجوف. شديد العمق. ثم تعود ذرى الصراخ من جديد. مرتفعة متموّجة. صراخ جديد. إنها تصرخ وتصرخ. وتغلّف كأنما بغشاوة صفيراً يجهد في النفاذ. صفير وحشي. ويغدو كل شيء صفيراً. إنها القنابل. وهي قريبة جداً. وبغتة يقلب صَعْقٌ، يدٌ خفيّة، كل الناس ويطفىء القنديلين. ظلام دامس. ها هي ذي الظلمة تمزّقها صرخة. لم تكن تصدر عن أحد حركة. كنا على ما يبدو أمواتاً.

السكون. ثم تحرك شيء ما. هناك صوت. كأنما هو عود ثقاب يُحكّ. ها نحن أولاء أحياء. اقتطع اللهب الشاحب في الغرفة بعض قطع غير متساوقة من النور. الجميع يتحركون. إنهم أحياء. أضاءوا قنديلاً آخر. ولكن، لا. أحدهم مات. ها إن ذراعي ابنة «عكيف كشاه» الناحلتين تتدليان بلا حياة. ورأسها أيضاً. وقد انسدل شعرها الكستنائي بلا حراك.

ها هوذا «عكيف كشاه» يطلق أخيراً الصيحة التي طالما انتظرتها. ولكنها ليست صيحة ألم. إنها صيحة متوحشة. واختلج رأس الفتاة. إنها تستدير على مهل فاقدة الوعي تماماً. وتتقلص الذراعان المرسلتان. وتحرّك الشاب الذي كانت تضمّه ويضمها أثناء الغارة هو الآخر. وصاح «عكيف»: «كلبة!»

وشدّ بيده الكبيرة ابنته من شعرها وأخذ يجرّها نحو المخرج. وحاولت الوقوف على رجليها ولكنها عادت إلى السقوط. وجرّها على هذا النحو عبر القبو، ولم تتمكن من النهوض قليلاً إلا عند أسفل السلّم مستعينة به للصعود على أربع. ولم يكن هو ليترك شعرها.

وسُمع من الخارج صفير طيران منقضّ، ولكن «عكيف» لم يعد أدراجه. وإذ كان لا يزال يجرّ ابنته من شعرها فقد خرج الى الشارع في اللحظة التي كانت فيه الانفجارات تبلغ ذروتها. ومضيا على هذا النحو تحت القنابل.

وكـان الشاب الـذي تراجـع إلى إحدى الـزوايـا يـرقب الجميع بنظرة غير طبيعية. ولم أكن أعـرفه. كـان شعره فـاتح اللون ونظراته صافية. وكان فكّه يرتجف ارتجافة عصبية. وكما لو أنه كان ينتظر أن يرتمي عليه أحدهم بين لحظة وأخرى فإنه اجتاز القبو في حذر بهدوء ليس له مثيل وخرج.

وما إن أصبح في الخارج حتى انفجر الصخب.

«بالله من هو هذا الشاب يا صديقاتي. من أين ظهر؟ يا لنا تعسات!»

ـ إننا نراه للمرة الأولى.

ـ لم يكن ينقصنا إلا هذا.

ـ يا للعار!

ـ إنها لعجيبة بنت «كشاه» هذه بمـظهرهـا الذي يـوحي بأنها تستحي من خيالها!

ـ يا للعار!

ـ لقد تعلّقت بعنقه حتى لكأنها إحدى كاهنات إله الخمر والمجون «باخوس»!

ـ مثل الطليانيات!

وأخذت النساء يقرصن خدودهن ويسوّين خُمُرهن على رؤوسهن ويُطلقن صيحات صغيرة للتعبير عن استنكارهن. وأما الـرجال فقـد ظلوا جامـدين لا يتحركـون. وتمتم «جعفر» بين أسنانه: «الحبّ».

وكانت نظرات «عيسى» تنمّ عن حـزن. وكان القبـو في غليان شديد.

استغرق الحديث عما حصل وقتاً طويلاً. وكانت ذكرى تينك الذراعين اللتين بدتا بلا حياة وقد ألقيتا حول عنق الفتى الذي لم يكن أحد تقريباً يعرفه لا تفارق أذهان الناس. وكانت صورة ذراعي الفتاة النحيلتين تتحول في خواطرهم شيئاً فشيئاً إلى عضوين ضاريين. وكانتا تهصران أعناقهم وتمنعانهم من التنفس وتخنقانهم.

وكما أن حدثاً جديداً يبرعم دائماً على جسد حدث منذر بالشؤم فإن المناقشات عن ابنة «عكيف» وعشيقها كان يرافقها على الدوام أكثر فأكثر تعليقات على بعض رسوم غريبة أولية كان يقوم بها المخترع «دينو تسيتسو» مواطننا.

فمنذ زمن طويل كان هذا قد ضحّى كليّة بمنامه وأخذ يتعدّى أيضاً على نوم الآخرين متفرّغاً لبعض الحسابات والرسوم الأولية التي لم يكن أحد من البلد يفقه منها شيئاً. وكان يقال إن تلك الأرقام قد أثارت اهتمام علماء نمساويين ويابانيين (لم تكن الشائعات دقيقة عن هذه النقطة) دعوة للذهاب لمتابعة أبحاثه عندهم ولكنه رفض. وأن العلماء النمساويين أو البرتغاليين (كانت الجنسيات تظل غير واضحة) طالبوه فيما بعد بإعطائهم امتياز اختراعه ولكنه لم يستجب.

كان مواطننا «دينو تسيتسو» قد ظل يعمل طويلاً في سرّيّة تامة. ولا بد أنه كان عملاً يستحوذ جداً على النفس. فقد كان وجهه يزداد شحوباً بقدر ما كانت عيناه تزدادان احمراراً. وكان للمدينة ذكريات عن رجال آخرين كانوا قد نذروا وجودهم

للأرقام والرسوم الأوليـة. وآخرون ايضـاً كانـوا ينصرفـون إلى أعمال متفرّقة. وكثيراً ما أعلن المعلّم «كاني كيكيزي» أنه كان يستفيد من تشريـح هرّ أكثـر بكثير ممـا يستفيد من قـراءة عدة مجلّدات في علم التشريح.

كان «دينو تسيتسو» مشغولاً بكلّيته بأبحاثه. وعندما بُدِىء ببناء المطار عند أقدام المدينة ترك إلى أجلٍ دراساته المألوفة ليتفرغ بكامل وقته لاختراع جديد. إنه كان قد قرر بناء طائرة. وكان ينبغي أن تكون آلة عجيبة لا يسيّرها محرك يعمل بالبنزين وإنما بجهاز يعتمد على الحركة الدائمة. وكان يحلو لبعضهم تسمية «الحركة الدائمة» باسمها اللاتيني، وكان كل واحد ينطق هاتين الكلمتين بطريقة تختلف عن طريقة نطق الآخر. حتى إن هذا التباين كان محل مشاجرات بله ضـرب بالأيـدي وأسنان مهشمـة لم تزد بـالـطبـع نـطق هـاتين الكلمتين الغـريبتين إلا اعوجاجاً.

وغدت المناقشـات خلال الغـارات الأولى أكثر تـواتراً، ولا سيمـا بين المسنّين والأولاد، عن اختـراع «دينــو تستســو» الجديد الذي لم يكن ليؤمّن حماية المدينة وحسب، بل ليشرّف اسمها أيضاً. فالطائـرات التي تعمل بـلا بنزين هي الأقـوى. الطائرات التي بلا بنزين عاتية. ففي وسعها البقاء طوال النهار في السمـاء من غيـر أن تحطّ على الأرض. حتى إن خــالتي لتزعم أن باستطاعة تلك الطائرات أن تطير أكثر من ذلك. هل تستطيع الطيران خمسة أيام؟ لا، ليس خمسة أيام. ولكن لماذا

لا يصنعها على الفور، هذه الطائرة؟ ماذا ينتظر؟ صبراً يا بني فإن كل ما هو جيّد الصنع يُصنع على مهل.
وأخذنا ننتظر.

وفي أثناء ذلك كان غالباً ما تحوّم في سماء المدينة طائرات من مختلف الأنواع كنا نجهل أصل معظمها. وما كنا قط نرفع أعيننا إلى بطونها المنتفخة بالقنابل من غير أن نوجهها بعد ذلك نحو المنزل المكفهرّ ذي السقيفة الخربة الذي لم يكن صاحبه يُرى خارجه على الاطلاق. كان يعمل. ليل نهار. طيري، طيري بعض الوقت بعدُ أيتها الطائرات التعسة التي تعمل بالبنزين.

كنا نسعى إلى تخيّل الاضطراب الذي سيستحوذ على السماء حين تحلّق فيها أول طائرة تعمل بالحركة الدائمة من صنع «دينو تسيتسو». لسوف تشق عنان الفضاء سوداء مهولة ذات شكل عجيب. وعندما تراها جميع الطائرات المحوّمة في السماء فإنها سوف تهرب في كل اتجاه. ستختفي بعضها فارّةً إلى الجنوب، وبعضها إلى الشمال، وبعضها سوف تسحق أنوفها بالأرض وقد تولّاها الذعر.

كانت المدينة تُقصف في ساعات معينة من كل يوم. وكانت الطائرات تحوّم فوقها وكأنها في بلدها. ولم تكن المدافع المضادّة التي أعلن عن إرسالها قبل اسبوع قد وصلت بعدُ. ولقد اقتنعنا جميعنا بعد أول غارة أن مدينة من المدن

يجب أن تملك علاوة على شوارعها ومداخنها ومجاريرها مجموعة من المدافع المضادة للطائرات. وكان المدفع القديم القائم على البرج الغربيّ في المدينة منذ عهد المَلَكية يشكو خللاً لم يكن ميكانيكيو البلدية قد نجحوا حتى الآن في إصلاحه.

كانت المدينة منبسطة بلا دفاع تحت سماء الخريف التي كانت تبدو للجميع أشد انقشاعاً من المعتاد. ولم يسبق للناس أن رفعوا رؤوسهم إلى السماء بقدر ما فعلوا في ذلك الخريف. حتى لكأنهم كانوا يتساءلون مدهوشين: «وهذه السماء، ما الذي اعتراها فجأة؟» لأن الطائرات كانت شيئاً جديداً على هذه السماء التي بلغت من الكبر عتيًّا. فقصف الرعود والغيوم والأمطار والبَرَد والثلج التي لم تفتأ تجلبها على المدينة والتي ما كان أحد يملك قسوة مؤاخذتها عليها لم تكن شيئاً يُذكر بالقياس إلى دلع الشيخوخة المشؤوم هذا. كان هناك الآن شيء غريب خؤون في كتل السُحُب الغليظة والمِزَق الزرقاء التي كانت تنفتح فجأة وكأنها عيون كبيرة. وكان هذا العنصر المريب ينكشف حتى في سقوط المطر الرتيب وخلال الريح النافخة. وأخذت أفكر أكثر فأكثر بأنه كان من الخير للعالم لو أنه لم يكن له سماء على الاطلاق.

وذات يوم من أيام هذا الخريف حدث ما كنت أرجو حدوثه منذ زمن طويل. كان يوم أحد. وتوقّعت من الطريقة التي كانت جدتي ترتدي بها ثيابها أمراً شاذًا عن المألوف. فقد

كانت حركاتها رشيقة رشاقة شبه سحرية. وتسرّعت في تخمين أن الأمر يتعلق بزيارة خارقة للعادة. وكنت أتتبع بعيني حركاتها فاغر الفم من غير أن أنبس بكلمة خشية أن تقطع هذه الكلمة التناغم الهادىء بين حفيف ثوبها وحركات يديها.

سألتها بصوت خافت في حالة من الاضطراب الداخلي: «إلى أين تـذهبين؟» وتفحصت وجهي، وكانت نـظرتها هـادئة بعيدة بعض الشيء. وفتحت فمها على مهل وقالت: «عند دينو تسيتسو». والحق أنني كنت متأكـداً من ذلك. قلت بتضـرّع: «هل تأخذينني معك؟»

داعبت شعري وقالت: «البس ثيابك!»

كـان بلاط الشـارع مبلّلاً. وكـان يتسـاقط رذاذ نـاعم. وجالت في رأسي أغنية قديمة: «المطر ينزل قطرة قطرة؛ إلى أين أنتن ذاهبات أيتها العجائز على الطريق؟» كنت واحدة من أولئك العجائز المتصابيات. وكنت أسير تحت المـطر مرتـدياً ثيـابـاً سـوداء. كنت ذاهبـاً لاحتسـاء القهـوة. ولسـوف أرى، ولسوف أسمع. ولقد كنت سعيداً. وسـألت: «والطائـرة، هل سنراها؟»

ـ بالتأكيد. لقد وضعها وسط غرفة الاستقبال.

ـ ولكن هل أستطيع رؤيتها عن كثب؟

ـ عن كثب أيضاً، أجل. ولكن إياك والحماقات! عليك ألا تلمسها.

نظرت إلى يديّ. كـانتا أشـدّ مني تأثـراً. دسستهما في جيبيّ.

وصلنا. قرعت جدتي مطرقة الحديد على الباب الكبير. وانبثّت القرعات خلال البيت وكأنها ذبذبات. كان مسكناً يميل مظهره إلى الغرابة، متعدّد الأضلاع ناتىء سقيفة السطح نتوءاً شديداً. وشعرت وكأنه يقطر منه النّعاس.

قرعت جدتي مرة أخرى. ولم نسمع صوت أية خطوة في الداخل. ومع ذلك فقد انفتح الباب. فمن الطبقة الأولى كان أحدهم، ربما كان «دينو تسيتسو» نفسه، قد رفع المزلاج بواسطة حبل. وعندنا أيضاً كان قد أقيم جهاز مماثل للتمكن من فتح الباب من الطبقات العليا. وها نحن أولاء قد بدأنا نصعد الدرج الخشبي الحلزوني. كانت الألواح المصفرّة تَصُرّ، ولكنه كان صريراً مختلفاً عن الذي يحدثه درجنا نحن. كان يحكي لغة أجهلها.

عندما دخلنا غرفة الاستقبال لم أر في بادىء الأمر شيئاً لأنني كنت مختبئاً في إزار جدتي. ثم كشفت عن إحدى عينيّ فلمحت بضع نساء عجائز لابسات السواد مثل جدتي وجالسات على الدواوين المصفوفة حول الحجرة. أما الطائرة فكانت في الوسط. كان حجمها بحجم جسم بشري وكان جناحاها مبسوطين، وكانت بيضاء كلها. بيضاء. كان الجناحان والذيل والبطن جميعاً من الخشب. وكانت رؤوس البراغي اللامعة بادية فوق ألواح الخشب المصقولة بعناية.

أخذت أتأملها طويلاً. وكانت أصوات النساء تترامى إليّ من بعيد وكأنها تمرّ خلال صفير الريح. ثم رفعت ناظريّ

ورحت أنظر إلى الرجل الشاحب اللون ذي العينين المحمرّتين التائهتين الموجهتين دوماً إلى أرضية الحجرة. سألت جدتي: «هذا هو؟»

هزّت رأسها علامة الإيجاب.

كانت النسوة يتحدثن مثنى مثنى وهن يحتسين القهوة. وكانت أحاديثهن تتشابك أحياناً. وكن يهززن برؤوسهن بلا انقطاع معبّرات عن دهشتهن مشيرات إلى الطائرة ثم يعدن إلى الحديث عن الحرب والغارات. ولم يكن الرجل الشاحب يخرج عن صمته. وكانت عيناه وكأنهما مشدودتان إلى الطائرة الخشبية.

قالت لي إحدى العجائز: «ادرس يا صغيري كي تصبح في مثل علم «دينو» وتشرفنا.»

زدت التصاقاً بجدتي. ولست أدري لماذا لم أكن أشعر بأي فرح. فقد تسرّب خارج ذاتي وكأنه يتسرّب من مئات الثقوب الصغيرة. ولكني لم أظلّ طويلاً على هذه الحال. ففي الفضاء الذي بقي فارغاً من جسدي تدفق فجأة عبر تلك الثقوب الخفيّة شيء كأنه سيل. كان المتدفّق حزناً. فقد بدت الطائرة البيضاء القابعة وسط الحجرة بغتة أهشّ الأشياء في العالم. وأدعاها للرثاء. فكيف يمكن أن تتجرأ على مواجهة الطائرات الضخمة المعدنية التي كانت تحلّق كل يوم فوق رؤوسنا، تلك الطائرات الرمادية المهولة المحمّلة بالقنابل

الراجفة بالضجيج المصمّ للآذان؟ إنه كان يكفيها لحظة لتقطيع هذا الشيء الأبيض كما تقطّع السباع حَمَلاً.

تـابعت النسـوة العجـائـز حـديثهن في طـائفـة من الموضوعات. وقدّمت اليهن ربة البيت فنجاناً ثانياً من القهوة. ولم يتحرك الرجـل الشاحب من مكـانه. وبقيت هنـا مفزّعـاً. وحلّت رويداً محل كآبتي لامبالاة تامّة. وأخذت أرقب تجاعيد النساء العجائز. واستحوذت عليّ هذه اللعبة شيئـاً فشيئاً تمـام الاستحواذ. فلم يكن قد سبق لي تفحّص تجاعيد الناس بمثل هذا الاهتمام. لقد بدت لي غريبة. وأخذت تستطيل وتستطيل راسمة جيوباً لا تحصى تحت الذقن وعلى العنق وفوق الرقبـة وعلى كـل الوجـه. وكانت تشبـه خيطان الصـوف التي كـانت جـدتي تكبّها من مغـزلها في بـداية الشتـاء. ولربمـا كـان في الامكـان أن يُحاك منهـا جوارب، وربمـا حتى كنزات. وبـدأ النعاس يجتاحني.

عندما خرجنا كان المطر قد توقف. وكان بلاط الشـارع يلمع بتهكّم. فقد كان يعلم بعض الأمور. ومن بيت إلى آخر كانت امرأتان تتحدثان مرتفقتين نافذتيهمـا. وعلى بُعد منهمـا كانت ثلاث نساء يفعلن مثلهما. وإذ كانت نوافـذهن متباعـدة فقـد اضطررن إلى رفـع أصواتهن، وقبـل أن أصل الى البيت كنت قد عرفت النبأ: لقد وصلت بطارية من المدافع المضادّة للطيران إلى المدينة.

وبعد ظهر ذلك الأحد دقت أجراس الكنيستين أطول من

المعتاد. وكان في الشارع عدد أكبر من الناس. وكان «هاريلا لوقا» يقرع الأبواب من بيت إلى بيت صائحاً:

ـ لقد وصلت، أجل لقد وصلت!

ـ وصرخت في وجهه امرأة عجوز:

ـ هلا سددتَ فمك. سمعنا الخبر، حسناً!

وأعلن «بيدو شريف» في المقهى حيث كان يتناول قدحاً مع «عبده بابارمو» الذي كان يحدّثه عن المدفعية:

ـ الآن قضي أمر الطائرات.

كان نصف الرواد يستمعون إلى الحديث فاغري الأفواه من الدهشة. وتنهد «عبده» قائلاً:

ـ ايه! المدفعية! لم يُخلق دماغك لفهم هذا الأمر يا «بيدو». ولكن من أين لي أن أعثر على من يفهمه؟

ظل الناس طوال بعد الظهر في نوافذهم أو على شرفاتهم آملين أن يلمحوا البطارية. وكان معظمهم يوجهون أنظارهم إلى القلعة وهم على يقين من أن المدافع ستوضع فيها كما وضع المدفع المضادّ القديم. ولكن أقبل المساء ولم تظهر أنابيب المدافع في أي مكان. كان بعضهم يقولون إن البطارية مُوّهت وثُبّتت خارج المدينة. وخاب أمل الناس. لقد كانوا يتوقعون رؤية مدافع عملاقة ذات أنابيب طويلة تقام في وسط المدينة كما يليق بأسلحة عهدت اليها هذه المدينة بحمايتها؛ في حين أنه لم تصل إلا بطارية كانت تختبىء بعيداً خلف التلال وفي الأجم.

قال «عبده بابارامو» في المقهى وهو يرفع كأسه الأخيرة:
«آه! إن المدفعية الحقيقية كانت في أيامي!»

ولكن بعد تلك الخيبة الأولى كان من نتيجة السر المحيط بالبطارية نفسه أن ثبّت لدى بعضهم ثقتهم بها.

كان الجميع يتحرّقون شوقاً الآن لمشاهدة شجارها الأول مع الطائرات. وأخذ الناس يرقبون بفارغ الصبر طلوع النهار والقصف.

بزغ فجر الاثنين، ولكن يا للعجب لم يأت الانكليز في ذلك النهار لقصف المدينة! وأخذ «هاريلا لوقا» يصيح في الشوارع:

ـ الخنازير! لقد علموا بالتأكيد أننا نملك الآن بطاريتنا. علموا ذلك، الجبناء، الرعاديد...

ـ حسناً، سدّه هذا الفم الذي يخرج منه صوت حمار!

ـ يا لغِلاظ الأكباد!

لكنهم جاءوا الثلاثاء. وكالعادة أطلقت صفارة الانذار عويلها في الفضاء. وهرع الناس إلى سلّم قبونا ناسين نفاد صبرهم في العشية. كان «هاريلا لوقا» شاحب الوجه. وكان هدير المحركات يبلغ آذاننا موحّد النغمات، ولكنه بدا وكأنه ينذر بوعيد متواصل. وكان يخامر «هاريلا» شعور بأن الطائرات كانت تبحث عنه بالذات هو الذي أطال شتمها في العشية. وأخذ الضجيج يقترب، وكان الناس يصغون مشدوهين.

قال أحدهم:

- لقد بدأوا، هل تسمعون؟
- اخرس.
- اليك، اسمع، إنها تطلق.
- أجل، حقاً، إنها تطلق.

كان يترامى من بعيد دويّ متقطع.

- البطارية!
- لماذا تطلق بهذا الشكل الضيعف؟
- لقد صمتت.
- كلا. إنها تستأنف.
- ولكن لماذا لا تفعل بشكل أقوى؟
- من يعرف؟ الأسلحة هذه الأيام!
- عندما كان مدفعنا المضادّ يطلق كانت الأرض تزلزل.
- متى ذلك؟
- في حينه.
- اسكت!

حجب دويّ المدافع برهة هدير المحركات، ثم كانت الغلبة لفرقعة هذه فبرزت أشد وعيداً وحنقاً على ما يبدو. كان جميع الناس في القبو يكتمون أنفاسهم. لم تعد المدافع تُسمع. وكانت المحركات تعوي عواء وحشياً. والصَفَرات تخترق الأرض بلا رحمة وكأنها أوتاد كبيرة. وأخذت الأرض ترتجّ. مرة، مرتين. ثلاث مرات. كالمعتاد. «ها هي ذي تعود».

وسُمع من جديد صوت مدافعنا المضـادّة الذي لم يكن قد توقف. وفجأة وسط الحزن الذي أثارته هزيمة البطارية في الصراع الذي كانت قد شنته والتفكير بـأنها لم تغيـر من الأمر شيئاً برزت صيحة حادّة صادرة عن الشارع: «إنها تحترق! إنها تحترق!»

هـرع الناس إلى الخـارج للمرة الأولى قبـل أن يسمعوا إشـارة انتهاء الغـارة. وامتلأت الشـوارع والفِناءات والنـوافـذ بالرؤوس التي كانت تتحرك لترى، ترى، ترى.

«تلك هي!»

كانت تهوي بيضاء ساحبة وراءها شريطاً طويلاً جنائزيـاً من الدخان أخذ ينتشر في مهب الريح. وهبطت قاطعة الفضاء مع الرجل الذي فيها والذي سيموت بعد بضع ثوانٍ ثم ضاعت عند الأفق. ومزّق انفجار أعنّة الأثير.

استمـر الشـريط الـرمـادي المشؤوم في التحليق فـوق المـدينة. وبينمـا كان النـاس يصيحون ويصـرخون ويشتمـون قطّعته ريح الشمال الخفيفة التي غلظت ثم نثرته مِزَقاً. وأخذت أشلاؤه تهيم فوق المدينة مدة طويلة.

وما لبثت الزُمَر التي كانت تملأ الشوارع والسـاحات أن تحركت من تلقاء أنفسها. وها هـوذا حشد من النـاس يركض الآن باتجاه شمالي المدينة، أي نحو المكـان الذي ينبغي أن تسقط فيه الآلة. وخرج الناس الذين كانوا قد لـزموا نـوافذهـم فتسلّقوا جدران فِناءاتهم أو سطوحهم ليُتبِعوا الحشد أنـظارهـم

بعد أن كان قد قطع شارع «فاروش» وأخذ يحثّ خطاه في شارع «زلي». وما هي إلا لحظات حتى اختفى رأس الموكب بعيداً، وأما ذيله فما كان بالامكان تمييز طرفه.

كان الوقت وقت العَشاء، ولكن أحداً لم يتحرك من النوافذ أو من على الجدران حتى سُمعت صيحات تقول: «لقد عادوا، لقد عادوا!». لقد عادوا حقاً. وقد شوهدوا في البدء يبرزون من آخر شارع «زلي»، ثم فوق الأراضي المشاع وأخيراً في شارع «فاروش». وها قد أصبح الحشد جيشاً لجباً متقدّماً وكأنه سكران. وكان يتقدمه ويسير على جوانبه أولاد كانوا يزفّون الأنباء. كانوا يصرخون: «لقد أحضروها! لقد أحضروها!»

وسأل الناس: «ما الذي أحضروه؟»

. الذراع. الذراع.

ـ كيف؟ ارفع صوتك.

ـ احضروا الذراع.

ـ أية ذراع؟

ـ هل سمعت؟ لقد أحضروا شيئاً. ولكن ما تراه يكون؟

ـ ذراع.

ـ ذراع الطائرة[1]؟

كانت النوافذ والشرفات والجدران والمداخن والسطوح غاصّة بالناس المنحنين لأجل رؤية أفضل. وكان صخب

---

(١) لعب على الكلمة التي تعني في اللغة الألبانية «الذراع» و«الجناح» معاً.

الحشد قد أخذ يُسمع. كان يقترب. وانتشرت الضوضاء لأفّة كل شيء.

أخيراً وصل الجيش. وكان منظراً أخّاذاً. كان في المقدمة «عكيف كشاه» ناضحاً بالعرق وخصلات من شعره متدلية فوق وجهه وقد جحظت عيناه. وكان يحمل في يده التي رفعها في الهواء شيئاً أصفر أبيض جامداً.

ودوّى الشارع بأصوات ارتفعت من طرف إلى طرف: «ذراع إنسان!»

- ذراع الطيار!
- ذراع الانكليزي. لم يكن قد بقي منه سوى الذراع.
- اليد التي قذفت بالقنبلة.
- آه! الكلب!
- يا للانكليزي التعس!
- يا للفظاعة، اغمضوا عيونكم!

كان «عكيف كشاه» يلوّح بلا انقطاع بالذراع المفصولة لكي يتيح للجميع رؤيتها. كانت اليد لا تزال مفتوحة.

- انظر، يملك خاتماً.
- انظروا، إن في إحدى أصابعه خاتماً.
- آه، نعم. خاتم. خاتم في الاصبع.

كان «عكيف كشاه» يطلق بين الفينة والفينة صرخات مخيفة. وكان بعض الناس حوله يحاولون انتزاع غنيمته منه، ولكنه ما كان ليتركها.

وأخذت امرأته التي كانت تتابع المشهد من نافذتها تشدّ بشعرها. «عكيف أتوسل اليك. إرمها. إنها يد الشيطان! إرمها!»

وأغمي على أحدهم.

وارتفع صوت قائلاً: «عودوا بالأولاد!»

- خلّصنا يا رب!

- يا للانكليزي التعس!

وابتعد الحشد نحو قلب المدينة. وكانت يد الطيار المنتزعة التي ضربت المدينة تترجّح فظيعة بشعة فوق الجَمْع.

مقطع إخباري:

... يح. مِلكية. استؤنفت أمسِ الدعوى القديمة، «أنغوني» على «كارلاش»، التي كانت قد عُلِّقت بسبب الغارات. أسقطت أول طائرة فوق مدينتنا. وُجدت ذراع الطيار الإنكليزي. لم يسبق لمدينتنا أن شاهدت صورة جنائزية مماثلة. كان الجمهور يرفع الذراع المفصولة في الهواء. وكان يمسك بما لا يُدرك، بالشرّ مجسّداً، بيد القدر الجائر التي كانت تضربنا بلا رحمة منذ أيام. ريبورتاج مفصّل في العدد القادم. زاوية لغوية. إن السادة الذين يهشّمون لغتنا تجاوزوا الحدّ في التجرؤ. فقد تجاسروا على أن يستبدلوا بكلمتي «غواصة» و «طائرة» الأجنبيتين الكلمتين الالبانيتين الجميلتين الدالتين على مثل هاتين الآلتين. إنه لعار. لائحة القتلى في

آخر قصف: «ل. طاشي» و «ل. قدار»، و «د. دجيك» و «ك. ظرافي» و «أ. ».

٨

ظلّت صفارة الخطر صامتة. ولم تدوّ قطع البطارية كما هي العادة ولا انطلق كذلك المدفع المضاد القديم. ومع ذلك فإن زمجرة المحركات في السماء تبدو وكأنها ستجعلها تنهار. وإختبأ الناس في الملاجىء على عجل بانتظار أن يعرفوا ما الأمر. وكان ضجيج الطائرات يزداد لحظة إثر لحظة.

ـ ما هذا؟

ـ لماذا لا يلقون قنابلهم؟

دام ذلك الانتظار بعض الوقت ومن ذا يدري كم كنا سنلبث هنا لو لم يصرخ صوت شبه فرِح من أعلى السلم: «اخرجوا وانظروا، اخرجوا وانظروا»!.

خرجنا، وما إن أصبحنا في الخارج حتى لبثنا مشدوهين. كانت السماء تعجّ بالطائرات. كانت تحوّم فوق المدينة وكأنها طيور اللقلق، ثم كانت كل واحدة تنفصل بدورها عن رفيقاتها لتحط في المطار.

صعدتُ أربعاً أربعاً إلى الطبقة الثانية لأرى بشكل أجود. ووضعت زجاجة النظارة على إحدى عينيَّ وجلست قرب

النافذة. كان المنظر الذي اكتشفته رائعاً. كانت أرض المطار قد امتلأت بالطائرات. وكانت أجنحتها البيضاء اللامعة تعكس الضوء كالمرايا حينما كانت تتحرّك على مهل لتصطف الواحدة بجانب الأخرى. لم أكن قد رأيت شيئاً بمثل هذا الأسر في حياتي. كان ذلك أجمل من حلم.

ظللت طوال قبل الظهر أتابع بانتباه الذهاب والمجيء فوق المطار: هبوط الطائرات وجولانها واصطفافها على المدرج.

جاء «إيلير» بعد الظهر لرؤيتي. قال: «بخٍ بخٍ، لقد أصبحت لنا طائراتنا»!

ـ أجل، لسوف يكون ذلك باهراً.

ـ لقد أصبحنا الآن هائلين. سوف نقصف نحن أيضاً المدن الأخرى كما قُصفت مدينتنا حتى الآن.

ـ ذاك ما سيكون بديعاً!

كرّر «إيلير»: «الحق أننا هائلون». لقد كانت تلك الكلمة التي تعلمها منذ أيام تعجبه كثيراً.

ـ أجل، كثيراً!

قال «إيلير»: «وأنت الذي كان يقول إنه كان أفضل لو لم يكن هناك سماء على الإطلاق. هل تدرك الآن ما كنا سنخسره»؟

ـ أجل، حقاً.

تحدثنا طويلاً عن المطار والطائرات. وكانت فرحتنا قد فتّرتها البرودة العامة بعض الشيء. فكثير من الناس ويا للعجب بدوا منزعجين من رؤية أرض المطار تمتلىء بالطائرات بدلاً من أن يُسرُّوا لذلك. حتى إن غضب بعضهم على إيطاليا والطليان كان قد تفاقم.

كانت الليالي مظلمة. وكنا نظلّ جميعاً بعد العشاء في الحجرة الكبيرة قرب النوافذ وعيوننا موغلة في الظلمة. وفي بعض الأحيان كان المصباح الكشاف وهو يبحث عن المدينة من ضفة «زلي» يمد حزمته الضوئية كما تمد البزاقة قرنيها. وكنا نخفض رؤوسنا تحت متكآت الشبابيك منتظرين في صمت أن يبلغ النور واجهة منزلنا. ولكن الظلام كان في معظم الليالي دامساً ولم نكن نميِّز شيئاً، حتى إن الواحد منا لم يكن يرى الآخر.

وفي بعض الأمسيات كانت عربات عسكرية تمر على الطريق من الشمال إلى الجنوب متوجهة على ما يظهر إلى الجبهة. وكان أبي يعدّ أنوار مصابيحها وكنت أنام وأنا أصغي إلى الأرقام الرتيبة، مئة واثنان وعشرون، مئة وثلاثة وعشرون، مئة وأربعة وعشرون. . . .

وكنت في الأيام الأخيرة حزيناً جداً لأنهم لم يكونوا يتركوننا نلعب في الشارع خوفاً من الغارات. وكنت أقعد كل صباح أمام النوافذ الكبيرة وأظلّ قابعاً مكاني وأنا أراقب بانتباه ما كان يجري فوق سطوح المنازل. ولكن نادراً بالطبع ما كان

يجري شيء على السطوح، وكانت أسراب الغربان في السماء تزيد من كآبة المنظر. وربما كانت فروق الأشكال المختلفة لنُتَف الدخان المتصاعد من المداخن، ولا سيما حين تهب الريح، هي القادرة على اجتذاب الانتباه قليلاً. فقد كان اشتعال مدفئة حلماً شبه مستحيل التحقيق، ولا سيما في هذا الفصل، عندما كان الناس يشعلون نيرانهم فلا تكفي كمية السخام المتراكمة في أية مدفئة لجعلها تلتهب.

لم يكن هناك سير سيارات تقريباً في أثناء النهار على الطريق المحاذي للنهر. ومع ذلك فقد كانت قارعته تجتذبني. فقد كنت أختلق بنفسي السير الذي ينقصها، لأنه إذا كان هناك من شيء واجب لطريق فهو بالطبع الحركة.

كنت قد سمعت أنه قبل ألف عام كانت «أول حملة صليبية» قد مرّت من هنا. ويقال إن «زيفو غافو» قد سجل هذا الحديث في وقائعه. لقد سلك الصليبيون هذا الطريق في صفوف لا متناهية مرجّحين أسلحتهم وصلبانهم وهم يسألون بلا انقطاع: «أين قبر المسيح»؟ وإذ كانوا ينشدون ذلك القبر فقد تابعوا مسيرتهم نحو الجنوب من غير أن يتوقفوا في مدينتنا وابتعدوا في الاتجاه الذي تسلكه الآن المركبات العسكرية.

وبعد مدة طويلة جداً مرّ مسافر متوحّد على هذه الطريق نفسها. كان إنكليزياً مثل الطيار الذي وضعت ذراعه المفصولة قبل أسبوع في متحف المدينة. كان ينظّم الأشعار ويعرج وكان قد ترك بلاده وهام في الدنيا من غير توقف. وكان ينهب الطرق

والدروب ظالعاً وإذ مرّ أمام مدينتنا فإنه التفت إليها ولكنه لم يتوقف. ولقد ذهب في الإتجاه الذي سلكه الصليبيون. ويقال إنه لم يكن يبحث عن قبر المسيح وإنما عن قبره هو. وأخذت أنا أعمر الطريق بأولئك الصليبيين وذلك الأعرج المتوحّد وأحييه بطائفة من الأحداث. كنت أعيد الصليبيين أدراجهم وأخلط سيوفهم بصلبانهم وأرسل إليهم رسولاً يخبرهم أنه وجد قبر المسيح، وكنت أراهم عندئذ يتزاحمون بعنف للوصول إليه وفتحه. وإذ كانوا يختفون فإنما ليفسحوا المجال للأعرج المتوحّد. وكان يمشي ويمشي ظالعاً من غير أن يتوقّف قطّ.

وهكذا كنت أقضي ساعات في إزعاج الطريق والصليبيين وأعرجي الإنكليزي.

أما الآن فقد نُسي كل شيء. كان لديَّ المطار. كان حافلاً بالحياة والحركة، وكان يرتفع إلى السماء ويحمل الموت. ومنذ البداية أحببته وخجلت من أنني كنت قد أسِيت للأبقار.

طلع النهار. وكان ماثلاً أمامي متلألئاً كما لا يمكن أن يتلألأ شيء غيره في الدنيا. لكأن آلافاً من الأمهات «بينو» قد قمن بتبريجه. كان يتنفس بتثاقل وكأنه مئات من الأسود مجتمعة، وكان لهاثه يتصاعد بين الفينة والفينة إلى السماء. وكانت حاشية من الضباب قد بقيت معلقة فوقه وكأنها مذعورة.

كانت خالتي الشابة تقول لأبي: «ها إن إيطاليا تُبدي مخالبها». وكانت تتأمل أرض المطار بعينيها الجميلتين اللتين غدتا صارمتين.

لم أكن أفهم كيف يمكن ألّا يحب المرء شيئاً بمثل جمال المطار. ولكنني كنت قد أدركت في الأيام الأخيرة أن الناس كانوا بشكل عام مضجِّرين. كانوا يحبون الحديث ساعات طويلة عن مصاعبهم في تأمين حاجاتهم، وعن ديونهم، وعن أسعار السلع، وعن مشاغل أخرى من هذا النوع، ولكن ما إن يدور حديث أكثر بهجة وجاذبية حتى يبدوا وكأنهم أصيبوا بالصمم.

خرجت كيلا أسمع بعدُ الطعن في المطار. كنت في تلك الأيام كالمسحور وكنت أعرف الآن كل ما كان يدور على أرض المطار. كنت أميِّز القاذفات الثقيلة من الخفيفة، وهذه من المقاتلات. وكنت كل صباح أعدّ الطائرات وأتبعها نظراتي لدى إقلاعها وأثناء طيرانها وعند هبوطها. وسرعان ما اكتشفت أن القاذفات لم تكن تطير أبداً وحدها وإنما مصحوبة دائماً بالمقاتلات. وكنت قد عمَّدت في خاطري بعض الطائرات التي كانت تتميَّز من الأخرى، وكان بعضها قد حصل سلفاً على تفضيلي. وحين كانت قاذفة ترتفع بمواكبة المقاتلات لتختفي في أعماق الوادي باتجاه الجنوب حيث كانت تدور رحى الحرب على ما يقال كنت أسجل الملاحظة جيداً في ذهني وأنتظر عودتها. وإذا حدث أن تأخرت إحدى طائراتي

المفضلة فإنني كنت أقلق، وما كان أشد فرحتي حين ألمحها آتية من الوادي والطنين يعلن عودتها. وكان يحدث ألا تعود إحدى الطائرات. وكنت أكتئب بعض الوقت ثم ينتهي الأمر بنسيانها.

هكذا كانت الأيام تنقضي. وإذ كان المطار قد استحوذ عليَّ فإنني لم أكن أفكر في شيء غيره.

ما كدت أقترب من نوافذ الحجرة الكبيرة ذات صباح حتى لاحظت أمراً غريباً. ففي وسط الطائرات التي كنت أعرفها كان هناك واحدة جديدة. لم أكن قد رأيت على الإطلاق في مثل كبرها. كانت الزائرة التي وصلت على ما يبدو أثناء الليل ماثلة أمامي بجلالها وجناحيها الرماديين الفاتحين المبسوطين بين الأخريات. وما أسرع ما خلبت لبيّ. ونسيت شقيقاتها اللواتي كنّ يبدون صغيرات جداً بجانبها وتمنّيت لها أن تحلّ على الرحب والسعة. وما كان في وسع السماء والأرض مجتمعتين أن تتحفاني بهدية في مثل هذا البهاء. وجعلت منها رفيقي الأعز. كنت أقاسمها طيرانها وضجيجها وأتحكّم حتى بالموت الذي كانت تنشره.

كثيراً ما كانت تشغل فكري. وكنت فخوراً برؤيتها تقلع في زمجرة كانت تزلزل كل شيء، زمجرة كانت الوحيدة القادرة على إصدارها، ثم تتجه على مهل نحو الجنوب. ولم يسبق أن قلقت لتأخر طائرة في العودة قلقي عليها. وكان يخيّل إليَّ على الدوام أنها كانت تظل وقتاً طويلاً هناك في الجنوب. ولدى

عودتها كنت أظن أني أسمعها تتنفس بأثقل مما تفعل؛ كانت تبدو لي منهكة، منهكة جداً. وفي تلك اللحظات كنت أتمنى ألا تذهب قط إلى الجنوب حيث كان يدور القتال. وأما الأخريات اللواتي كن أفتى منها فما عليهن هن سوى الذهاب. وأما هي فكانت في حاجة إلى شيء من الراحة.

ولكن شيئاً من ذلك لم يكن يقع. فقد كانت تسبح بجلالها وثقلها في الجو يومياً تقريباً ناهدة للقتال. وكنت آسف على أني لم أكن هناك في الجنوب لرؤيتها طائرة فوقي بجناحيها الكبيرين.

قالت جدتي يوماً وهي ترى من النافذة ثلاث طائرات مقلعة من بينها رفيقتي الكبيرة: «إنهن يطرن، اللعينات»!

وسألتها: «لماذا تسبيهن»؟

ـ لأنهن سيدمرن كل شيء.

ـ ولكنهن لا يقصفن قط مدينتنا.

ـ يقصفن غيرها. هذا كهذا.

ـ أية مدن؟ وأين تقع؟

ـ هناك بعيداً خلف الغيوم.

وجهت ناظريَّ إلى الناحية التي أشارت إليها جدتي بيدها وسكتّ. وفكّرت في أن هناك بعيداً خلف الغيوم مدناً يدور فيها قتال. فكيف تراها تكون تلك المدن الأخرى. وكيف يجري فيها القتال؟

كانت تهب ريح شمالية. وكـان زجاج النـوافذ الكبـرى يهتزّ. وكانت السماء ملبّدة. وكـان يترامى من المـطار ضجيج متساوق رتيب .زّ زّ زّا! وقد إمتـلأ به الـوادي. فـي ذبـذبـات لامتناهية! زّ زّ زّ سّ سّ سّ. وكــانت تلك الأصـوات تنتشــر وتنتشر. «سوزان»! من يدري ما سرّه الأثيري؟ أيها اليعسوب، اللقلق - اليعسوب، أنت لا تعرف شيئاً عن المطار. إنـه القفر الآن هناك عندكم. الـريح تعصف وتعصف. أيتهـا الطائـرة - اليعسوب. إلى أين تطيـرين هكذا؟ هنـاك طائـرات تحلّق في السماء.

أيقظتني يد جـدتي التي كانت فـوق كتفي. قالت لي: «ستُصـاب بالبـرد». كنت قـد نمت ورأسي مسنـد إلى حـافـة النافذة. قـالت جدتي: «لقـد خَلَبْتك تمـاماً». كنت مسحـوراً حقاً. ثم إني كنت أشعر يالبرد.

«إنهن يطرن، اللعينات»!

لم أقل شيئاً. كنت أعرف جيداً أنها تشتمهن، ولكني إذا كنت الآن قد تأثرت فمن أجل الطائرة الكبيرة وحدهـا. وربما كانت جدتي على حق بالنسبة إلى الأخريات. فلا أحد يغلم ما تفعـل الطائـرات هناك بعيـداً خلف الغيوم متـوارية عن أنـظار الجميـع. نحن أيضاً عنـدما كنـا نـذهب إلى الحقـول خـارج المدينة كنا نسرق أكواز الذرة ونـطلق عنان أنفسنـا لطائفـة من الشيطنات ما كنا لنجرؤ عليها قطّ في المدينة.

ولكن هنـاك أمر لم أكن أتـوصـل إلى تفسيـره وهـو أن

تشغيل المطار لم يكن يمنع الغارات. وحين كانت الطائـرات تـأتي لقصفنا كانت المقاتلات الصغيرة تسرع في الإقلاع بينما تبقى الطائرة الكبيرة بلا حراك فوق أرض المطار. لماذا لم تكن تطير؟ كانت هذه الفكرة تزعجني أحياناً. وكنت أحـاول تبريـر مسلكها مستبعداً إمكان أن تكون خائفة. كلا. ما كان في وسع هذه الطائرة أن تعرف الخوف. وعندمـا كنا نختبىء في القبـو بينمـا كانت هي تمكث خـارجاً في عـراء أرض المطـار كنت أحلم في أثناء ساعات الهجوم أن أراها تطير ولو مـرة واحدة. وعندها لا يُعرف كيف ستولي القاذفات الإنكليزية الأدبار!

لكنها ما كانت لترتفع قطّ عندما يأتي الإنكليز، ولا تركب أبداً متن الجوّ. وما كان لهـا على ما يبـدو أن تطيـر أبداً فـوق مدينتنا. لم تكن تعـرف سوى اتجـاه واحد، اتجـاه الجنوب، هناك حيث تقوم الحرب على ما يظهر.

كنت عند «إيلير» ذات يوم. وكنا نلعب بالكرة الأرضيـة فندفعها بـإصبعنا تـارة في اتجاه وطـوراً في الآخر حين وصـل «جعفر» بصحبة «عيسى». كانا حانقين، وكانـا يطعنـان! كانـا يستشيـطان غضبـاً على الـطليـان والمـطار ويكيـلان الشتـائم لموسوليني الذي كان سيأتي قريباً على ما يقـال إلى مدينتنـا. كان الأمر طبيعياً. كان كل الناس يعنّفون الطليـان. وكنا نعلم منـذ زمن طويـل أنهم كانـوا أشراراً على الـرغم من ملابسهم الجميلة وريشـاتهم وأزرارهم اللامعـة. ولكننا لـمّـا نكن نعلم جيداً ما ينبغي علينا أن نظنّ بطائراتهم.

سألت: «وطائراتهم كيف هي»؟

قال «جعفر»: «قذرة مثلهم».

قـال «عيسى»: «كيف أفهمكما؟ هـذه أمور لا يسعكمـا إدراكها؛ ما زلتما صغيرين جداً. يَحْسُن ألاَّ تسألانا».

تبادلا بعض الكلمات بلغة أجنبية كما كانا يفعلان دائماً حين لا يريداننا أن نفهم ما يقولان.

تأملني «جعفر» برهة وهـو شبه مبتسم وقـال لي: «قالت لي جدتك إنك مأخوذ جداً بالمطار».

احمرّ وجهي. أضاف بعد لحظة: «تحب الطائرات؟»

قلت في شبه غضب: «أجل، أحبها.»

«قال «ايلير»: «وأنا أيضاً.»

قالا فيما بينهما أيضاً شيئاً بلغة مجهولة. كانت ثورتهمـا قد هدأت وتنفس «جعفر» نفساً عميقاً وقال من بين أسنانه: «يا للصغيرين المسكينين. إنهما مفتونان بالحرب. يا للفظاعة!»

قـال «عيسى»: «علامـة من علامـات الزمن. إنـه عهد الطائرات.»

قال «ايلير»: «هل سمعت. إننا «فظيعان».

قلت: «أجل، «بلا حدود»، وسحبت زجاجة النظّارة من جيبي ووضعتها على عيني.

قال «ايلير»: «ألا تستطيع أن تجد لي أيضاً واحـدة مثل هذه؟»

فكّرت طوال الظهر في أقوال «جعفر». وعلى الرغم من أننا كنا أنا و«ايلير» حين خلونا لأنفسنا قد رأينا في ما قالاه بشأن الطائرات «قَدْحاً رهيباً» فإن ظـلاً من الشك كان قد خيّم على المطار. ووحدها الطائرة «الكبيرة» كانت قد أفلتت منـه. إذ إنه وإن كانت الطائرات الأخرى شريرات فإن طائرتي ما كـان من الممكن أن تكـون كـذلـك. والحق أني كنت لا أزال أحبهـا الحب نفسه. وكان قلبي ينتفخ زهواً حين أراها ترتفع من مدْرج المـطار وتملأ الـوادي بقـرقعتهـا المهيبـة. وكنت أحبهـا على الأخص حين تعـود منهكة من هنـاك، من الجنوب حيث كـان يدور القتال.

مرة جديدة كانت الليالي حالكة حلكة مخيفة. بقينا في غرفة الاستقبال بالطبقة الثانية، وأخذ أبي يُحصي أيضاً بصوت رتيب مصابيح العربات العسكرية التي كـانت تسير هـذه المرة باتجاه معاكس من الجنوب إلى الشمال. وهمت ببصري بعيداً كمـا في السـابق، ولكنـي كنت أعلم الآن أنــه عنـد أسفــل المـدينة، في مكـان ما على أرض المـطار المغمورة بـالليل، كانت تنام الطائرة الكبيرة مبسوطة الجناحين. وحاولت أن أحدّد بالحدس ناحية المطار، ولكن الظلمة كانت من الشـدة بحيث يجـد المرء نفسـه ضالاً غيـر قـادر على تمييـز أي شيء على الإطلاق.

كانت العربات لا تزال تسير نحو الشمال. وكان يبدو كل مسـاء أن دويّ المدفـع كان ينـطلق أقـرب فـأقـرب. وكـانت الشوارع والنوافذ حافلة بالاخبار.

وفي الصباح رأينا على الطريق صفوف الجيش الإيطالي المنسحب الطويلة. كان الجنود يسيرون على مهل نحو الشمال باتجاه لم يكن الصليبيون ولا المسافر الأعرج قد سلكوه قطّ. كانوا يحملون سلاحهم بحمالته ولوازمهم على الظهر. وبين الفينة والفينة كانت تنحشر بينهم صفوف طويلة من البغال المحمّلة بالتجهيزات والذخائر.

نحو الشمال. كان كل شيء يتحرّك نحو الشمال. كان يبدو وكأن العالم قد غيّر اتجاهه. (حين كنت أدير الكرة الأرضية في أحد الاتجاهات كان «عيسى» يدفعها بالإتجاه المعاكس لإغاظتي.) وكان ما يحدث مماثلاً تقريباً. كان الطليان المدحورون يتراجعون. وكان الناس بانتظار مجيء اليونانيين.

راقبت الحركة على الطريق مستغرقاً وأنفي مسحوق إلى زجاج النافذة. وكانت قطيرات المطر التي كانت الريح تلقيها من آن إلى آخر على الزجاج تزيد من كآبة المنظر. استمر العرض طوال الصبيحة. وحوالي الظهر كانت الصفوف لا تزال تسلك الطريق. وعندما اختفى آخر صف منها وراء تلة «زلي» بعد الظهر وغدت الطريق مقفرة (كان ذلك في الساعة التي كان الأعرج يستعدّ فيها للظهور من جديد) امتلأ الفضاء بغتة بهرير المحركات الخافت. وأجفلت كأنما انتُزِعت من حلم. ما الذي كان يجري على هذا النحو؟ لماذا؟ وسرعان ما غاض نعاسي. كان يجري ما لا يمكن قبوله: كانت جميعها قد

أصبحت في الجو. كانت الطائرات تغادر المطار ثُناءَ ثُناءَ وثُلاثَ ثُلاثَ تصحبها المقاتلات وتتجه تلك الوجهة البغيضة، نحو الشمال. وما كانت مجموعة من ثلاث طائرات تكاد تحلّق حتى كانت مجموعة أخرى تتحرّك للوثوب. وكانت الغيوم تبتلعها الواحدة بعد الأخرى. أخذ المطار يفرغ. ثم سمعت ضجيج الآلة الكبيرة القوي فأبطأت دقات قلبي. كانت تلك النهاية، النهاية التي لا يمكن علاجها. ارتفعت بتثاقل وأدارت منقارها نحو الشمال ومضت مبسوطة الجناحين. مضت إلى الأبد. ومن الأفق الملبّد بضباب خانق كان قد ابتلعها ترامى إلي للمرة الأخيرة لهاثها المألوف الذي كان قد ابتعد وكأنه لا عهد لي به. هذا كل ما حدث. وبغتة غرق العالم في الصمت.

عندما سرّحت ناظريّ صوب النهر رأيت أنه لم يعد هناك شيء. كان هناك سهل عادي تحت مطر الخريف. لم يعد للمطار وجود. وكان حلمي قد انتهى.

سألتني جدتي التي وجدتني ورأسي مائل على حافة النافذة: «ما بالك يا صغيري؟»

لم أجب.

أبي وأمي جاءا أيضاً من الحجرة الأخرى وطرحا عليّ السؤال نفسه. وأردت أن أجيب ولكن فمي وشفتيّ وحنجرتي لم تطاوعني، وبدلاً من الكلام انخرطت في نشيج أجش لا يمت إلى البَشَر بصلة. ورأيت أبويّ يقطّبان تقطيبة فزع.

قالت جدتي وهي تمدّ ذراعها باتجاه أرض المطار الذي لا بدّ أن يكون الآن مزروعاً بمناقع الماء ومثلها من الجـراح: «السبب هـذا الشيء اللعين الذي لا أجـد سبيـلاً إلى النـطق باسمه.»

قال لي أبي بنبرة صارمة: «من أجل المطار أنت تبكي؟»

بدرت مني هزة رأس بالإيجاب فقطّب.

قـالت أمي: «أيهـا الأبله الصغيـر! وأنـا التي حسبتـك مريضاً!»

مكثـوا وقتاً طـويلاً في الحجـرة الكبيرة وهم يعـذبـونني بصمتهم. وعبثاً كنت أحاول خنق عبراتي. كان وجه أبي عابساً وكانت أمي وكأنها غائبة تماماً عن الوجود. وحدها جدّتي كانت تتحرّك خلف ظهري متمتمة بلا انقطاع: «يا إلهي! في أي زمن نحن! الأطفال يبكون من أجل هذه الأشيـاء التي تطيـر! تلك لعمري نُذُر تعسة!»

* * *

ما كان ذلك الحنين المنتشر في الفضاء الممتلىء مطراً؟ فهناك كان السهل المهجور مثقّباً بمناقع المياه. وكان يخيّل إليّ أحياناً أني أسمع صوتها. كنت أهرع إلى النـافذة، ولكني لم أكن أطالع في الأفق غير الغيوم التي لا غَناء فيها.

ربمـــا أُسقـطت وهي الآن تشكـــو الضنى فـــوق بعض الهضاب وهيكلا جناحيها مطويّان تحتهـا. رأيت ذات مرة في

السهل أطرافاً طويلة لطائر ميت. كانت عظامه نحيلة ومغسولة بالمطر. وكان جزء منها مغطى بالوحل.

أين يمكن أن تكون يا ترى؟

كانت تطير الآن في بعض الأحيان مِزقة من غيم فوق السهل الذي كان قبلاً متّصلاً بالسماء.

وذات يوم أعيدت إليه الأبقار. وكانت تتحرّك ببطء بقعاً بنيّة صامتة تبحث عن بقايا الأعشاب المتناثرة على أطراف المدْرج الإسمنتي. ولأوّل مرة أحسست بالكره لتلك البهائم.

لقد غيّرت المدينة المنهوكة الكئيبة اليد المهيمنة عليها مرات كثيرة. وكان الإيطاليون واليونانيون يتعاقبون عليها. ووسط اللامبالاة العامة كان يُبدَّل العلم والعُملة. ولا شيء أكثر من ذلك.

* * *

مقطع إخباري

. . . تبادل النقود، لم يعد من سوق لِـ«اللك» الألباني ولا لِ «اللير» الإيطالي. ستكون العملة القانونية الوحيدة من الآن فصاعداً هي الدرخما اليونانية. حُدّدت مهلة الصرف بأسبوع. فتحت أمسِ أبواب السجن. بعد أن شكر الموقوفون السلطاتاليونانية ذهب كل منهم في سبيله. آمر منذ اليوم بإلغاء «التعتيم». أُعلن الأحكام العُرفية. يمنع التجوّل من السادسة مساء إلى السادسةَ صباحاً. قائد المدينة: «كاتنتزاكيس».

ولادات. زيجـات. وفـيـات. يسرّ «د. كـاسـوروحـو» و«ا. غرابشي» أن يعلنا ولادة ابنيهما.

مقطع إخباري

... مُرُ: بإعادة «التعتيم» إلى المدينة بأسرها. آمربالغاء الأحكـام العُـرفيـة. آمـر بـإعـادة تشغيل السجن. على جميـع الموقوفين سابقاً أن يعودوا إلى السجن لقضاء أيـام عقوبتهم. قائد المدينة «بـرونو ارسيفوكال». أسرعوا إلى صرف نقودكم. لم يعـد من سوق للدرخمـا اليونـانية. العملتـان القـانـونيتـان الـوحيدتـان هما «اللك» الألبـاني و«اللير» الـطليـاني. لائحـة الـقتـلى في قـصف أمسِ: «ب. دوبـي» و«ل. مقـصـودي» و«س. كاليفوبولي» و«ا. فيتسو» و«ز. زازاني» و«ل.»

* * *

٩

في الأسبـوع الأول من تشـرين الثـاني (نـوفمبر) غـادر الطليان المدينة بعـد أربعة أيـام من إخلاء المـطار. بقيت بلا سلطان. واستمـرت هذه الحـالة أربعين سـاعة. وفي السـاعة الثانية صباحاً وصل اليونانيون. مكثوا سبعين ساعة من غير أن يراهم أحد تقـريباً. ظلت جميـع مصاريـع النوافـذ مقفلة. لم يخرج أحد إلى الشارع. وكان اليونانيون أنفسهم على ما يبدو

لا يسيرون إلا ليلاً. ويوم الخميس في الساعة العاشرة صباحاً رجع الطليان تحت مطر بارد. وبعد ثلاثين ساعة فقط عادوا أدراجهم. وبعد ست ساعات ظهر اليونانيون من جديد. وفي الاسبوع الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) تجدّدت تلك العملية. رجع الطليان. وفي هذه المرة ظلوا نحو ستين ساعة.

وما كاد الايطاليون ينقلبون حتى هرع اليونانيون. أمضوا نهار الجمعة بطوله ومساءه في المدينة، ولكن هذه استيقظت صباح السبت وقد هجروها تماماً. كانوا قد ذهبوا. منذا يعلم لماذا لم يعد الطليان أبداً؟ ولا اليونانيون. هكذا مرّ السبت والأحد. وصباح الاثنين سُمع وقع أقدام في الشارع الذي لم يُسمع فيه خطو إنسان منذ عدة أيام. وفتحت النسوة بحذر مصاريعهن على كلا جانبي الطريق. كان السائر «لوقان صديق الظلّ». وربما كان عائداً إلى بيته وغطاؤه القديم البنيّ على كتفه وفي يده منديل حوى خبزاً وجبناً.

قالت له امرأة «بيدو شريف» من نافذتها: «ايه لوقان؟»

أجاب «لوقان» مشيراً بيده نحو القلعة: «كنت هناك فوق، كنت أثبت وجودي. ولكن ما الفائدة! السجن لا يعمل.»

كان في صوته شبه حزن. لقد قطع تبدّل السلطات المتكرّر مدة سجنه وكان يبدو منزعجاً.

ـ آه، ليس هناك يونانيون ولا طليان.

قال «لوقان» بنبرة هائجة:

ـ لا أعرف لذلك فرقاً. كل ما أعرفه أن السجن لا يعمل. ليس فيه نفس واحدة. أبوابه مشرعة. إن المرء ليبكي لحاله.

طرح عليه أحدهم سؤالاً آخر فلم يجب عنه. وأخذ يكيل الشتائم. «عهد قذر، بلد قذر! إنهم لا يحسنون إدارة سجن كما ينبغي. لعلهم يظنون أني أملك الوقت للصعود يومياً إلى أعلى القلعة والعودة بخفي حُنيْن. الأيام تمضي ولا أستطيع أن أقضي مدة حبسي. ثم إن كل المشاريع التي يحضّرها الانسان تذهب أدراج الرياح. إن من يقول إن ايطاليا قذرة لا تنفع لشيء لعلى حق. آه! حين أفكر في ما قاله لي رفيق عن السجون في سكاندينافيا. تلك حقاً سجون! تُدخل ويُخرج منها على أحسن وجه. بالآجال المسمّاة وببطاقات حسنة التنظيم. الأبواب فيها لا تُفتح لأي أمر كما يجري في ماخور!».

أغلقت النساء الواحدة بعد الأخرى نوافذهن لأن «لوقان» بدأ يتلفّظ بعبارات فاسقة. أم «عكيف كشاه» التي كانت صمّاء بقيت وحدها في نافذتها وكانت تجيب عما كانت تظن أنها تسمع.

«صحيح. أنت على حق بأن تغضب يا صغيري. إنك لم تعرف يوماً سعيداً واحداً. أمضيت حياتك كلها تتعفّن في السجن. تأتي الحكومات وتذهب وأنت قابع في الظل».

ابتعد «لوقان» وعاد الشارع مقفراً. اجتاز هرّ «نازو»

السمين الشارع بسرعة. كانت هـرّة الأم «بينو» الجـديدة التي تسلقت السقيفة تنظر اليـه. وحوالي الظهر مّـرّ كلب مجهول. وبعد الظهر لم تُر في الشارع نفس حيّة باستثناء دجاجة.

وفي صباح اليوم التـالي اقتنع جميـع الناس وهم يـرون «لـوقـان صـديق الـظل» راجعـاً من السجن وهـو يشتم ويلعن وغطاؤه ملقى على عاتقه وفي يده المنديل المحتوي على خبزه أنهم مُقبلون على حقبة سيكونون محرومين فيها من كل سلطة.

فُتحت أول الأبواب. وأخذ الشارع ينتعش شيئاً فشيئـاً. بعضهم اندفعوا نحو قلب المدينة. كان مقهى «أديس أبابا» قد أعيد فتحه. وفي الساحة كانت الريـح تدفـع كيفما اتفق بقـطع الصحف الممزّقة. وكانت تقبع هنا وهناك مشتّتـة علب أطعمة محفوظة فارغة. وكان مبنى المحافظة بأبوابه ونـوافذه المغلقـة كئيب المنظر. وكان بعض المتسكّعين يحومون حـول صناديق فارغة مهملة تحمل عبارات بأحرف لاتينيـة أو يونـانية. وعلى قاعدة النُصُب الوحيد في المـدينة كـانت ملصوقـة بعضها إلى جانب بعض الاعلانات الموجهة إلى السكان من قائد المدينة الايطالي وقائدها اليوناني. وكانت الاعلانـات نصف ممزّقـة. وكان رجل مهتماً بجمع بعض قطعها إلى بعض: «كزاكيس»، «كات»، «ن س». كانت ياقة سترته مرفوعـة، وكان يهـزّ رأسه هـزّاً كثيراً متضـايقاً على مـا يبدو من عـدم تمكّنـه من تـأليف الكلمات بشكل كامل. وكـانت الريـح الباردة تقتلع من يـديه قطع الاعلانات.

كانت تلك الاعلانـات الممزقـة أشلاء بـالريـح والمطر الشيء الوحيد الباقي من قلق الأيام الأخيرة. كانت المدينة بلا سلطان. لقد فقدت إلى أجـل غير مسمّى الـطائرات وبـطارية المدافع المضادّة وصفّارة الخطر والماخور والمصباح الكشاف والراهبات.

وإذ كانت قد جذبتها المغامرة بعض الوقت فقد عـرفت طعم السماء والأخطار الدولية وأطاشها هذا كله، ثم إنها عادت الآن فـانزوت في أحجـارها القـديمـة العهـد. لقـد انقـطعت روابطها بالسماء إلى الأبد. وكان المطر والريح يحاولان إماتة الاحساس في أعصابها الهائجـة. كانت وكـأنها منـذهلة. لقد أنكرتها الطائرات المجهـولة التي كـانت تطيـر فوقهـا أو كانت تتظاهر بعدم رؤيتها. كانت تطير على ارتفاع عالٍ غير مخلّفـة سوى هرير ينمّ عن الازدراء.

وذات صبـاح خرجت الأم «بينـو» إلى الشـارع بعـد أن أحكمت إغلاق بابها وراءها. وسألتها امـرأة «بيدو شريف» من نافذتها: «إلى أين أنت ذاهبة أيتها الأم «بينو»؟

- إلى عرس.

- إلى عرس؟ ومنذا الذي يفكر في الزواج في مثل هذه الأيام؟

- يتزوجون، يتزوجون. يتزوج الناس في كل حين.

كـان ذهـاب الأم «بينـو» إلى عـرس دليــلاً على تكيّف المـدينة وغيـاب السلطة. بيد أن تلك الأيـام لم تكن مُطَمْئِنـة

مثلها مثل كل فترة انتقالية. كانت قواعد العيش مضطربة. ولم تكن المحكمة تعمل. ولا الجريدة تصدر. ولم يكن على جدران المحافظة تنبيهات ولا إعلانات ولا أوامر. وكانت أخبار الداخل تُتناقل فقط من فم إلى فم. وكان مصدرها الرئيسي عجوز مجهولة حتى ذلك الحين سرعان ما شاع اسمها في هذه الأيام التي لا ملامح لها. كانت تدعى «سوز»، ولكن معظم الناس كانوا يدعونها العجوز «أم أخبار».

كان يهيم في المدينة الموقوفون الخارجون من السجن، وبعض الجبليين المريبين، وبعض الوجوه التي لم تسبق رؤيتها قط. كان كل شيء مقلقاً ومختلطاً. وكانت الساحات والأزقة والأعمدة تحتفظ بسرّها في حذر شديد. وكان حذر الأبواب جليًّا. وكانت النهارات باردة رجراجة. المداخن وحدها كانت تعيش بنشاط وحميّة. وعندها عادت «دجدجو» إلى الظهور في بيتنا. كان للقرعات على بابنا فعل ضربات المطرقة على رأسي. كنت أريد الاختباء، الاختفاء، ولكن ذلك كان مستحيلاً. كانت ترقى الدرج وهي تتنفس بمشقّة. وكانت التخوّفات واغتياب الناس والأخبار تتراكض سابقة إيّاها وكأنها هُريرات سوداء. وكان يسقط في يدي. قالت جدتي: «هه، دجدجو»! وقالت أمي: «هه، «دجدجو»! وقال لها أبي: «كيف حالك؟ أين كنت كل هذه المدة؟»

لم تجب «دجدجو». وتوجهت بحديثها كالعادة إلى جدتي: «أرأيت يا «سلفيدجي»، أرأيت ما بعث الله إلينا؟ لقد

سبق أن قلت لك إن ماء أسود سيتفجّر من الأرض. وها هوذا قد تفجّر. هل رأيت الثقوب التي أحدثتها القذائف في «هازمورات»؟ وفي «مسيت»؟ وفي «بالورتو»؟ كان هناك ماء أسود في كل مكان.

وسألت أمي بصوت خافت: «ما ذلك الماء الأسود؟»

ـ عندما تحفر القنابل حفراً كبيرة في الأرض يخرج منها ماء أسود.

واستأنفت «دجدجو» بصوت هازىء متوعد: «ولكن هذا الشعب لا يرعوي. هل علمت؟ لقد سُرقت ذراع الانكليزي من ذلك المتّ. . . كيف يسمونه؟

قال أبي «مُتحف».

ـ أجل، لقد سرقوها يا عزيزتي «سلفيدجي». بلا زيادة ولا نقصان.

سألت أمي: «ولكن من؟ ولأجل ماذا؟»

أعولت «دجدجو»: «ناشدتك الله، لأنهم مسكونون بالشيطان يا حلوتي. لأنه زمن الخبث. كل شيء يتم بالمقلوب الآن. لقد رمانا الله بذراع انكليزي وانتظري الآن أن تسقط على رؤوسنا شعور ألمان ولحى صينيين وأظافر يونانيين ويهود. . .»

تكلمت «دجدجو»، تكلمت وما كانت لتكفّ. وبقيت بعيداً وأذني متنبّهة. وكنت أحاول أن أتخيّل كيف يمكن أن تسقط تلك النداثف من الأظافر والشعور واللحى والأنوف. وما إن ذهبت «دجدجو» حتى كنت أسأل جدتي.

كان «مقصود» ماراً في الشارع. كان يحمل تحت ذراعه رأساً ظننت أني أعرفه. وكان قد مرّ وقت طـويل دون أن أرى زوجته الجميلة. وكان ينبغي الانتظار حتى الربيـع لكي تظهـر على عتبة بابها. ولا بد أن يكون الآن قد تجمّع عندهم هرم من الـرؤوس المقطوعـة كالتي كـان يجمعها جنكيـزخـان. من ذا يـدري مـاذا كـانت تفعـل «. . . غـريت»؟ (رجـع إلى ذهني مـظهرهـا ووجهها واسمهـا مبتورة كـرغيف من الخبز قـرضتـه الجرذان).

ذهبت «دجـدجـو». انصبت الشكـوك عن سـرقـة ذراع الانكليزي أولاً على «كاني كيكيزي» ثم على مسجّل الوقائـع «زيفـو غـافـو». وكـان آخـرون يشكّـون في مُهـرِّب من حي «فاروش». وسرت شائعة بـأنه بـاع الذراع إلى ديـر قائم على سفح الجبل الآخر.

كانت المدينة مشغولة بعدد من الأمور لا أهمية لها. لقد كان ذلك الوغد «لام سبيري» يهيم في الطرقات سكران متحرّقاً على الماخور. كـان يقول وهـو يكاد يبكي: «أقفَلوه، أقفَلوه! بيتي الدافىء جداً، عشّي الصغير المبني بالريش! أقفَلوه لي! كيف أفعل أنا التعس؟ إلى أين سأذهب للالتجـاء في أمسيات الشتاء هذه؟»

وكان «لوقان بورغماظي» ينضمّ إليه من حين إلى آخر. وكان يردّد بـطريقة آليـة: «بيتي الدافىء جـداً، عشّي الصغير المبني بـالريش!»

وكانت النسوة العجائز يصرخن فيهما: «انصرفا عنا من هنا، ألا تخجلان؟»

وكان «لام سبيري» يغمغم تائهاً وهو يرسل القُبَل بيده في الهواء إلى العجائز: «يا عشّي الصغير الذي فقدته! يا شمسي!»

ـ اختفِ يا تافه. لتكنسك الصاعقة عن وجه هذه الأرض!

ـ فقدت الرجاء في نار النجوم؛ أشك في أن تتحرك الشمس!

وكرّر «لوقان»: «أشك في أن تتحرك الشمس!»

ـ ليمحقكما الله كليكما!

كانت في الحقّ فترة لامبالاة. وكان المرء يشعر بأن الكائنات والأشياء تزحف. وكانت الأبقار قد عادت ترعى فوق أرض المطار. وكان «دينو تسيتسو» قد قطع أبحاثه. كان خياله ينضب.

وسعت المدينة في هذه الحقبة من الوَسَن إلى إعادة العلاقة مع العالم كرّة أخرى. وقد حاولت ذلك بواسطة مدفع القلعة المضادّ القديم.

كان المدفع القابع في البرج الغربي من القلعة منذ أيام المَلَكية يُرى من جميع زوايا المدينة. وكان أنبوبه الطويل الذي يبدو متعباً قليلاً موجّهاً باستمرار نحو السماء. وكان شيئاً مألوفاً وعزيزاً على جميع السكان شأنه شأن جارته الساعة القديمة

المثبتة إلى البرج الآخر القريب جداً. ولكن الناس كانوا قد نسوا تقريباً على مرّ الأيام وظيفة هذا الأنبوب الطويل والأيدي المحرِّكة والتروس واللوالب القائمة عند أسفله. فمنذ عهد تدشينه (كان المسنّون يذكرون جيداً الحفل الذي أقامته البلدية والخطب الوطنية والموسيقى النحاسية وزجاجات البيرة و«لامتش الغجري» الذي كان قد أفرط كثيراً في الشراب فاندفع من أعلى أسوار القلعة وتهشّم على الطريق) لم يكن المدفع المضادّ للطائرات قد انطلق سوى مرّة.

في بداية الغارات، عندما لبد الناس في الأقبية بعد الهيزعة الأولى، أشعل ذلك السلاح في أعماق ضمائرهم ومضة أمل ضعيفة. وتذكروا أن هذا الأنبوب الطويل وتلك الروافع والأجهزة التي يدعونها مدفعاً مضادًّا للطائرات قد صمّمت بالضبط لمثل هذه الأيام. وكما لو أن الأمر وحي أخذ الجميع يتساءلون، بعضهم بدهشة وبعضهم بغضب.

ـ ومدفعنا المضادّ للطائرات؟ لماذا لا ينطلق؟

ـ صحيح، إن لمدينتنا مدفعاً. لماذا لا يُسمع صوته؟

كانت أول خيبة أمل أثارها إخلال مدفعنا المضادّ بواجبه مُرّة، ولا سيما عندنا نحن الأولاد. وعندما خرج الناس من الأقبية التفتوا بأبصارهم نحو البرج الغربي حيث كان أنبوب مدفعنا يتراءى في السماء.

وبعد الظهر عُلمت الحقيقة عن صمته: كان فيه خلل ما. وفي المساء بالذات انكبّ ميكانيكيو البلدية على

إصلاحه. وفي صباح اليوم التالي كانت النسوة يساءل بعضهن بعضاً من النوافذ:

ـ هيه، هل أصلحوه؟

ـ لا، لم يصلحوه بعد.

ـ ولكن لماذا يا ترى؟

كـان ذلـك السؤال يجـري على جميـع الأفـواه. وكـان الخلل فـادحاً على مـا يظهـر. في تلك الآونة وصلت بـطارية المدافع المضادّة التي كان من شـأنها أن أسقـطت أول طائـرة انكليزية. وبعد يومين انطلق مدفعنـا للمرة الأولى. كـان فرح الجميع، ولا سيما فرح الأولاد، لا يوصف. فبخلاف رشقات البطارية كان دوي مدفعنا المضادّ فريداً وقوياً. كـان فيه شيء ملكي حقاً.

ولكنه لم ينجح في ذلك اليوم، ولا في الأيام الباقية، في إسقاط أي طائرة. وعندما التقينا في القبو قال لي «ايلير»: «إنه مهـول، سوف يسقط اليـوم واحدة.» ولكن شيئـاً من ذلك لم يحدث. وكان الحزن يستولي علينا كل يوم ونحن خارجـون. وكنا نقترب من البالغين لنصغي إلى ما يقولون. وكان ما نسمعه منهم مثبّطاً. لم يكن لهم ثقة به. وكانوا يردّدون بغمّ بعـد كل قصف جديد: «إنه قديم جداً لإسقاط الطائرات الحالية.»

خلال الأسابيع الأخيرة، وبينما كانت المدينة تبدّل عدة مرات أولياء أمرها، أخطأ مدفعنا جميع طلقاته. وعنـدما كـان الطليان يحتلّون المدينة كان يطلق على الطائرات الانكليزية.

ثم عندما استولى اليونانيون عليها اتّخذ من الطائرات الطليانية التي كانت تأتي أربعاً أربعاً لقصفنا غرضاً له. ولم يكن أحد من المحاربين يلمسه أو يتعرّض له وهو عائد. كانت الإخلاءات تتمّ بسرعة فائقة وببلبلة كبيرة، ويبدو أنه كان من الصعب على تاركي المدينة إنزال المدفع الثقيل من قمة القلعة. وربما كانوا ينسونه في هلعهم أو يتظاهرون بنسيانه واثقين من أنهم سيجدون ذلك العجوز لدى عودتهم في المكان الذي تركوه فيه وبالهيئة التي تركوه عليها.

في أحد الأيام التي كانت فيها المدينة خلواً من الحكم رؤيت طائرة مجهولة تبرز في السماء آتية من ناحية لم يسبق أن أتت منها أية طائرة. ربما كان ذلك الطيار الطائش الذي رمى فوق المدينة قبل أسبوع مناشير باللغة الألمانية موجهة إلى «مواطني هامبروغ».

في الأيام الأخيرة كان ظهور طائرات ضالّة في سمائنا ظاهرة رائجة. كان لا بد أن تكون قد ضلّت بعد إحدى المعارك أو تظاهرت بأنها أضاعت طريقها وهي تطير باتجاه العدو. وإذ كانت تنحرف عن خط السير المقرّر لها فإنها كانت تنتهز أول فرصة، ولا سيما حين يكون الجو رديئاً، فتترك رفيقاتها وتأخذ بالتحويم في السماء بلا هدف مدّة موافقة لزمان مهمّتها. كان سلوكها مثل سلوكنا تقريباً. حين كنا نتهرّب أحياناً في الصباح من الذهاب إلى المدرسة وننتظر ساعة الغداء للعودة إلى بيوتنا.

كانت الطائـرة المجهولـة تحلّق على مهل بـادية العيـاء وكـأنها مَغيـظة. كانت بـالتأكيـد قد اشتـركت في معـركـة من المعـارك على الرغم من أن النـاحيـة التي جـاءت منهـا كـان مشكوكاً فيها. وبعد ذلك كان الناس يفترضون وهم يحاولـون تفسير السبب الذي دفع بالطيار الـطائش فجأة إلى إلقـاء قنبلة علينا أنه وقد تنبه إلى أنه قد بقيت معه واحدة (كان الطيـارون الضالّون يرمون بقنابلهم في العادة بعيداً داخل الغابات أو على الجبال) قال في نفسه وهو يحلّق فوقنا: «ماذا لو تـركتها تسقط على هذه المدينة التي لا أعرف حتى اسمها.» ورماها.

ولكن المدينة لم تتحمّل تلك الضربـة في هذه المـرة. وكان أنبوب المدفع المضادّ يهيج خيالها في أيام الفتور الطويلة هذه. وكانت الرغبة في التدخل من جديد في أمور السماء تجترّ النعاس في داخلها متأهبة للاستيقاظ. وعندما كـانت طائـرات مجهولة تحلّق فوقها كان الإغراء بإصابة الدخلاء يغدو شـديداً بشكل استثنائي.

كان ذلك النهار من النهارات النادرة التي كنا نخرج فيها للعب. وكنّا قد أوغلنا بعيداً بعض الشيء، إلى أسفـل القلعة حيث كان ينتصب متوحّداً بيت المدفعي «عبده بابا رامو». وكان الأب «عبده» كثيراً ما يقصّ الأقاصيص عن الحرب في القبو أو في المقهى، وعلى الرغم من أنه لم يسبق لنا قط أن رأينا في يده سوى بعض القرع والقثّاء، ولم نـر أبداً قـذائف، فإنـه لم يكن أقل اغتباطاً بالاحترام الذي كنا نبديه له جميعاً.

كنا نلعب بالضبط أمام بابه عندما سمعنا صوت محرّك. وتوقف بعض المارّة ورفعوا أيديهم إلى جباههم وكأنها واقيات الخوذات وأخذوا يبحثون بعيونهم عن الطائرة. قال أحدهم: «ها هي، ها هي!»

ـ لكأنها طائرة إيطالية.

ظهر الأب «عبده» وامرأته في نافذتهما. وتوقف مارّة آخرون للنظر.

كانت الطائرة تطير على مهل. وكان هريرها يصل إلينا في ذبذبات ثقيلاً متفرّداً. كان الناس في الشارع صامتين. ثم التفت أحدهم فجأة إلى نوافذ «عبده بابا رامو» وناداه قائلاً: «أيها الأب عبده، لماذا لا تطلق مرّة مدفعنا القابع فوق؟ أطلق على هذا الخنزير المحوِّم حولنا!»

سرت غمغمة في المحتشدين. وأخذت قلوبنا نحن الأولاد تخفق من الفرح. وقال صوتان أو ثلاثة: «أجل، أطلق عليها أيها الأب عبده!»

قال الأب «عبده» من نافذته بوقار: «ما الفائدة من الاهتمام بها، لتذهب حيث شاءت».

وقلنا جميعاً في صيحة واحدة: «أطلق عليها أيها الأب عبده!»

قال أحدهم: «اخرسوا أيها الأوغاد! كفى ضجيجاً!»

ـ ولماذا عليهم أن يخرسوا؟ إنهم على حقّ كلّ الحقّ.

ـ عبده! أطلق على الطائرة! المدفع هناك بالانتظار. إنه لا ينفع لشيء.

قال «هاريلا لوقا» الذي كان في الحشد: «لماذا نناصبها الخصام؟ الأفضل تركها تكمل طريقها؛ سوف نغضبها، وهي قادرة على تحويلنا إلى عصيدة.»

ـ يكفينا ما قاسيناه يا ولدي.

غام وجه «عبده بابارامو» في بادىء الأمر ثم التهب شيئاً فشيئاً. أشعل سيكارة. صاح «ايلير» وهو يكاد يبكي: «أسقطها أيها الأب عبده!»

فجأة انفصل عن بطن الطائـرة شيء قاتم، ومـا هي إلا لحظات حتى سمعنا انفجاراً.

عندها حدث أمر رائع كنا نظنه مستحيلاً. أخذ الحشـد المغضب يصرخ بصوت واحد تقريباً: «أطلق عليه أيهـا الأب عبده، أطلق على الكلب!»

كان الأب «عبده» قد خرج إلى عتبة بابه. وكانت عينـاه تقدحان شرراً. وأخذ يجرض بريقه بلا توقف. وظهرت خلفه امرأته مذعورة. كانت الطائرة تحلّق على مهل فوق المدينـة. وشيئاً فشيئاً، ومن غير أن يشعر، وجد الأب «عبده» نفسه وسط الجمهور الذي كان يدفع به إلى الشارع المؤدي إلى القلعة.

كان يُسمع من كل صوب: «أطلق، أطلق عليها!»

كان برج المدفع المضادّ مشرفـاً على الطريق. وهـا قد ولج الأب «عبده» الـذي أصبح الآن على رأس المـوكب باب القلعة.

وأخذنا نحن الأولاد نصرخ: «بسرعة أيها الأب عبده. بسرعة، إنها تولّي!»

لم يسمح لنا بدخول القلعة. ظللنا في الخارج نصفق بأيدينا نَزَقاً لأن الطائرة كانت تبتعد نحو الجبال. ورافقها الجميع بصيحة: «إنها تولّي، إنها تولّي!»

ولكن الطائرة انحرفت فجأة وغدت الآن تقترب منا. وكان يبدو حقاً أنها تطير من غير هدف.

وفجأة انفجرت أصوات من بعيد:

ـ نظّارتيه، نظّارتيه!

ـ بسرعة! نظارتيه!

ـ نظارتي الأب «عبده»!

هبط أحدهم كالمجنون إلى أسفل الشارع وعاد بعد برهة فصعد بالسرعة نفسها وفي يده نظّارتا الأب «عبده». صاح أحدهم:

ـ سيطلق!

ـ إنها تقترب.

ـ تقترب مثل حَمَل المسلخ.

ـ هيّا إذن أيها الأب «عبده»، ولتجعله يدوي!

انطلق المدفع المضادّ. ولم تكن صيحاتنا أقل حدّة من دويّه. وأحسسنا أن قلوبنا تكاد تنفجر فرحاً. كان الجميع الآن، حتى النساء العجائز، قد أخذوا يصرخون.

وانطلق مرة ثانية. وكنا نتوقّع أن تسقط الطائرة من الطلقة

الأولى، ولكن شيئاً لم يكن. واستمرت تطير على مهل فوق المدينة. وشعرنا وكأن الطيار كان قد أغفى. لم يكن مستعجلاً.

وعندما انطلقت الطلقة الثالثة كانت الآلة فوق الساحة الكبرى. وصاح صوت أجش: «سوف يسقطها الآن، إنها تماماً تحت أنفه.»

ـ أطلق على الكلب!

ـ أطلق على ابن العاهرة هذا!

ـ أطلق، يا أخي أطلق!

ولكن الطائرة لم تُصب. وأخذت تبتعد إلى الشمال. وأطلق المدفع بعدُ عدة طلقات قبل أن تصبح الطائرة نهائياً خارج نطاق مرماه. قال أحدهم: «آه! لم يُحسن الأب «عبده» تدبير أمرها».

ـ ليس الذنب ذنبه. إنه متعوّد على المدافع القديمة.

ـ سأل «ايلير»: «على مدافع تركيا؟»

ـ ربّما.

تنهّدنا. كانت حلوقنا جافّة.

انطلق المدفع أيضاً، ولكن الطائرة كانت قد أصبحت الآن بعيدة جداً. وكان في طيرانها لامبالاة بشعة. قال أحدهم: «إنه يولّي، الكلب!»

كانت عينا «ايلير» منتفختين بالدمع. وأنا أيضاً. وعندما أطلق المدفع قذيفته الأخيرة وبدأ الناس يتفرّقون انخرطت صبيّة بالبكاء.

نـزلت الزمـرة التي كانت قـد صعدت إلى البـرج. كان الأب «عبده بابارامو» على رأسها. كان شاحباً. وبيد مرتجفـة كان يجفّف جبينه بمنديله. كانت عينـاه تدوران زائغتين حـوله ولا تتوقّفان عند أية نـاحية. وجـاءت زوجته للقـائه وهي تشق الجمـوع. صـاحت: «تعـال يـا حبيبي. تعـال واستلق فـأنت منهك. لا تُعملُ مثلُ هذه الأمور مع قلبك الخائر. تعال.» أراد أن يتكلم ولكنه كان عاجزاً عن الكلام. كان ريقـه قد نشف. ولم يتمكن من الكلام إلا بعد أن اجتاز عتبة بابه، فقـد التفت وهو يصطنع ابتسامة وقال بمشقة: «لم يكن ذلك مكتوباً!»

انفضّ النـاس. وكرّر المـدفعي وهو يجيـل ناظـريه في الحضور جميعاً وكأنه يطلب موافقتهم قبل أن يذهبـوا ويتركـوه وحده مع هزيمته: «لم يكن ذلك مكتوباً!»

قال له صبي: «لا تغتمّ أيها الأب «عبده». لسوف نطلق نحن ذات يوم. وتأكد أننا لن نخطىء ضربتنا».

أغلق الأب «عبده» بابه.

تفرّق الناس.

* * *

حديث العجوز «سوز»

(بسبب غياب الأخبار)

مفـاصلي تؤلمني. سيكون شتـاء قاسيـاً. هناك حـرب، حـرب قاتلة في كـل مكان، ممتـدّة حتى بلاد «الإمبـراطوريـة السماوية» حيث النـاسُ صُفْرٌ. الإنكليـز يبعثون أوراقـاً نقديـة

وذهباً إلى جميع البلاد. ستالين ذو اللحية الحمراء يدخّن الغليون ويتأمّل ، يتأمّل. إنه يقول: «تعرف كثيراً عن الأمر أيها الإنكليزي، ولكني أعرف عنه بقدر ما تعرف. » لقد كانت «مينور هانم» تقول للعجوز المسكينة «هنتشه»: «أوه! أيتها الأم «هنتشه» متى ستنتهي هذه الحرب مع اليونان؟ إني أتحرّق شوقاً إلى حنكليس من بحيرة «جانينا». وقالت الأخرى: «إسمعي أيتها الجنية الشريرة. إن أولادي يموتون جوعاً وحضرة السيدة تحكي لي عن حنكليس «جانينا»!» وتبادلتا الشتائم: وضيعة، حقيرة، طليانية، يا صفتك يا نعتك! سوف يغرَّم «عبده بابا رامو» بعد عودة المحافظة إلى العمل لأنه استخدم المدفع بلا ترخيص من السلطات. يقال إن الحرب مع اليونان ستضع أوزارها قبل سقوط الثلوج الأولى على الجبال. كنّة آل «كاليج» حبلى مرة جديدة. وكنتا آل «بوز» حبليان هما أيضاً وفي شهرهما التاسع كما لو أنهما كانتا قد نسّقتا معاً للأمر. العجوز «حوّا» طريحة الفراش. وقد قالت: «لن أعيش الخريف». «كاظمة» المسكينة ماتت أخيراً هي الثانية. لِيَطِبْ مثواها.

١٠

في اليوم التالي أمطرت طوال النهار. وكانت المدينة بعد هزيمتها في العشية راقدة وكأنها طائشة بسطوحها وأفاريزها المتدلّية المبلّلة. وكان الحزن يقطر على صفائح الحجر. وإذ

كان حزناً قاتماً فقد أخذ يتجدّد بلا انقطاع تغذيه دكنـة السماء العريضة.

وفي صباح اليوم الذي تلا استيقظت المدينة وقد احتُلّت من جديد. كان اليونانيون قد عادوا. وكانت بغالهم ومدافعهم وعُدَدهم تُرى هذه المرة في كل مكان. وكـان اللواء اليونـاني يرفرف على برج السجن في أعلى السارية المعدنيّة حيث كان معلّقاً قبلاً العلم الإيطالي المثلّث الألوان. وكـان من الصعب تمييـزه في البدايـة. فقد كـانت الريـح تهبّ من غير مهـادنة، ولكنها لم تكن تهبّ قطّ باتجاه يسمح له بالانتشـار مواجهـةً. وحوالي الظهر، عندما غيّرت الـريح اتجـاهها وعـادت السماء تمطر، ارتسم في النهاية على الحريـر المُتعَب الصليبُ الكبير الأبيض.

وتـأوّهت جدّتي قـائلة: «كان ينبغي إذن أن أحيـا بهـذا القدر من الشيخوخة لأتعرّف أيضاً على جزمة اليونانيين. لماذا لم أمت في الشتاء الماضي!»

كنا نحن الإثنان وحدنا في غرفة الاستقبال. ولم أكن قد رأيت قطّ في عينيها وفي جميع قسماتها مثل هذا القنوط. ولم أجد ما أقوله لها. وسحبت من جيبي زجاجة النظّارة الصغيـرة وحملتها إلـى عيني. انتصب الصليب الكبير هائجاً هناك على برج السجن. وغدا واضحـاً متغطرسـاً؛ رسماً على قـطعة من الحـرير. ولكنني أخـذت أتساءل كيف يمكن أن يثيـر خـطّان مرسوم أحدهما فوق الآخر على قطعة قماش مثل هـذا الأسى

الكبير. لقد كانت قطعة من القماش تعصف بها الريح تُغرِق مدينة بأكملها في الوجوم. كان ذلك غريباً.

ولم يكن من حديث في جميع البيوت ذلك المساء إلا عن اليونانيين. كان الناس يتوقّعون أموراً مروّعة. فقبل سنين طويلة، قبل المَلَكية، وحتى قبل الجمهورية، كان اليونانيون قد احتلّوا المدينة بضعة أسابيع. ولقد وقعت مذابح كبرى. وفي ذلك الوقت أيضاً كان هذا العلم نفسه ذو الصليب الأبيض مرفوعاً كما الآن على برج السجن. وإذ كان العلم قد عاد فمعنى ذلك أن كل الباقي سيتبع.

ظلت نافذة «زيفو غافو» الصغيرة مضاءة حتى ساعة متأخرة من الليل. وظنّ جيران مسجّل الوقائع العجوز أنه كان مشغولاً بوصف دخول اليونانيين. ولكن ينبغي أن يعلم الناس فيما بعد أنه لم يخصّص للأمر في وقائعه سوى جملة واحدة: «في الثامن عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) دخل اليو. . . المدينة». وما كان في وسع أحد أن يفسّر مثل هذا الشّح في الكلمات عن مثل هذه النكبة، وأقل من ذلك أن يفسّر أنه لم يذكر جموع اليونانيين باسمهم الكامل.

وفي الصباح كان الصليب لا يزال هناك فوق مهيمناً على المدينة. لقد كان رمز الشّر قد رُفع. وكان الناس ينتظرون أسوأ الأمور.

بدأ اليونانيون يذرعون الشوارع ببزّاتهم الكاكية. وعادت الإعلانات الموقّعة «كتنتزاكس» إلى الظهور في ساحة المدينة.

وامتلأت المقاهي بالكلمات اليونانية. كانت دقيقة ورهيفة وملأى بحروف «س» و «ث» القاطعة وكأنها شفرات المواسي. وكان جميع الجنود يتقلّدون الخناجر. كانت الخيانة تلوح في الجو. وكان الناس بانتظار المذبحة. ولسوف ينبغي غسل المدينة بخراطيم اطفاء الحريق. ولكن السماء كانت تمطر. وقد لا يكون هناك من حاجة إلى تلك الخراطيم.

في اليوم الأول لم يقترفوا أية مذبحة. ولا في الثاني. وألصقوا على أحد جدران الساحة إعلاناً كبيراً كُتب عليه «فوريو أبير». وكان القائد «كتنتزاكس» يذهب للغداء أو العشاء عند بعض العائلات المسيحية الغنيّة.

أطلق عريف يوناني عدة طلقات من بندقية، ولكن أحداً لم يصب بأذى.

لقد أصاب فقط فخذ التمثال الوحيد في المدينة. كان تمثالاً كبيراً من البرونز نُصب في الساحة المركزية من عهد المَلَكية. وقبلها لم تكن المدينة قد عرفت تمثالاً قطّ. وكانت التماثيل الوحيدة التي تقلّد صورة الإنسان تنحصر في الفزّاعات المنتصبة في الحقول الممتدّة وراء النهر. وعندما أُعلن عن النيّة في رفع تمثال أبدى عدد كبير من أهل المدينة المتعصّبين الذين كانوا قد ابتهجوا كثيراً للمدفع المضادّ للطائرات بعض الشكّ. إنسان من معدن! أيكون مثل هذا العمل ضرورياً؟ ألا يكون عنصر تكدير؟ ففي الساعات التي ينام فيها كل الناس بأمر الله سوف يبقى التمثال منتصباً. وسيبقى منتصباً ليل نهار،

شتاء وصيفاً. الناس يضحكون ويبكون ويأمرون ويموتـون في حين لا يفعل هو شيئـاً من ذلك. سـوف يبقى هناك أخـرس. ومعلوم تماماً أن السكوت مريب.

وكاد النحّات الآتي من «تيرانا» لتفحّص الموضع الـذي ستقام فيه قاعدة التمثال أن يقع ضحيـة أعمال عنف. وفُتحت في جريدة المدينة معركة كلامية حامية بناء على إلحاح أغلبية المواطنين. وجُلب في شاحنة كبيرة غُطّيت مؤخرتها بالقماش المشمّع. كان الفصـل شتاء. ونُصب التمثـال أثناء الليـل في الساحة المركزية. وأما التدشين فقد صُرف عنه النظر تحاشيـاً للاضطرابات. وأخذ الناس يتأملون بدهشة «القائد» البـرونزي الواضع يده على مسدسه وهو ينظر إلى الساحـة نظرة صـارمة وكأنه يقول: «لماذا لم تكونوا راغبين فيّ؟»

وفي الليـل ألقى أحـدهم غـطاء على كتفي الـرجـل البرونزي. ومذّاك بدأت المدينة تحدب عليه.

كان ذلك التمثـال هو الـذي أصابـه العريف اليـوناني. وهرع الناس إلى قلب المدينة لمشاهدة الثقب الـذي أحدثتـه الرصاصة. وشعر بعضهم وأعينهم تائهة بأنهم يظلعون. وكان بعضهم الآخر يعرجون حقاً وكأنما أصيبوا فعلاً في أفخاذهم. كان الهرج يهيمن على الساحة. وفي لحظة من اللحظات رؤي «كتنتزاكس» يفد على الساحة محاطاً ببعض الرجال. واجتازها من طرف إلى طرف ودخل مبنى المحافظة حيث كانت قد أقيمت القيادة اليونانية.

بعد ساعة نُشر في المكان المخصّص للإعلانات أمر بسجن العريف الذي أصاب التمثال. وكان موقّعاً باسم «كتنتزاكس» ومكتوباً باليونانية والألبانية.

تلقّينا بعد الظهر زيارة «دجدجو». وما إن دخلت حتى صاحت: «آه! هل تعرفان ما حدث لنا يا صديقتيّ العزيزتين؟ يبدو أن «فازيليكي» جاءت.»

قالت جدّتي وقد شحب لونها: «فازيليكي؟» وردّدت أمي بهلع: «فازيليكي؟»

دخل أبي وقد جذبته ضجة الأصوات وقال: ماذا تقولين يا «دجدجو»؟ عادت «فازيليكي».

ران صمت يعكّره لهاث «دجدجو» الثقيل وحده. وتنهّدت جدتي وقالت: «لماذا لم أمت في الشتاء الماضي! ما كنت إذن لأرى هذه الأمور!» وأمّنت «دجدجو» على كلامها قائلة: «إي نعم، لو حدث لكان حُسن طالع.» واستأنفت جدّتي: «كان من الممكن أن أتوقّع كل شيء سوى أن أرى «فازيليكي» مرة جديدة.» كان في صوتها الآن خضوع مخيف.

كان أبي يفرقع بأصابعه الطويلة العصبية. وأضافت «دجدجو»: «يقال إنها لا تزال أكثر ضراوة من الأوّل. سيكون الأمر هائلاً.» قالت أمي: «ما أتعسنا!» وسأل أبي:

- أين هي؟ متى سنراها؟

- سجينة في بيت «باشا جياور» ويُنتظر أن يأتي يوم يُفرج فيه عنها.

قُرع الباب. دخل على التوالي امرأة «بيدو شريف» والأم

«بينـو» وكنّة «نـازو» الجميلة (ما كـان أجملهـا وسط كـل تلك البشاعة) وامرأة «مان فوتسو» وهي تسحب «ايلير» من يده.

«فازيليكي؟»

- أأنت حقاً؟

- هذا فظيع.

كانت وجوه أولئك العجائز جميعاً قـد شاهت. وكـانت تجـاعيدهن تهتـزّ حتى لكأنهـالا بدّ أن تنفصـل وتقـع أرضـاً. وانتـابني شعور بـأني مقيّد كمـا لـو كنت في أحبـولـة. قـالت «دجدجو» وهي تشبك يديها فوق صـدرها: «أجـل، تلك هي الحقيقة يا «سلفيدجي».

- أي نبأ مشؤوم تحملين إلينا يا «دجدجو»!

- يا للفظاعة!

كنت قد سمعت بـِ «فازيليكي». وكان اسم هذه المرأة التي روّعت مـدينتنا أكثـر من عشرين عـاماً يتمـاهى في ذهني وكلمات «الطاعون» و «الكوليرا» و «المصيبة»، وما كان أكثر ما تتـردّد هذه الكلمـات في اللعنات التي يكيلهـا الناس بعضهم لبعض. ولقد شعروا خلال سنوات طـويلة بوجـود هذا الاسم معلّقاً فوق رؤوسهم وكأنه تهديد مستمـرّ. وها هـوذا الآن وقد خرج من عالم الكلمات ينفكّ لينقضّ علينا وقد اتّخذ في أثناء طريقه شكل جسد امرأة متشحة بالسواد وعينيها وشعرها وفمها.

منذ أكثر من عشرين سنة جاءت هذه المرأة إلى مدينتنـا في الوقت الذي قدمت فيه إليها جيوش الاحتلال اليونانية. وقد أخذت يومهـا تذرع شـوارعنا تحفّ بهـا ثلّة من رجال الـدرك

اليـونانيين وأيـديهم على أسلحتهم؛ كـانت تقـول لهم: «ذاك الرجل هناك نظراته مريبة، اقبضوا عليه»، فما يلبث الدركيون أن ينقضّوا عليه. «هذا الفتى لا يوحي بالاطمئنان. إنه حتماً لا يحبّ المسيح. خذوه، قطّعوه إرباً وارموه في النهر.»

كـانت تجوس في المـدينة وتـدخـل المقـاهي وتتـوقف لمراقبة الناس في الساحة المركزية. وكان اليونانيون يعتـرفون لهـا بطابـع القداسـة. وكانت الشـوارع والمقاهي تُقْفِـر. وقد أُطلقت عليها النار مرتين من غير أن تصاب. وبناء على أمرها ذُبح أكثر من مئة رجل. ثم إنهـا رحلت ذات يوم مـع طوابيـر الجنود نحو الجنوب من حيث أتت.

لم تنسهـا المدينـة. وإذ تركت الـواقع المحسـوس فقد انحشـر اسمهـا في مملكــة اللغـة المجــرّدة. «لِتُصِبْـكَ عين «فازيليكي!»، تلك كانت عبارة لعنة في فم النسـاء العجائـز. وكانت قدَ ابتعـدت ولا تزال تبتعـد أكثر فـأكثر لتغـدو في بُعد الطاعون (لقد كان الـطاعون قـريباً جـداً هو الآخـر ذات مرة) وربما في بُعد الموت. ولكنها وقد أضنتها هذه الغيبة الـطويلة عـادت فجـأة من عـالم اللغـة لتـرجـع ســريعـاً إلى الحيــاة المحسوسة.

خيّم المساء. وكانت «فازيليكي». في المدينة. وكانت نوافذ بيت «باشاجيارو» مغلّقة بالأغطية. متى ستظهر؟ لماذا لا يخرجونها؟ ماذا ينتظرون؟

وسهرت المدينة وهي تفكّر بـ «فازيليكي».

وعند الظهر أطلّت «دجدجو» من جديد وأعلنت قائلة: «الشوارع مقفرة. لم أر إلا «جرجي بولا» الذي كان متوجّهاً إلى السوق. يبدو أنه غيّر اسمه مرة أخرى.» وسألت جدّتي: «وماذا تسمّى؟»

- جورغو بولوس».

- اللعين!

كان يسكن الحيّ المجاور لحيّنا. وعندما احتلّ الطليان المدينة للمرة الأولى سمّى نفسه «جورجيو بولو».

قُرع الباب وكان الطارق امرأة «بيدو شريف» تتبعها كنّة «نازو».

- رأينا «دجدجو» تدخل. هل من جديد؟

قالت «دجدجو»:

- أوه! حبّذا لو كنا ميتات فلا نسمع بهذه الأشياء! هل تعلمن ما يقال عن «بوف حسن»؟

التفتت جدّتي إليّ. تظاهرتُ بعدم الإصغاء. ففي كل مرة كان يدور الحديث فيها عن «بوف حسن» كانت جدّتي تحرص على إبعادي.

- لقد عقد... مع جندي يوناني.

- لا يستحي!

- لقد أصبحت زوجته كالمجنونة. تقول وهي تجهش بالبكاء: «اعتقدت بالخلاص حين رحل الطليان وولّى ذلك

الملعون «ببي» الذي كانت تفوح منه رائحة ملمِّع الشعر على بُعد عشرين خطوة، وها هو ذا زوجي القذر قد تعلّق بأحد أولئك المخنّثين. يوناني يا إخواتي، يوناني!»

تيقّظت عينا كنّة «نازو» اللوزيتان. وقرصت إمرأة «بيدو شريف» خدّيها تاركة فيهما أثر طحين.

«بلغت به الصفاقة أن يقول إنه سيتّخذ عشيقاً من كل جيش يدخل المدينة. فإذا كان الألمان الداخلين فألماني، وإذا كانوا يابانيين فياباني.»

- و «فازيليكي»؟

حمحمت «دجدجو»: «ما زالت سجينة. من يدري ماذا ينتظرون؟»

جاء «ايلير» بعد الظهر. قال لي: «عيسى» و «جعفر» يملكان مسدسين؛ رأيتهما بعيني هاتين.

- مسدسين؟

- أجل، ولكن ينبغي ألّا تقول ذلك لأحد.

- وماذا ينويان أن يفعلا بهما؟

- سوف يقتلان أناساً. رأيتهما من ثقب الباب يتشاجران بصدد من يكون أول الذين سيقتلانهم. كانا قد نظّما لائحة. ولا يزالان يتنازعان هناك في غرفة «عيسى».

- ومن سيقتلان؟

- أوّلاً «فازيليكي» إذا خرجت. ثم كان «جعفر» يريد أن

يكون الثاني «جرجي بولا»، ولكن «عيسى» لم يكن موافقاً.

ـ غريب!

ـ لنذهب ونسترق السمع خلف بابهما.

ـ حسناً.

سألتني أمي: «إلى أينِ أنت ذاهب؟ لا تبتعد كثيراً. من يدري ماذا يحدث. قد تخرج «فازيليكي»».

كان «عيسى» و «جعفر» قد واربا الباب. دخلنا. لم يكونا يتشاجران وكان «جعفر» يدندن لحناً. يبدو أنهما كانا قد تفاهما. وبدت لي نظّارتا «عيسى» أكبر من المألوف. وكانت الزجاجتان تعكسان أشعة برّاقة. التفتا كلاهما نحونا. كانا يحملان لوائح الموت. وكان ذلك يُرى من مظهرهما.

سأل «ايلير»: «هل نستطيع أن نلعب في الخارج؟ ألا نتعرّض لخطر الوقوع على «فازيليكي»»؟

كان «عيسى» يرقبنا وهو ساكن. وقطّب «جعفر» جبينه وقال: «لا أظن أنهم سيخرجونها. لقد انتهى عهدها.»

ساد صمت طويل. كانت الطريق تُرى من النافذة وبعدها جزء من أرض المطار. وكانت الأبقار لا تزال هناك. وبغتة عادت ذكرى الطائرة الضخمة إلى ذاكرتي غامضة متقاطعة كما كانت تفعل أحياناً. والتمع ألمينيومها البراق فجأة التماعاً مؤلماً مرتفعاً فوق الأحاديث المضجّرة عن «فازيليكي» وتصرّفات «بوف حسن» المخجلة. أين هي الطائرة يا ترى؟ وها هي ذي صورة الطائر الميت وجناحاه مطويّان تحته تختلط الآن في

ذهني بأطراف «سوزان» الطويلة شبه الشفافة، وإذ كان الثلاثة معاً، الطائرة والطائر و«سوزان»، يتبادلون فيما بينهم لحم الصبيّة ومعدن الدورالومان والريش والحياة والموت، فقد خلقوا كائناً فريداً غريباً جدّاً و«خارقاً».

ردّد «جعفر»: «انقضى عهدها. تستطيعان التنزّه في الشوارع بلا خوف.»

خرجنا. لم تكن الشوارع مقفرة بالقدر الذي وصفته «دجدجو». كان «تشتشكو كايل» و «عكيف كشاه» يتمشّيان على بلاط الشارع بخطى متثاقلة. وكان شعر الأول المحمرّ يشبه لهباً تعصف به الريح. كانا كثيراً ما يُريان معاً في الأيام الأخيرة. وإذ كانا كلاهما مصابين بابنتيهما فقد كانا يشعران بأن الأسى نفسه يجمعهما. وكان «ايلير» قد سمع على لسان بعض النسوة أن البنت التي قبّلها شاب والفتاة ذات اللحية تتشابهان تمام المشابهة.

كان كلا الرجلين مربدّ الوجه. وكانت السيدة «مينور» قد ظهرت في نافذتها وفي يدها غصن من الصعتر البرّي. وكانت بيوت النسوة الأخريات الملاصقة مغلقة النوافذ. وكان بيت آل «كارلاش» ذو الباب الحديدي الكبير (كانت المطرقة التي بشكل اليد تذكّرني بذراع الطيّار الإنكليزي المفصولة) هادئاً.

قال «ايلير»: «هل نذهب إلى الساحة لرؤية جرح التمثال؟»

ـ موافق.

- هه، اليونانيون!

كان بعض الجنود واقفين أمام اللوحات المخصّصة لإعلانات السينما.

كانوا شديدي السمرة. وسألني «ايلير» بصوت خافت: «هل اليونانيون غجر؟»

- لست أدري. لا أظن ذلك، فليس مع أحدهم كمان أو مزمار.

قال «ايلير» وهو يشير بيده إلى بيت «باشا جياور» ذي الجدران الصفراء الذي كان يقوم أمامه بعض الدركيين بالحراسة: «هه، هنا مسجونة «فازيليكي»».

قلت له: «لا تشر بإصبعك».

قال «ايلير»: لا بأس. لقد انقضى عهدها.» كان ملهى «أديس أبابا» مغلقاً. وحوانيت الحلاقين أيضاً. ما هي إلا بضعة أمتار حتى كنا نجتاز إلى الساحة. وكانت الإعلانات التي مزقتها الريح عند أسفل التمثال تُرى من بعيد. سّ سّ سّ-زّ زّ زّ. توقّفت وقلت: «إسمع».

أرهف «ايلير» سمعه فاتحاً فمه.

كان يترامى من بعيد هرير خافت. ثم غدا أشدّ قوّة. وفجأة بدت الساحة وكأنها تتّسع. ندت عن الجندي صرخة وأطلق ساقيه للريح. كانت السماء تختلج حتى إني شعرت بأنها ستتناثر هباء.

أجل، كانت هي. ضجيجها. دويّها. صاح «ايلير» وهو يشدّني من كمّي: «بسرعة! بسرعة!»

ولكني كنت ذاهلاً. قلت بصوت لا حياة فيه: «الطائرة الكبيرة!»

أرعد صوتٌ حازم: «انبطحا أرضاً!»

زاد الدويّ حدّة مجتاحاً السماء بأسرها مترافقاً مع دويّ المدفع القديم المضادّ الذي طاشت قذيفته في الفضاء. «إنـ... بطح!»

بلغني من بعيد شلو دويّ، ورأيت فجأة في السماء فوق رأسينا تماماً ثلاث مقاتلات كانت قد برزت من خلف السطوح بسرعة جنونية. وكانت هي بينها. أجل، كانت هي بالتأكيد. كبيرة بجناحيها العريضين الرماديين المبسوطين، جائرة أعمتها الحرب؛ وكانت تلقي قنابلها: واحدة، اثنتان، ثلاث... واصطدمت السماء والأرض إحداهما بالأخرى. وأحسست بنفسي مطروحاً أرضاً بقوة عمياء. يا لله ماذا تفعل؟ ما الذي تأتيه؟ آلمتني أذناي. كفى. لم أكن أرى شيئاً. عجزت عن إيجاد أُذُنيّ، عينيّ. كنت ميتاً بالتأكيد.

عندما عاد الهدوء سمعت نشيجاً أجشّ. كنت أنا الذي كان يبكي... نهضت. العجيب أن الساحة لا تزال مسطّحة في حين أنه بدا قبل لحظات أن كل شيء مقلوب، مُلتوٍ إلى الأبد. وعلى بعد خطوات مني كان «ايلير» منبطحاً على وجهه. ذهبت إليه وأمسكته من كتفيه وهززته. كان ينتحب. وقف على

رجليه مائل الرأس. كانت به خدوش في الجبين واليدين. أنا أيضاً كان الدم يسيل مني. ومن غير أن ننبس بكلمة توجّهنا ونحن نبكي بكل جوارحنا إلى البيت بخطوة سريعة ولكن حزينة. وفي شارع «السوق» وقعنا على «عيسى» و «جعفر» اللذين هرعا إلينا وقد غاض الدم من وجهيهما. وإذ رأيانا أطلقا صرخة ورفعانابين ذراعيهما وانطلقا إلى بيتنا بخطى راكضة مجنونة.

* * *

رجع الطليان إلى المدينة. فذات صباح غصّت الطريق بالبغال والمدافع وأرتال لا تنتهي من الجنود. أُنزل العلم ذو الصليب الأبيض عن برج السجن تاركاً مكانه للعلم المقلّم بثلاثة ألوان.

هذه المرة شعر الناس أنها لم تكن بالتأكيد عودة مؤقتة. ففي أثر الأرتال وصلت على التوالي صفّارة الخطر والمصباح الكشاف وبطارية المدافع المضادّة والراهبات والمومسات. أرض المطار وحدها ظلّت خالية. فبدلاً من الطائرات العسكرية حطّت آلة عجيبة برتقالية اللون بشعة جداً عريضة الخطم قصيرة الذراعين أطلق الناس عليها اسم «بولدوغ». وإذ كانت وحيدة في المطار فقد كانت تبدو كاليتيمة.

١١

كانت اليونان قد هـزمت، وكان الثلج يتسـاقط وزجاج النوافذ مغطّى بنديفـه. وكنت أنظر سـاهماً إلى الـطريق الذي يعـجّ بالـلاجئين. في الأسمال. نـديف ثلج وأسمـال. لكـأن العالم ممتلىء بها. وفي مكـان ما كـانت اليونـان قد تقـطّعت أوصالها، وريح الشتاء تحمل ريشها ومِزقها. وكانت هذه تتيه الآن في كل مكان وكأنها الجنّ.

كان اللاجئون يصعّدون في شوارع المدينة وكأن جمـوعهم لا تنتهي. وكـانوا يقـرعون الأبـواب على غيـر هـدى جـائعين مرتعدين، جنوداً ومدنيين ونساء حاملات مهوداً وشيوخاً وضباطاً بلا رتب، طالبين خبزاً: «بعض الخبز! بعض الخبز!».

كـانت المدينـة تنظر إلى المغلوبين متشـامخة. وكـانت الأبـواب عاليـة وليس من سبيـل إلى إدراك النـوافـذ. وكـانت الأصوات الفاتـرة ترتفـع من أسفل وكـأنها حشـرجة المـوت: «بعض الخبز!»

ذلكم هو معنى اندحار بلد. ومن المناقشات التي كـانت تدور في القبو كنت قد أدركت حتى الآن أن البلدين الوحيدين اللذين عرفا الهزيمة من بين البلدان التي كنا نعرفها عن طريق طوابعنا كانا فرنسا وبـولونيـا. هما أيضـاً قد مـلآ حتماً العـالم بالمِزق وبكلمة «خبز» (قـال لي «ايلير» إنـه من المستحيل ان يسمّي الفرنسيون والبولونيون الخبز باسم «بسومي» كما يدعوه

اليـونـانيـون، ولكني أصـررت على القـول إن جميـع البــلاد المغلوبة تسميه كذلك).

كــان الثلج يغـطّي كــل شيء. وكــان الجــو بــارداً، والشوارع يتصاعد منها البخار بلا انقطاع. وكانت الحياة التي عكّرتها الأحداث الأخيرة قد عادت إلى مجاريها الطبيعية تحت السـطوح المثقلة. وكــانت دعــوى آل «كــارلاش» على آل «أنغـوني» قد استؤنفت. واجتـاز «لوقـان صديق الـظل» الحي وغطاؤه على كتفيه وفي يده منديله المحتوي على زاده متوجّهاً الى السجن وهو يحيّي يمنة ويسـرة. «لام سبيري» هـو الآخر استعاد مسرّاتـه. ودعيت الأم «بينو» الى عـرس في «دونافـا». واختفت هرّة «نازو».

لكـأن الحيـاة الـطبيعيـة عـادت إلى نصـابهـا. وكـانت الراهبات يبدون أشدّ سواداً فوق الثلج. وأخـذت حزمـة ضوء المصباح الكشاف تتلألأ ببريق مختلف. أرض المطار وحدها ظلّت مقفـرة. لم يكن فيهـا شيء. حتى ولا أبقــار. لا شيء سوى الثلج. وكنت استعدّ لأن أطلق إليها الصليبيين (مختلطين باللاجئين)، وبعد ذلك بقليـل الأعرج. لكن في ذلـك اليوم، وفي اللحـظة التي بـدا فيهـا أن الـوجـود عـاد يتـآلف والنـظم القديمة، استؤنفت الغارات.

عاد القبو الـذي كان قـد هُجر مؤقتـاً يغصّ بالنـاس من جديد. وكان جوّه دافئـاً في الشتاء. وكـانت النساء يقلن وهنّ يتبادلن التحية: «هانحن أولاء قد تجمّعنا من جديـد كالفـراخ

حول أمهنّ الدجاجة.» وكن يرتّبن الفرش والأغطية بنشاط، بل في فرح تقريباً. كان المجتمع الصغير كله هنا، الأم «بينو» وامرأة «بيدو شريف» وأم «ايلير» والسيدة «مينور» (قابضة دائماً على أنفها) و«نازو» وكنّتها الجميلة. لم يكن ينقص غير «دجدجو» التي كانت قد اختفت مرة أخرى. وأمّا «تشتشكوكايل» فلم يأتِ قطّ. وأما «عكيف كشاه» فلم يرسل إلا ابناءه الذين كان «بيدو شريف» يحدجهم ـ الله أعلم لماذا ـ بنظرة خائفة. وبقي «عكيف» نفسه وزوجته وأمه التي كانت صماء وابنته في بيتهم.

بات ضجيج الطائرات ودويّ المدافع المضادّة يبلغاننا الآن مع الثلج أشدّ اختناقاً. وكان دويّ المدفع القديم المضادّ يتميّز على الدوام من دويّ المدافع الأخرى. ولكن أحداً لم يكن يتوقّع منه شيئاً. كان الناس يشبهونه بشيخ أعمى يتحرّش به الأولاد الأشقياء فيردّ عليهم بقذفهم بحجارة لا تبلغ قطّ هدفها.

كانت الطائرات الانكليزية تزورنا بانتظام كل يوم. وكانت تبرز في ساعة محدّدة تقريباً. حتى ليمكن القول إن الناس ألفوا الغارات أُلْفَتَهم مرحلة كريهة من توقيت معيّن. «إلى غد في المقهى بعد القصف. في حسابي أن أنهض غداً مع الفجر؛ أعتقد أنني سأنهي تنظيف البيت قبل ساعة القصف. هيا بنا ننزل إلى القبو، اقتربت الساعة.»

لكن أحداً لم يكن يشكّ في أن أيام القبو أصبحت معدودة. «لقد انتهى عهدها».

كان قاضيه يهبط السلّم وعلى كتفيه سترة سوداء.

- من ذا؟

- عمّ يبحث هذا الرجل؟

- افسحوا له الطريق. إنه مهندس أجنبي. سيكشف على القبو.

- مهندس؟

فتح الترجمان الذي كان يتقدّمه طريقاً بين الأغطية والفُرُش التي كان يستلقي عليها المرضى والحبالى. تبعه الغريب ذو السترة السوداء. طلب مقعداً.

- يا الله! من أين جاء هذا الرجل!

- ولكن لا تنظروا اليه هكذا!

- ماذا سيفعل بهذه المدية التي في يده. رحمتك يارب!

صعد الرجل ذو السترة السوداء فوق المقعد الذي أحضروه له. سحب من حقيبته مدية أخرى أحدّ وأدقّ من الأولى ومطرقة جميلة. ناول الترجمان حقيبته ثم مدّ يده اليمنى وضرب عدة ضربات في أماكن شتى من السقف. وإذ أعاد المطرقة إلى الترجمان أمسك بإحدى المديتين ورفع ذراعه فجأة وأغمد شفرتها في قشرة السقف بحركة سريعة تكاد تكون فجائية. حبس الجميع أنفاسهم. سحب الرجل آلته على مهل. تساقطت كسور حصى على الأرض محدثة صوتاً ليّناً. كان رأس المدية أبيض قليلاً. نزل عن المقعد ودفعه أبعد قليلاً ثم صعد من جديد فوقه وكرّر العملية نفسها بالمديتين في

هـذه المرة. كـانت الشفرتـان الآن بيضاوين. نـزل المهندس الأجنبي عن الكرسي وهمس ببعض الكلمات للترجمان الذي ترجمها بصوت مرتفع ونبرة تنمّ عن لا مبالاة: «هذا القبو لا يفي بالشروط المطلوبة ليستخذم ملجأ. مَنْ ربّ البيت؟»

استدعي أبي فكرّر له باللامبالاة نفسها وهو ينظر إلى أعلى باتجاه الجدار وكأنه يقرأ الكلمات التي كان يلفظها: «قَبْوُك لا يصلح أن يكون ملجأ.»

هزّ أبي كتفيه.

أضاف الغريب بعض الكلمات.

«يقول السيد المهندس إنه يجب إخلاء القبو على الفور وأن البقاء فيه خطر.»

كان الجميع صامتين. لقد مزّقت مديتا المهندس وهما تثقبان السقف لحم الجميع أيضاً، وكان من الممكن تخمين ذلك من الطريقة المؤلمة التي انبسطت بها تجاعيدهم ثم انقبضت.

اتجه الرجل ذو السترة السوداء بخطى واسعة نحو المخرج. وإذ كان يصعد السلّم فقد انتفخت سترته خلفه. وحجبت لحظة الوميض الخفيف الذي كان ينفذ من الخارج ثم أفسحت له المرور. قالت جارة كانت تشكو من داء المفاصل: «يا إلهي! والآن إلى أين سنذهب للاختباء؟»

أخذت بعض النسوة يبكين.

- إلى أين نذهب؟

صاح «بيدو شريف»:
ـ كفى، لا بد أن نعثر على مكان نحتمي به. كفى بكاء!
ـ أجل، سوف نجد بالتأكيد ملجأ آخر.
ـ يقال إن الحصن سيفتح للملأ.
ـ الحصن؟
ـ ولم لا؟ هذا ممكن. هيّا نجمع أغطيتنا.
كان «بيدو شريف» أول من قال ذلك لامرأته.

بدأ الناس يذهبون الواحد تلو الآخر. وأخذ القبو يفرغ. وبعد الظهر غادر الباقون من المرضى والحبالى. صرّ الباب بأنين. وبقينا وحدنا.

إنه سكون عميق. صعدتُ إلى الطبقات العليا. كانت الديدان تسمع وهي تقضم الخشب. كان سكوناً تُسمع معه الديدان. سمعت مدة طويلة نشيشاً رتيباً لم أتمكن من تحديد موضعه. كان سكوناً تُسمع معه الديدان. أعجبتني العبارة. أخذت أكرّرها.

نزلت. لم يكن في الدهليز من أحد. كان القنديل هناك والفانوس أيضاً بفتيله الأسود الذي كان رأسه متدلياً بحزن فأشعلته وحملته بيدي وهبطت درج القبو. كنت أشعر أن رائحة بشرية كانت تتصاعد منه. وأخذ بصيص الفانوس المضطرب يترامى على الجدران البيضاء. وكانت تُرى في السقف الجراح الصغيرة التي كان خنجر الرجل ذي السترة السوداء قد تركها فيه.

ولم يكن من حديث في تلك الأيام إلّا عن المهندس اللابس السواد. كان يثبت وجوده في كل مكان، ويعلن في كل مكان أن الأقبية غير صالحة لكي تستخدم ملاجىء. وكما فعل عندنا كان يطلب مقعداً أول الأمر ثم يوجّه بحركة سريعة شبه غادرة ضربة قاتلة إلى القبّة القديمة. أُخلي في أربعة أيام مئة وثلاثة وسبعون قبواً. وفي اليوم الخامس سكِر المهندس بالعرق قبل مغادرته إلى «تيرانا» وأعلن وهو يستقلّ السيارة أنه يأسف أن يخلّف وراءه مدينة منذورة للدّمار. لم يكن في وسعه عمل شيء، وقد بذل جهده، وكانت تلك الأيام مؤلمة جدًّا له، ولكن ما من أحد يقدر في نهاية المطاف أن ينتصب ـ على حدّ قوله ـ في وجه مصيره، وهكذا يأتي يوم ترى فيه نهايتها لا المدن وحدها بل الممالك والإمبراطوريات.

وبغتة زادت حدّة الغارات الانكليزية وكأنها جاءت تؤكّد أحاديث المهندس. وفي أربعة أيام سقط تسعة وأربعون قتيلاً. وفي دار المحافظة كان المجلس منعقداً بشكل مستمرّ لتقرير ما إذا كان الحصن سينفتح أمام الجمهور أم لا. وكان يتناقش منذ ثلاثة أيام عندما اقتحم سكان «دونافا أي بوشتيم» باب القلعة الجنوني من غير أن ينتظروا قرار البلدية. وفي اليوم نفسه اقتحم الباب الشرقي سكان «السوق القديمة».

وجرى في ذلك اليوم من الصباح إلى المساء نزوح إلى الحصن.

واصطفقت الأبواب طوال الليل في شوارعنا.

ـ أتذهبون إلى هناك؟
ـ أجل، وأنتم؟
ـ سنقرّر ذلك هذا المساء.
ـ يُخشى جداً ألّا يكون هناك مكان لكلّ الناس.
ـ لا أظن. مخابىء الحصن التي تحت الأرض واسعة جداً.

جاءت الأم «بينو» تستشيرنا: «ماذا نفعل؟ إنها نهاية كل شيء.»

قال أبي: «ننظر غداً في الأمر.»

ثم دخل «بيدو شريف». كرّر أبي: «غداً». وأمرني قائلاً: «اذهب إلى «مان فوتسو» واسألهم ماذا ينوون أن يفعلوا.»

التقيت بـ«مان» في الشارع. كان آتياً إلينا.

وبعد قليل قرعت «نازو» وكنّتها بدورهما بابنا.

ـ هه، نويتم غداً؟
ـ أجل غداً، قبل الفجر.

كانت أمسية من أسعد أمسيات حياتي. كان الباب يصوت بلا انقطاع. لم يكن أحد يفكّر في النوم. أخذنا نحزم بالات كبيرة من الأمتعة وننزلها إلى القبو لحمايتها من النار. وحمل كذلك «بيدو شريف» و«نازو» والأم «بينو» و«مان فوتسو» بعض الصُرر. لقد استُخدم القبو من جديد لبعض الأمور.

قالت لي جدّتي مرتين أو ثلاثاً: «اذهب للنوم».

كان ذلك متعذّراً عليّ. غداً سندخل الحصن. سوف

نترك سلّم بيتنا ونوافذه وأبوابه والأحاديث العائلية لندخل في المجهول. وهناك سيكون كل شيء رائعاً ومهولاً وخارقاً للمألوف. كانت تلك الأمكنة هي التي كان يقطنها «ماكبث».

أقبل الصباح بارداً متجهّماً. وكان يسقط مطر خفيف. قُرع الباب. سأل «بيدو شريف» من الشارع: «هه، جاهزون؟» أجاب أبي: «نعم». قالت جدتي: «هيا، تعالى أقبّلك.» بقيت مكاني فاغر الفم.

ـ لماذا؟ ألا تأتين معنا؟

داعبت رأسي وقالت: «كلا، سأبقى.»

ـ لا، لا!

قال أبي: «اسكت.»

ـ لا تبك يا حبيبي، لن يصيبني شيء.

ـ لا. لا!

قُرع الباب من جديد. قال أبي: «أسرعوا، إنهم بانتظارنا.»

صحت مستنكراً: «لماذا تتركون جدّتي وحدها هنا؟»

قال أبي: «لا ينفع شيء في إقناعها. حاولت طوال الليل لكنها مصرّة.» وتوجّه إليها قائلاً: «أطلب إليك للمرة الأخيرة أن تأتي معنا».

احتجّت قائلة بصوت هادىء كل الهدوء: «لا أقدر أن أترك البيت خالياً. ههنا أمضيت حياتي، وههنا أريد أن أموت.»

قُرِع الباب مرة جديدة فتمنّت لنا جـدّتي «رحلة موفّقـة» وقبّلتنا كلّاً بدوره.

أُغلق الباب. وكنا قد أصبحنا في الشارع. استمر الرذاذ بـالتساقط. بـدأنـا مسيـرتـنـا. وفي الـطريق انضمّ إلى جمعنـا أشخـاص آخـرون. كـانت أسـوار الحصن تكـاد تُـرى في الضباب. وأمام الباب الغربي امتدّ صفّ من الناس طوله عدّة مئات من الأمتار. كانوا محمّلين بـالصُرر والأغـطية وصنـاديق الثيـاب والحقـائب والكتب والأواني والكـراسي والسجّـاد والـطسوت والأبـاريق والمهود والهـواوين والقِصـاع، وكـانـوا يتحرّكون ببطء إلى أمام ويتوقّفون ويظلّون طويلاً بلا حراك ثم يتحرّكون من جديد. كان الباب بعيداً. وكان المطر يُغرق كل شيء. وكان الناس يسعلون وينتصبـون على رؤوس أصابعهم ليروا ماذا يجري في مقدّمة القافلة ويسألون: «لماذا توقّفوا؟»، ثم يعودون إلى السعال.

وحـوالي الظهـر كنا قـد اقتربنـا أخيراً جـدًّا من الباب. وكانت الأسوار القديمة ترتفع من كل صوب متصبّبة بالمـطر. كان الباب عالياً ولكن ضيّقاً. وما إن اجتزناه (كانت فرحتي الآن قد غاضت) حتى ألفينا أنفسنا في ظلام دامس. كانت الخـطى ترنّ بشكل مخيف. وأخذ الأولاد يطلقون صرخات مروّعة. ما كان يُرى أي شيء. وكنا نتدافع إلى الأمام كـالعميان. وأطلق أحدهم صيحة حادّة. لقد انكشفت أمـامنا فجـأة في مكان مـا حاشية من السماء بشكل زاوية. أخذنا نسير بـذلك الاتجـاه.

واتّسع الخرق شيئاً فشيئاً إلى أن شعرنا من جديد بقطرات من المطر تتساقط على رؤوسنا.

صاح صوت مغضب: «من هنا، مُرّوا من هنا!»

رقينا بعض الدرجات ثم اجتزنا فضاء مسطّحاً نسبياً قبل أن ندخل رواقاً مسقوفاً بقبة أسلمنا إلى مصطبة صغيرة.

«من هنا!»

اقتادونا حينئذٍ إلى رواق جديد حالك الظلمة. كانت الأرض تصعد بارتفاع حادّ وكنا نجد مشقة في البقاء منتصبين على أقدامنا. ومن جديد بدت قطعة من السماء مقتطعة خلال الظلام. وخرجنا هذه المرة إلى نوع من ساحة مكشوفة محاطة من الجانبين بجدران ذات فتحات. وأمامنا كان السجن العالي جداً منتصباً كأنما يريد ابتلاع السماء.

«من هنا!»

اجتزنا تلك الساحة لنمرّ بعدها إلى رواق مقبّب آخر. وأجريت حسابي بأننا لا بد أن نكون فوق السجن. وترامى إلينا من جهة ما أمامنا عجيج خافت فسرنا في ذلك الاتجاه.

انكشف لنا أخيراً مشهد عجيب: كان قد تجمّع تحت القبب العالية ذات الأقواس الضخمة التي يتقاطر منها الماء ألوف من الناس قرب الصرر والأغطية والمهود وكل أنواع الأشياء المتباينة، وهم بين متململ وساكن وصامت وصاخب وساعل وعاطس وباكٍ.

مشينا طويلاً في الزحام باحثين عن مكان نستقرّ فيه.

وكانت آذننا تطنّ بالضجيج الذي ضاعفته القباب العالية. لم يكن هناك من مكان خالٍ في أية ناحية. ونصحنا أحدهم أن نستطلع الرواق الآخر وعيّن لنا اتجاهه. ذهبنا إليه. كان مماثلاً تقريباً للأول. وأخيراً وجد «مان فوتسو» الذي كان يقود جمعنا الصغير فسحة صغيرة بدا أن أحداً لم يشغلها بسبب الريح المثلجة التي كانت تهبّ عليها من كوّة في الجدار. وضعنا أمتعتنا وأخذنا نبسط حُصُرنا وأغطيتنا الصوفية الكبيرة. كان يُرى من الفتحة جزء من المدينة. وكانت هناك بعيدةً واطئةً جداً وغارقةً في العمق الرمادي مهيبةً مزدريةً.

«فستق سوداني! فستق سوداني!»

كان ولد يبيع بالفعل فستقاً سودانياً. ثم برز باعة متجوّلون آخرون وهم ينادون متسلّلين بين الحشد «راحة الحلقوم!»، «حلوى!»، «سكائر!». كان هناك أيضاً بائع الصحف.

كانت الليلة الأولى باردة متقطّعة النوم. وكانت آلاف أصوات السعال ترجّ الأقواس الحجرية الكبيرة. وكانت الأغطية تضطرب والمهود تَصُرُّ، وكان يُسمع لكل شيء أنين أو حفيف. وكان المرء يسمع على الدوام صوت أقدام بجانبه. كنا مرصوصين أحدنا إلى الآخرين. وكانت قطرات من الماء تتساقط علينا.

استيقظت حوالي الظهر. كان صوت أجش ذو نبرة لا تتغير يتمتم: «اخرجوا... إننا هنا وكأننا في شَرَك... في ليلة

ما سوف يقفلون علينا الأبواب ويذبحوننا ذبح النعاج. يجب أن نخـرج... نخرج بـأي ثمن ما دام الـوقت لم يفت... هذا على كل حال حصن... إنـه «العصر الـوسيط»... «العصر الوسيط»... هل تسمعونني؟ الظلمات كما في سنة ألف... لم يتغير شيء. يظن المرء أن نعم... ولكن شيئاً في الـواقع لم يلطُف.»

قالت امرأة «بيدو شريف» التي ما زال النوم آخذاً منها: «أوه! ولكن من هذا الذي يتكلم هكذا؟»

وتمتمت الأم «بينو»: «ارحل أيها الدجّال!»

سكت الصوت.

وحوالي الفجر حدثت غارة حامية.

طلع النهـار عبوساً. وكان نـور الصباح يجـد مشقة في الدخول من الكوى الضيقة وفتحات الجدران. وحوالي الساعة السابعة بدأت الحركة تدبّ في الحصن. وأخذ الناس يتمشّون في الأروقة والممرات والمداخل. وبدأوا يعثرون بالتدريج على من يعرفونهم. وقد أثّر فيهم أن تستيقظ المدينة جمعـاء تحت سقف واحـد. كانت العـائلات قـد اتّخذت أمـاكنها الـواحدة بجانب الأخرى من غير أن تحتكم إلى معيار من أي نوع كان. وكانت نِسَب الأحياء والبيوت وأوضاعها في المكان قد انقلبت رأسها على عقبها. وقد جمع هذا السقف المشترك تحته أولئك الذين واللواتي كان يبدو من المستحيل اجتماعهم. «كارلاش» و«أنغـوني»، مسلمـون ومسيحيـون، راهبـات وبنـات هـوى، عائلات كبيرة وكناسو طرق وغجر.

ومع هذا فإن عدداً من الأسر لم تلتجىء إلى الحصن. أسر في حال حِداد أو أسر تخفي مساكنها سرًّا من الأسرار بوجه عام. ولم تتحرّك كذلك من بيتها واحدة من العجائز الطاعنات في السنّ.

وفي اليوم الثاني التقينا في الرواق الآخر جدّي وأبناء خؤولتي بين الغجر. كان جالساً في كرسيه الطويل الذي حمله مع أمتعته. وكان يقرأ كتاباً تركياً من غير أن يأبه أبداً لكرب الناس الذين يحيطون به. وأما «سوزان» فلم ألمحها في أي مكان.

سألني «ايلير»: «ماذا يكون هذا «العصر الوسيط»؟

ـ لست أدري. أنت أيضاً سمعت ذلك المجنون في منتصف الليل؟

ـ نعم.

ـ لنستفسر من «جعفر».

كان يختفي هو و«عيسى» من آن إلى آخر. عثرنا عليه. قال لنا: «العصر الوسيط» هو أشد حقب البشرية ظلاماً. في ذلك الزمان جرت قصة «ماكبث» التي قرأتها في ذلك الكتاب».

كان الحصن يترافق في أحاديث بعض الناس أكثر فأكثر مع «العصر الوسيط». كانت القلعة قديمة، وكانت هي التي وَلَدَت المدينة. وكانت بيوتنا تشبه الحصن بعض الشيء كما يشبه الأولاد أمّهم. وبمرّ العصور كانت المدينة قد كبرت جداً.

وكانت القلعة لا تزال بالطبع قوية وحسنة المظهر، وكان خط تلفوني يصلها بمركز المدينة (كانت الأسلاك الخارجة من كوّة البرج الغربي تُرى من كل مكان)، ومع ذلك فإن أحداً لم يكن يفكّر في أنها قد تجد القوة ذات يوم لجعل ابنتها المدينة في عهدتها وحمايتها. كان هناك ما يشبه رجوعاً مخيفاً إلى الوراء. والآن وقد أصبح الأمر مقضيًّا فإن الناس كانوا في انتظار ما يلي. وقد كان عليهم أن يتحمّلوا منذ اللحظة التي ارتضوا فيها خدمات الحصن نتائج ذلك الرضى. كان من الممكن أن تظهر أمراض عرفت في «القرن الوسيط». وأن تستيقظ جرائم قديمة. كانت وقائع «زيفو غافو» حافلة بجرائم القتل وأوبئة الطاعون.

ذات صباح، وكان ذلك في اليوم الخامس من مجيئنا إلى الحصن، كنت و«ايلير» نهيم بلا هدف بين الركام البشري. وقد سبق لنا عدة مرات أن أُغرينا بالخروج من الأروقة لزيارة سائر أجزاء القلعة، ولكن الخوف كان يمنعنا من ذلك. كان يقال إن المكان يحتوي على عدة مواضع سرّيّة، سراديب ودهاليز لا يدخلها المرء إلا ضاع فيها إلى الأبد. وكنّا قد لمحنا من بعيد أمام بعض المداخل رجالاً كانوا يبدون وكأنهم لا يعيرونك اهتماماً، ولكن كان في وسع المرء أن يخمّن عن كثب أنهم هنا للحراسة.

وإذ كنا نتسكّع في الرواق الأول سمعنا فجأة وسط الضجيج بعض العبارات المبتورة. كان المتكلمان رجلين

كهلين طويلين شاحبين لفّ كل منهما وشاحاً حول رقبته. وكانت نبرة صوتيهما واحدة. نسينا كل شيء وأخذنا نتبعهما بوداعة. كنا قد أصبحنا أسيرَيْهما. وكانت قيود أحاديثهما تصلصل في أيدينا وأرجلنا.

«وصل الفرمان الذي يحمل الحكم بالإعدام يوم الاثنين؟»

ـ لا، كان قد وصل يوم السبت. يوم الاثنين كان يوم التنفيذ. وحمل ضابط القصر الرأس في كيس. أما الجسد فقد أُلقي في الغيهب من أعلى البرج الشرقي. وذهب الضابط في مساء اليوم نفسه إلى العاصمة.

ـ هل كان مسموماً عندما فُصل رأسه؟

ـ لا، كان ثملاً فقط. وحسب العُرف وضع رأسه في المشكاة الحجرية في استامبول...

ـ رأيتها، تلك المشكاة.

ـ بقي الرأس هناك أحد عشر يوماً. ولم يُرفع إلا ليوضع مكانه رأس «قره راضي». تعلم أنه لا ينبغي حسب العادة أن يوضع في المشكاة إلا رأس واحد.

استمرّا يتكلمان. وكنا نتبعهما وقد خرجنا من الرواق وأفضينا إلى المصطبة. كان المطر يهطل، وكان كل شيء رطباً ومقفراً. دخلا ممرًّا ضيّقاً وهبطا بعض الدرجات الحجرية ورقيا أخرى وسلطا رواقاً مهجوراً. كنا نرتعد مثل كلبين خائفين.

كان سقف الرواق منخفضاً جداً وكان صوت خطانا

يتعـالى من فوق رؤوسنـا لا من تحت أقدامنـا. وفي وقت من الأوقات أخذ حـديثهما يتشـوّه؛ انتفخ وامتـدّ بإفـراط. لم نعد نفهم شيئاً. واستمرّ ذلك إلى أن بلغنا طرف الرواق. وكنـا قد وصلنا إلى حفرة كبيرة تعلوها قبّة. وهنا التفتا فرأيـانا. وأخـذا يتفحصاننا وقتاً طويـلاً بعيونهمـا الرمـادية. بقينـا نرتجف. ثم أشاحا بوجهيهما عنّا وأشار أحـدهما بيـده إلى سلاسـل معلّقة بالجدار.

ـ هنا رُمي «غور تشرتشيز». إليك القيود هناك. الثالثة من اليمين. بقي مدة طويلة مقيّداً بعد مـوته. وعندما رُفع جسـده كانت الجرذان قد قرضت نصفه.

ـ و«كرفيل»؟ أظن أنه كان قد سُجن مع «تشرتشيز».

ـ أجل، قيّد «كرفيل» بتلك القيود، الخامسة. وقد عاش إلى أن وصل فرمان السلطان القاضي بالعفو عنه. أطلعوه فوق مصطبة بلا درابزين في أعلى الحصن. كان يتقدّم كالمذعور، وظنّ الجميع أنه لا بدّ طائش من الفرح. وعندمـا أخذ يمشي نحو الجدران قال أحدهم إنه يعتقد جازماً أنه يبدو لـه أعمى، ولكن أحداً لم يُعِر أقواله انتباهاً. اقترب من الحافـة المسنّنة، وفي اللحظة التي بلغ فيها طرف الهاوية، وإذ توقّع الجميع أن يتـوقف متأمـلاً المشهد المنكشف من أعلى ويـدلي بتصريـح قصير أو يشكر فقط السلطان الذي عفا عنه، خطا خطوة جديدة وانزَلق إلى الهاوية. وعندها فقط أدرك الجميع أنه كان فعلاً قد فقد البصر.

كنا الآن نرقى بعض الدرجات. كانت الحجارة ملساء.

- على طول هذا الدرج تدحرج رأس «خورشيد» باشا. وقد انسحقت عينه اليمنى وهو يقع، وعوقب الضابط الذي حمله إلى العاصمة. فقد اتُّهم بأنه لم يحافظ عليه جيداً أثناء الرحلة ونسي رشّه بالملح وفقاً للقواعد المتّبعة.

- إذا لم أكن مخطئاً فإن هذه القواعد كانت قد حُدّدت للمرة الأولى على يد رئيس الأطباء «بوغراهان» بعد شكوك حامت حول رأس «تيمورتاش». أليس كذلك؟

- لا، لقد قامت تلك الشكوك حول رأس «فلدرم». فلقد تبدّل بعد القطع إلى درجة أن بعضهم شكّ في أن يكون رأسه حقاً. وعندها سُنّت تلك القواعد.

تحدّثا طويلاً عن الرؤوس. وكنا نتبعهما وقد تعلّقنا بهما نهائياً. كان عنقاهما ملفوفين بعناية في وشاحين أسودين. وانتابني ذات لحظة شعور بأن هذين الوشاحين لم يكن لهما من عمل سوى تثبيت رأسيهما (اللذين قطعا منذ أمد طويل) ليمنعاهما من السقوط.

كنت قد شعرت برغبة في التقيؤ. صعدا. وأخذ الهواء يبترد. خرجنا.

«فستق سوداني! فستق سوداني!»

أُنقذنا أخيراً. وركضنا كمجنونين وسط الجمع الذي كان يملأ الأروقة الكبيرة بحثاً عن ذوينا.

سألتنا أمّانا بصوت واحد تقريباً: «أين كنتما؟ لماذا أنتما ممتقعان؟»

ـ لماذا ترتعدان هكذا؟

ـ نشعر ببرد.

غطّتنا أمّي بغطاء ضخم من الصوف. وحضَرت أم «ايلير» لكل منا خبزة مدهونة بالمربّى. كان الجو حسناً هنا بين الأحياء. وكانت نسوة قد أتين لزيارتنا. وكان أبي و«بيدو شريف» يتحدثان برصانة. وكانت كنّة «نازو» تنظر بحزن قدّامها وذقنها بين يديها؛ والأم «بينو» منهمكة بالحقيبة الصفراء التي تحتفظ بأدواتها فيها. وكانت قد أجابت شخصاً سألها لماذا تحمل معها حقيبتها في اليوم الأول من النزوح بأنه سيكون هناك دائماً وفي كل مكان وحتى نهاية الدنيا أعراس. تنهّدت كنّة «نازو». أجل، كانت الحياة حلوة بين بني البشر.

لم نتحرّك أنا و«ايلير» من مكاننا طوال بعد الظهر وفي اليوم التالي. بقينا هنا نصغي إلى ما تقوله النساء اللواتي كن يجئن لزيارة أمّينا. كنا نخشى أن نقع على المجهولَيْن صاحبَي الوشاحين الأسودين. وكنا قد قرّرنا لو صادفناهما بين الناس أن نسدّ آذاننا في الحال كيلا نسمع أحاديثهما.

حديث قصف شديد أثناء الليل. كنت أفكّر بلا كلال في جدّتي. كانت خطاها المتوحّدة ترنّ الآن في البيت الكبير. صعود وهبوط على الدرج. أنين الخشب والشيخوخة وتلك

الـ«انفجري» التي كانت تطلقها على طائراتهم وبلدانهم وحكوماتهم.

كنا قد نمنا أنا و«ايلير» ونحن جالسان في زاوية على هرير الحصن المتواصل عندما بلغت أسماعنافجأة كلمة «قُبض عليه» التي قطعت الضجيج وكأنها حركة قصيرة ونشطة، أو حيّة انزلقت إلى قدميك ولم تلمحها بعد. أعناق ممطوطة، نظرات ثابتة، ضجّة جزمة تقترب منك: «تروك تراك، تروك تراك». «قُبض عليه». سحب دركي من جيبه جامعتين. الرجل الطويل القامة الذي كانت تتراكض فوقه الآن ألوف من النمال، ألوف من الحروف التي كانت تؤلف سريعاً كلمات «قُبض عليه، قُبض عليه، قُبض عليه» على وجهه وشعره ويديه ينظر إلى الرجل الآخر وهو يضع الجامعتين في معصميه.

قال لي «ايلير»: «انظر إنه يغلقهما بالمفتاح».

ـ أرى ذلك.

أطلقت امرأة يبدو أنها زوجة الرجل الذي أوقف صرخة حادّة. قال زوجها: «لا تقلقي».

أمسك به أحد الدركيين من مرفقه وتحرّك الجمع الصغير.

قال أحدهم:

ـ الفاشستيون القذرون!

ـ صه! قد يكون هناك جواسيس.

ـ وماذا يعني؟ الفاشستيون القذرون!

ـ لقد ملأوا السجون.

تفرّق الأشخاص الذين كانوا قد تجمّعوا وهم صامتون. وعند الظهر حدث قصف جديد.

وفي اليوم التالي لمحتُ بين الناس الذين لم ينفكوا يمرّون أمامنا وجهاً ظننت أني أعرفه. كان ينظر إليّ بإلحاح. كان قد سبق لي أن رأيت شعره الأشقر وعينيه ذاتَي النظرة الكدرة. وأخيراً تذكّرته. كان ذلك الفتى الذي قبّل في قبونا بنت «عكيف كشاه» طوال مدة الغارة.

وبعد أن حام لحظة حوالينا أشار إليّ إشارة هززت لها كتفيّ. وبحركة من يده دعاني إلى اللحاق به. نهضت وتبعته. خرجنا إلى المصطبة الكبيرة. كان الجو بارداً. قال لي: «ما اسمك؟»

قلته له. كنا قد توقّفنا أمام فتحة إحدى الكوى وكانت الريح المثلجة تحزّ الوجه. وفي أعماق الهاوية كانت ترتسم المدينة. سألني:

ـ هل عرفتني؟

ـ نعم.

ـ حسناً إذن. حدث الأمر بالحقيقة في بيتكم. هل تعرف ماذا حدث؟ وأمسكني من كتفيّ بعنف وقال:

ـ تكلّم، أتعرف أم لا تعرف؟

ـ أجل.

تنفّس عميقاً وسألني:

ـ أرأيتها إذن؟

ـ لا.

صرف بأسنانه. ثم قال خافضاً صوته:

ـ الحبّ ممنوع في هذه المدينة. سوف تكبر وتجرّبه يوماً...

«(... رغريت!»

كان يضرب بطرف حذائه جدار الكوّة بلا توقف. قال:

ـ اسمع، أخشى أن يكونوا قد قتلوها. أنت، ماذا تعتقد؟

هززت كتفيّ.

ـ هناك طريقتان في هذه المدينة لإخفاء الفتيات اللواتي يحملن: إما أن يختنق في كومة الفُرُش، وإما أن يُغرّقن في بئر. ماذا تظنّ؟

هززت كتفيّ مرة ثانية. كان الجو بارداً جداً.

ـ لم تلمحها إذن في أي مكان من الحيّ؟

ـ في أي مكان.

ـ لم يرها أحد؟

ـ لا أحد.

ـ هل هناك كثير من الآبار في حيّكم؟

ـ بضع آبار.

أخذ يقضم أظفاره، وقال بصوت خافت:

ـ لو كنت أستطيع فقط أن أعثر على جثمانها.

كانت الريح تهبّ. وكنت مقروراً. أضاف:

ـ سوف أبحث عنها في كل مكان.

كانت أصابعه طويلة بشكل غريب. تأمل لحظة الفضاء المربدّ. كانت سطوح المدينة التي لا تحصى تكاد تُرى في الضباب.

غمغم:

ـ إن لم أجدها نزلت أبحث عنها في الجحيم.

أردت أن أسأله عن معنى تلك الكلمات، ولكني لم أجرؤ.

ومن غير أن يقول شيئاً آخر ابتعد بخطى سريعة عبر المصطبة.

* * *

كانت تطير على مهل مبسوطة الأجنحة، وخيّل إلي لحظة أنها ستحطّ على أرض المطار المهجورة عندما انعطفت فجأة واتجهت نحو المدينة. كانت أجنحتها تلمع في الشمس متوهّجة. كانت الآن على رؤوسنا تقريباً، تماماً على العلوّ الذي تنطلق منه عادة ورؤوسها إلى أسفل. وبعد دورة أخيرة انقضّت الواحدة تلو الأخرى على المدينة بشكل شبه عمودي.

كان الربيع قد أقبل. وكنت أشاهد من نوافذ الطبقة الثانية عودة اللقالق. كانت تحوّم حول ذرى المآذن والمداخن العالية بحثاً عن أعشاشها القديمة، وبالنظر إلى الدوائر الناقصة التي كانت ترسمها في السماء كان من السهل تخمين حزنها

ودهشتها لأن تجد أعشاشها وقد أصابها الخراب بفعل زحزحة الهواء التي أحدثتها الانفجارات، وبفعل الريح ومطر الشتاء الذي لم يمض على انقضائه إلا وقت يسير. كنت أرقبها وأنا أفكّر في أن اللقالق لا تستطيع قطّ تخيّل ما يمكن أن يحدث لمدينة طوال الشتاء في أثناء غيابها.

* * *

١٢

كان اليوم يوم أحد. وكان يتصاعد من الأسفل صوت معول جارنا الذي انصرف منذ خمسة عشر يوماً إلى بناء ملجأ حديث من الغارات الجوية في فناء منزله على غرار الملجأ الذي بُني للسيدة «مينور» في منزلها. كانت الغارات قد توقّفت منذ بدء الربيع. وكنا قد عدنا إلى بيوتنا منذ مدة طويلة. وكان أول من بنى ملجأ حديثاً وترك الحصن آل «كارلاش» وآل «انغوني». ثم كان دور الراهبات والمومسات اللائي بنى لهن الجيش ملجأين. وبعدها رحل على التوالي الناس الذين كانوا من اليُسر بحيث يستطيعون بناء ملجأ لأنفسهم. أما نحن فلم نترك الحصن ـ شأننا شأن معظم الناس ـ إلا عندما أخذت غارات الانكليز في التباعد والقلّة. وكان أول ما استرعى انتباهي لدى رجوعنا اختفاء لافتة الصفيح المكتوب عليها «ملجأ يتّسع لتسعين شخصاً». لا بدّ أن أحدهم كان قد رفعها

خلال غيابنا، وقد بقي مكانها على الجدار علامة خفيفة مستطيلة الشكل كان النظر إليها يثير الحزن في القلب.

كانت ضربات معول الجار تتعالى بصوت رتيب.

وكان يوم الأحد قد انبسط بشكل مساوق على المدينة. وكأنما الشمس المنعكسة على الأرض قد طارت شعاعاً، وكأن قطعاً من النور قد سقطت في كل مكان، على زجاج النوافذ وفي منافع الماء وفوق السطوح. عادت إلى حافظتي ذكرى يوم بعيد جداً كانت فيه جدتي قد بَشَرت سمكة كبيرة. وكان زنداها قد تغطّيا بالحراشف. وقد شعرت يومها بأن جسمها كلّه كان يوم الأحد. ومن جهة أخرى فإنه عندما كان أبي يغضب يكون اليوم يوم ثلاثاء.

تـرامى إليّ من الحجرة الثانية صوتا جدتي والخالة «دجيمو». فمنذ الصباح كانتا تتحدّثان عمّا حصل العشية. كانت نساء الحيّ اللاتي قضين الصبيحة عندنا وهن يخضن في شتى الافتراضات قد عدن إلى بيوتهنّ لتحضير الغداء. أما هما فقد بقيتا وحدهما مستمرّتين في الكلام. ففي الليلة قبل الماضية كان أحدهم قد نزل في صهريجنا. وكانت علامات قدميه المبلّلتين واضحة جدّاً في عدّة أماكن. حتى إن الرجل لم يكلّف نفسه بعد خروجه من الخزّان أن يُعيد غطاءه إلى موضعه. وقد وُجد رماد في دلو كانت تتصاعد منه رائحة البترول. ويبدو أن الدخيل استعمله مشعلاً لإنارة الصهريج من داخل.

كانت الشائعات تدور منذ مدة عن أن رجلاً، شبحاً، كان ينزل في الليل في آبار الحيّ. «كم بئراً في حيّكم؟». كانت النسوة العجائز يَرْتَبْنَ في أوّل الأمر بأن روح «زوانو» الذي قُتل عقب نزاع على ملك كان يبحث عن ذهبه المخبّأ. ولكنّ أمّ «عكيف كشاه» التي كانت صماء ولم تكن تنام قطّ في الليل أقسمت أنها رأت بأمّ عينها الرجل يخرج من بئرهم قبل الفجر بقليل. «إن لم أجدها فسأنزل إلى الجحيم». كانت العجوز قد كلّمته، وأغربُ ما في الأمر، إذا صدق كلامها، أنها رأته يحرّك شفتيه ويجيبها، ولكنْ لمّا كانت صماء فإنها لم تسمع شيئاً.

أكان هو؟

بدت السطوح وكأنها طائشة بفعل النور. اقتربتُ من كومة الفُرُش ولوازمها. كانت الفُرُش والأغطية والوسائد والشراشف ذات الحواشي المخرّمة، كل تلك الكومة الرخوة البيضاء التي ندعوها «يوك»، خرساء مثل شَرَك. «هناك طريقتان في هذه المدينة لإخفاء الفتيات اللواتي يحملن: إما الخنق في «كومة الفُرُش»، وإما الإغراق في بئر.»

أكان هو؟

تتابعت الأيام تترى بلا أحداث. كان شخص يبحث عن جسد شخص آخر كان قد قبّله من قبل. وكان ذلك يجري في مكان ما عميقاً تحت الأرض. أما فوق فكان كل شيء كما في السابق. كانت الأيام ثقيلة لزجة. متشابهة كلّها. وما هي إلا أن

تتخلّص من آخر نعت يميّزها، من قشـرة أسمائهـا: الاثنين، الثلاثاء، الخميس.

لم يحدث أي شيء. مرّ الأربعاء والخميس. ثم الجمعة فالسبت فالأحد. كانت الأيام تلتحم مثل كتلة هلامية. وأخيراً حدث شيء يوم الثلاثاء؛ فبعـد المطر ظهـر في السماء قـوس قـزح. ولم يكن الـربيـع يـأتي في مـدينتنـا من الأرض ذات السلطان الحجري الذي لم يكن يعرف الفرق بين الفصـول، وإنما من السماء. وكان يُحزر اقتـرابه من رقّـة الغيوم وظهـور الطيور وأقـواس قزح النـادرة. وكان قـوس قزح يتعـرّض فوق المدينة فيستند، ويا للغرابة، بأحد طرفيه على الماخور وبالآخر على بيت الخالة «دجيمو» التي كانت تفاخر مع ذلك بأن بيتها من أشرف بيوت المدينة.

نادت امرأة «بيدو شريف» الأم «بينو» قائلة: «أيتهـا الأم «بينو» اخرجي قليلاً وانظري!»

قالت الأم «بينو»:

ـ إنها نهاية العالم.

ـ «سلفيدجي»، اخرجي وانظري هذا، هيّا اخرجي.

كانت جدّتي تنظر وهي تهزّ برأسها.

لم يحدث بعد قوس قزح خلال أسبوع شيء استثنائي.

قال لي «ايلير» يوماً:

ـ سيأتي «عيسى» و«جعفر» أمراً ما.

ـ ماذا؟

ـ لست أدري. سمعت «جعفر» يقول: «علينا أن نكسر هذا الهدوء البو. . . البور. . . » لا أذكر هذه الكلمة جيداً.

ـ أنا، لا أعتقد ذلك.

ـ لماذا؟

ـ تذكر لائحتهما بأسماء المحكوم عليهم بالموت. لماذا لم يُطلقا على أي شخص؟

ـ من يعرف كيف تجري الأمور.

ـ لن يفعلا شيئاً، ولا الآن أيضاً.

ـ أما أنا فمتأكد أنهما سيفعلان.

ـ لقد سمّى «جورجو بولوس» نفسه من جديد «جورجيو». لماذا لا يُطلقان النار عليه؟

ـ أتراهن أنه سيحصل أمر ما هذه المرة؟

ـ حسناً.

ـ أراهنك على فرنسا وقطعتين من سويسرا لقاء مدغشقر.

ـ اتفقنا.

بعد ثلاثة أيام خسرتُ فرنسا والقطعتين السويسريتين. فقد حدث بالفعل أمر خطيْر: حريق دار المحافظة. ففي ساعة مبكّرة جدّاً من الصباح سمع أزيز بعض الطلقات ثم صيحات آتية من الشارع: «دار المحافظة تحترق! دار المحافظة تحترق!» فُتحت مصاريع النوافذ بعنف. وامتدت الرؤوس والأيدي والأذرع وكأنما لتلقّي النبأ على خير الوجوه. كان

الخبر صحيحاً، فدار المحافظة كانت تشتعل. وفوق البناء الضخم كان الدخان الكثيف مدفوعاً بفوضى من الريح وكأنه قطيع من الخيول السوداء. وفي بعض الأماكن كانت ألسنة النار تتوهّج على الخلفيّة السوداء. سُمع وقع أقدام يتعالى في الشارع، ثم صوت أجش يقول:

ـ سندات الملكية تحترق!

صاحت امرأة من نافذة:

ـ السندات؟

كان الصوت الأجش يردّد بلا انقطاع:

ـ أيها المواطنون، انهضوا. «السندات» تحترق!

سألتُ بصوت خافت:

ـ ماذا تكون هذه «السندات»؟

لم يجبني أحد.

كان وقع الخطى في الشارع قد أصبح دويًّا. انتهزت فرصة الفوضى فخرجت. كان بيت «مان فوتسو» قريباً جداً من بيتنا. فتح لي «ايلير» الباب وسألني ما آن دخلت:

ـ هه، هل أحضرت فرنسا والقطعتين السويسريتين؟

ـ لا تقلق سوف أعطيك إياها. ولكن قبل ذلك ما الذي يحدث؟

ـ لقد احترقت. قُضي الأمر.

ـ هما؟

ـ بالطبع. ومن غيرهما؟

ـ أين هما؟

ـ في الغرفة. يتظاهران بالدهشة، بأنهما لا يعلمان من الأمر شيئاً.

ـ ما هي السندات؟

ـ لست أدري.

صاحت أم «ايلير» من فوق: «ادخلا وأغلقا الباب».

صعدنا الدرج. قرع «ايلير» باب غرفة أخيه وسأله: «يمكننا الدخول لبعض الوقت؟»

دخل «ايلير» أولاً وتبعته.

كان «جعفر» هنا أيضاً. وكان واقفاً أمام النافذة ينظر إلى الحريق. تبادلا بعض الكلمات بلغة أجنبية. ثم قال «جعفر»:

غريب! من ذا يعرف من الذي أشعل الحريق؟

ـ ثم استدار نحوي وسألني:

ـ ماذا يقولون عندكم في البيت؟

قال «عيسى»:

ـ أجل، الحق أن هذا غريب جداً.

قال «جعفر»:

ـ كنت أحلم حلماً جميلاً عندما أيقظتني طلقات البندقية.

ـ أنا أيضاً. كنت أرى أزهاراً.

تعالت صيحات من الشارع. سأل «ايلير»:

ـ ماذا تعني كلمة «سندات»؟

قال «جعفر»:

ـ آه! السندات. هل تسمعان كيف يتباكون عليها؟ السندات هي الوثائق التي تثبت ملكية الأشياء، إلى من تعود المنازل والفناءات والأراضي. هل تفهمان؟

كان من الصعب علينا أن نفهم. حاول الاثنان أن يشرحا لنا بعض الوقت. «إنها وثائق تحتوي على كل الإشارات عن العقارات: حدودها، مالكوها المتتابعون من جيل إلى جيل. وعندما تقام دعاوى في مسائل الملكية تُراجع على الفور.»

في الشارع كانت الصيحات قد أصبحت أقوى فأقوى. قال «عيسى»:

ـ تسمعانهم يصرخون. لقد مُسّ وحش الملكية.

سمعت صرخة حادّة خلال الأصوات المختلطة. قال «جعفر» وهو يمطّ رأسه ليرى بشكل أفضل:

ـ هه! السيدة «مينور»!

كانت السيدة «مينور» قد خرجت إلى الشارع بلا قبعة. وكان منظر شعرها الخارج من خمار أسود يبعث على الخوف. وكانت تقطع صيحاتها بكلمات مشوّشة كانت ترويها برشاش من لعابها:

ـ المدينون... أجل، المدينون هم الذين أحرقوا السندات... الشيوعيون... المجرمون...

تمتم «جعفر»:

ـ صيحي! يا ساحرة! صيحي أيتها العاهرة العجوز!

كنت أنا قد ألصقت تقريباً وجهي بزجاج النافذة وعيناي مثبتتان على الشارع الذي كان يعجّ بالناس. وكان الزجاج يغشى بين الفينة والفينة. كانت الأراضي والمنازل التي تحرّرت من سلطان السندات قد أخذت تبعد وتتحرّك. وامّحت المسافات ونزعت الجدران إلى الخروج من أسسها، وكان شيء تحتها، المرساة الدهرية التي كانت تمسك بها، قد تحطّم. كانت بيوت الحجر تنتقل وتتقارب بعضها من بعض بشكل مهدِّد وتوشك ان تصطدم وأن تتدمّر.

«إنها تحترق! إنها تحترق!»

وحدها الشوارع التي كانت ملكاً لجميع الناس كانت تحاول أن تحافظ على نظام نسبي وسط تلك البلبلة.

استمر ذلك الاضطراب طويلاً. وكان الدخان يتصاعد فوق البناء المحترق اهدأ فأهدأ. وبدأت النوافذ التي كان اللهب يفرّ منها بهياج قبل قليل تسودّ.

قال «جعفر» وهو يدفع الكرة الأرضية بإصبعه: «الرايخستاغ أيضاً احترق.»

سأل «ايلير»: «ومن الذي أحرقه؟»

قال «جعفر»: «من؟ مشعلو الحرائق.»

قال «عيسى»: «كل المدن في هذا العالم تملكُ بناءً عليها إحراقه.»

ابتسم «جعفر». وبعد قليل تثاءب. كانت عيناه محاطتين

بدائرتين. «عيسى» أيضاً انتابته عدة تثاؤبات. وفي الخارج كانت الشوارع قد استعادت هدوءها تقريباً. خرجت.

قُبض على أحدهم في حيّنا في الليلة التالية. وقد أيقظت الطرقات التي قرعت بشدة على الباب، طرقات لم تكن تشبه الطرقات المألوفة، قسماً من الحيّ.

سألت جدّتي وقد فتحت مصراعي النافذة على الشارع: «من الذي قبضوا عليه؟»

أجابها صوت منخفض: «لا يُعرف عن ذلك شيء بعد. أظن أنه أحد أبناء «مازن».

وعُلم في اليوم التالي أنه جرت توقيفات في المدينة بأسرها. وفي ساحة المدينة نشر إعلان كبير يَعِد بمكافأة قدرها أربعون لكًا لمن يساعد على اكتشاف مُشعِل حريق.

وفي الليلة الثالثة قبض رجال الدرك على مجهول. وكانوا قد تبعوه في بعض الطريق قبل أن يعتقلوه. كان المجهول يسير هائماً على وجهه وزجاجة بترول في يده (كانت رائحته تعبق من بعيد) وحبل ملفوف على كتفه. كان الوقت حوالي منتصف الليل. لم يكن هناك من ريب، كان هو مُشعِل الحريق. وقد وُجد في جيبه علبة ثقاب وكيس صغير يحتوي على رماد.

وفي اليوم التالي سرت شائعة بأن الفتى الذي قبّل ابنة «عكيف كشاه» قد قُبض عليه. وعلى الرغم من المصائب التي

نزلت على المدينة في الشتاء الماضي (كانت النسوة العجائز يقلن: «آه! حبذا لو أننا لا نرى شتاء كهذا!») فإنها لم تكن قد نسيت الشاب الأشقر الشعر. كان الجميع يتحدّثون الآن عنه: «هل سمعت ما أعلنه الشاب الذي قبّل ابنة «عكيف» في التحقيق؟ ـ لا، أهو الذي أحرق دار المحافظة؟ ـ لا، ليس هو الذي أحرقها. كان البترول والرماد اللذان وجدوهما معه معدّين لاستعمال آخر. ـ حقاً؟ ـ كان ينزل في الليل باحثاً عن الفتاة في الآبار. ـ في الليل، في الآبار؟ آه مما يصنع الحب! ـ إذا صدّقنا الفتى فإن والديِ الفتاة قد قتلاها. واليوم، حوالي الظهر، زار قاضي تحقيقٍ آل «كشاه» وطلب أن يتحدث إلى الفتاة. لم تكن هناك. الشاب مصرّ على أنها قُتلت. ـ هه، الآن فقط أدركت أنني منذ تلك «القبلة» لم أرها. ـ قلت لك ذلك. لست الوحيد فإن أحداً لم يلمحها. ـ الحق معك، أكمل. ! أين كنت؟ آه، أجل. صرّح «عكيف كشاه» بأنه أرسل ابنته تزور ابناء عم له أباعد. ـ آه! أبناء عم...

قالت لي جدتي: «لقد نحل جسمك فاذهب لقضاء بضعة أيام عند جدّك.»

كنت أتوقّع هذه النصيحة.

مقطع إخباري

... من الآن فصاعداً بديهياً أن جماعة من الارهابيين تعمل حالياً في المدينة. جميع الناس اعتقدوا عند سماعهم النبأ القائل بأن الشرطة قد اعتقلت منتصف الليل الرجل ذا

البترول والحبل أن «نيرون» المدينة قد أُسر أخيراً. ولكن تبيّن أنه لم يكن «نيرون» وإنما «أورفيه» الذي كان يبحث عن حبيبته «اوريـديس» في آبار فنـاءاتنـا. دعـوى. إجـراءات تنفيـذيـة. أصبحت جميع الدعاوى العقارية معلّقة بسبب حـريق مصلحة المساحة. سينما. غداً: «الفنـدق الكبير» مـع الفنانـة الشهيرة «غريتا غاربو». أمنع التجوال من التـاسعة مسـاء حتى الرابعـة صبـاحاً إلا للقـابلات القـانـونيـات. قـائـد المـدينـة «بـرونـو أرسيفوكال». ثمن الخبز. الدكتور «س. تشوبيـري». أمراض زهرية.

١٣

كانت هيئة الأرض حول منزل جدّي قد تغيّرت من جديد شأنها في كل عام. كان المرء يظنّ من النظرة الأولى أنه وجد المنظر نفسه، ولكنّ فحصاً أشدّ دقة كان يكشف أن طـرقاً قـد اختفت وأخـرى تُسلم الـروح في حين كـانت دروب جـديـدة لا تزال رقيقة وضامرة، وإن كانت معاندة، قد بدأت ترتسم.

كان جدّي كالعهد بـه دائماً جـالساً في كـرسيّه الـطويل يقـرأ. وكانت جـدّتي تنشر الغسيـل الـذي انتهت من غسله. وكانت الريح المنعشة تحتفظ بالأغطية الكبيرة البيضاء منتفخة. وكانت الشجيرات حوالي المنزل قد تكاثـرت. وإذ كانت قـد

أفادت من الهرج الذي سبّبته الغارات في الربيع فقد انـطلقت في هجوم محنق على البيت.

كان منظر السلك الحديدي والأغطية البيضاء التي كانت تقاوم الريـح بآلاف الخلجـات وادعاً جـداً. وينبغي القول إن الريح كانت تهاجم الأغطية من غير خبث مثل هرّة تداعب من دون أن تخرج مخالبها.

كـانت تهبّ بلا انقـطاع من الجهة نفسهـا. وقد تجلب «سوزان».

انتهت جـدّتي من نشر الغسيـل. وسألتني وهي تشبـك المـلاقط الأخيـرة: «هيـه، كيـف حـال أمـك وأبيـك، و«سلفيدجي»؟»

ـ الجميع بخير.

سمعت خلال حفيف الأغطية صوتاً آخر.

قالت جدّتي: «أراك ساهماً بعض الشيء. أفهم سلوكك يا صغيري؛ مع كل تلك الغارات والطائرات».

أطلقت صفّارة صغيرةٌ الانذار. كانت هي التي تحـوّم. التمع جناحاها الأبيضان في الشمس. ظهرت لحظة وكأنما في فسحةٍ من السماء منقشعةٍ بين الغيوم ثم اختفت من جديد.

خرجت من الفِناء. كانت هناك ورأسها مائـل قليلاً إلى جانبها وهي ترتدي ثوباً رمادياً فاتحاً بلون الألمنيوم.

«سوزان!»

أدارت وجهها.

ـ آه! رجعت؟

ـ نعم.

كانت قد كبرت.

ـ متى كان ذلك؟

ـ اليوم.

كانت ساقاها قد طالتا ودقّتا. سألتها:

ـ أين كنتم تختبئون أثناء الغارات؟

ـ هناك، في تلك المغارة.

ـ أما نحن فكنا في الحصن. بحثت عنك ذات يوم.

ـ حقاً؟ ظننت أنك لم تكن تفكّر فيّ قط.

ـ كلا، لم أنسك.

مالت برأسها جانباً وأصلحت مشبكاً في شعرها. قالت بغتة: «شيء جميل أنْ لم تنسني!» وولّت هاربة.

لمحت مرة ثانية ثوبها الذي بلون الألمنيوم بين الأشجار على الطريق الذي كان يؤدي بها إلى المنزل. ثم دارت على عقبيها ورجعت نحوي وسألتني بشبه صرامة: «هه، سوف تحكي لي؟»

ـ أجل، سأحكي لك.

التمعت عيناها من الفرحة.

ـ لديك كثير من الأمور تقصّها عليّ؟

ـ كومة.

ـ ابدأ، ابدأ بسرعة.

جلسنا فوق العشب على حافة الطريق وبدأت أروي. لم يكن الأمر سهلاً. كان لديّ أمور كثيرة أحكيها فنشأ في رأسي بلبال حقيقي. كانت تصغي إلي بانتباه شديد وعيناها مفتوحتان بشكل عجيب، وكانت تقطّب جبينها في كل مرة كنت أخلط فيها الأحداث وترتيبها الزمني، أو لا أوليها في نظرها كلّ أهميتها. وكنت أحياناً أشوّه الأحداث بجسارة وقد ألهبتني حكايتي أنا نفسي. وهكذا رويت لها أن «عكيف كشاه» كان يعضّ بين الفينة والفينة الذراع المفصولة من شدة الغضب وأن الجمهور كان يُطلق الهتافات إثر كل عضّة. كانت تصغي إلى كل ذلك بأقصى ما يمكن من الانتباه، ولكن حين بدأت أقصّ عليها أن أحدهم، ويسمّى «ماكبث»، كان قد دعا إلى العشاء رجلاً لم أعد أذكر اسمه، وأنه بعد أن قطع رأس ضيفه أدرك أنه يجهل الطريقة التي يرشّ بها الملح على رأس مقطوع، وضعت يدها على فمي وقالت لي بنبرة متوسّلة: «قصّ علي شيئاً أقل دموية، أتريد؟»

عندها تحدّثت عن السيدة «مينور» التي كانت تصيح في الشارع يوم أُحرقت دار المحافظة، وعن «فازيليكي»، وعن جدّتي التي أبدت أسفها على أنها لم تمت حين علمت بمجيء تلك الساحرة. وكنت أقص عليها زيارة الخالة «دجيمو» الأخيرة وهزيمة اليونان حين سمعت صوت كبرى خالتيّ تدعوني للغداء.

كان الجميع جالسين إلى المائدة. وكانت دلائلُ نزاع

واضحةً. كانت خالتي الصغرى مقطّبة. قالت جدّتي وهي تملأ أطباقنا: «ولا أريد أن أرى هذا الخامل هنا، هل تسمعينني؟»

أجابت خالتي بعناد: «إنه رفيق، وهو يعيرني كتباً».

ـ كتب! عليك أن تخجلي. قصص حب لكي يجعل رأسك يدور.

ـ لا؛ إنها لا تتحدّث عن الحب، بل عن السياسة.

ـ هذا أشأم. سوف تجعلين رجال الدرك يحضرون إلى بيتنا يوماً.

قال جدّي: «كفى».

ران صمت لم يدم طويلاً. فقد استأنفت جدّتي قائلة: «أنت الآن شابّة. صديقاتك لا يرفعن رؤوسهن عن مطرّزاتهن. سوف تذهبين يوماً إلى بيت زوجك.»

مدّت خالتي لسانها كما كانت تفعل في كل مرة تُحدَّث فيها عن الزواج.

التقيت «سوزان» في اليوم التالي. كانت تبدو ساهمة. سألتني: «كيف كان ذلك الخاتم في إصبع الانكليزي؟»

ـ جميل جداً. كان يبرق في الشمس.

ـ من يمكن أن يكون قد أعطاه إياه في رأيك؟

هززت كتفيّ. قالت: «ربما خطيبته؟»

ـ ربما طبعاً.

أمسكت «سوزان» بذراعي وقالت لي وهي تقترب من أذني: «اسمع، إن أكثر ما أثّر فيّ من كل ما رويته لي هو ما

حصل لابنة «عكيف كشاه». أتقصّه عليّ مرة ثانية؟»

وافقت بإشارة من رأسي.

ـ ولكن أرجوك، حاول أن تتذكّر كل شيء.

فكّرت لحظة. قالت: «لا تستعجل، تذكّر جيداً».

تظاهرت بالاستغراق في التفكير لتعتقد أني أحاول تذكّر أدنى التفاصيل في حين أنه كان يدور في خلدي بالحقيقة بشكل لا إرادي أحداث أخرى مجزّأة لا روابط بينها. قالت:

ـ الآن احكِ.

كانت كأنّما تحوّلت كلّها إلى أذنين. كانت عيناها وشعرها وذراعاها النحيلتان وكل ما فيها قد جمدت وأخذت تصغي. وعندما انتهيت أرسلت زفرة كبيرة. «ما أكثر ما تحدث أمور غريبة في هذه الدنيا!» قلت لها:

ـ أحد أصدقائي يملك عالَماً صغيراً من ورق ممضوغ. يمكن إدارته بالإصبع.

لم تكن تصغي إليّ. كان فكرها غائباً، «أتريد أن نذهب إلى المغارة؟»

لم أكن أشعر برغبة خاصّة في ذلك، فقد كنت متعباً من الأقبية والأمكنة الرطبة، ومع ذلك كلّه فإني لم أعترض.

كان الجوّ في المغارة منعشاً. جلسنا على حجرين كبيرين وبقينا صامتين. قالت بغتة: «أتدري ماذا؟ لنتظاهر بأن طائرات تأتي وتلقي قنابلها. أتسمعها؟ هناك طائفة منها.

صفّارة الخطر تصدح. ها هي ذي الطائرات الآن تهبط. القنابل تسقط قربنا. متى ستنطفىء المصابيح؟»

ـ الآن.

مدّت ذراعيها وأحاطت بهما عنقي والتصق خدّها الأملس بخدّي. سألتْ:

ـ هكذا؟

ـ أجل.

كانت ذراعاها باردتين كالألمنيوم. وكانت تفوح من عنقها رائحة صابون طيّبة. قالت بعد هنيهة:

ـ أضاء أحدهم المصباح. سوف يروننا.

احتفظت برقبتي جامدة. تركتني «سوزان» فجأة. «ها هم الآن يسحبونني من شعري، أترى؟ ماذا ستفعل؟»

أجبت وأنا أضخّم صوتي: «سوف أنزل إلى الجحيم».

انفجرت ضاحكة.

كرّرنا في ذلك اليوم والذي تلاه تلك اللعبة الصغيرة مرّات. وقد أصبح يحلو لي الآن أن أبقى بلا حراك وهي تحيطني بذراعيها الطويلتين. كان عنقها يعبق على الدوام برائحة الصابون الطيبة تلك. وذات يوم (لم يكن هنا أيام خميس ولا أيام ثلاثاء كما في حيّنا بل صبيحات وآصال وأمسيات) كنا متعانقين على طريقتنا نعدّ القنابل التي كانت تتساقط أكثر غضباً فأكثر حين برز عند مدخل المغارة خيال. كنت أول من لمحه ولكني لم أنجح في منع أي شيء.

نادت أمها: «سوزان!»

رفعت «سوزان» ذراعيها من حـول عنقي وظلّت مكانهـا بلا حراك. اقتربت المرأة التي كان عكس اتجاه النور يمنعني تماماً من تمييز هيأتها. قالت بصوت منخفض وإن كان قاسياً: «ههنـا تحتبسين إذن طوال النهـار.» (لم يكن «عكيف كشـاه» على ما أذكر جيّداً قد نبس بكلمـة.) سوف يجـرّونها الآن من شعرها. قـالت شبه صـارخة وأمسكت صـديقتي من ذراعها: «انهضي». وكانت ذراع «سوزان» المضغوطة في يدها القـوية كما في ملزمة تبدو وكأنها لا بدّ أن تتحطّم.

دفعتْها بعنف. وبدا جسـد «سوزان» وكـأنه سيتفكّـك. انـدفع جـذعها إلى الأمـام بينما ظـل رأسها لحـظة إلى خلف وأسرعت ساقاها لإعادة التوازن المختلّ.

غمغمت المرأة بين أسنانها: «بكّرت في هـذه الأمور». ثم التفتت نحوي قبل أن تخرج من المغارة وقالت: «وأنت أيها الغرّ، يجدر بك أن تتعلّم كيف تمخط...»

نعتتني بسلسلة من التسميـات الأخـرى ذات النهـايـات الحـادّة التي تنتمي إلى الأسرة نفسهـا والتي بدت لي جميعـاً مليئة بالأشواك.

ذهبتا. ما الذي سيحدث الآن؟ هـل عليّ أن أنزل إلى الآبار؟

كان الهدوء والنور يسودان في الخارج. وكان طائر يحلّق

في السمـاء. وكان الغضب والكلمـات اللاذعـة قـد بقيت في عتمة المغارة.

«إنهم يسحبـونني من شعري. مـا الذي ستفعله الآن؟» كنت أسير على مهل. وكنت أشعر برأسي مخدّراً تمامـاً. كان ذلك الحبل المبلّل على حافة فتحة صهريجنـا يراود فكـري. وكان الرماد الأسود في قعر الدلو لا يزال يعبق برائحة البتـرول بعـد احتراقـه. لقد كـانت جدتي قـد قالت: «هـذا ما تخلّفـه قصص الحب تلك. آه يا «سلفيدجي» لم يكن ينقصنا إلا هذا في مثل هذه الأيـام. الموت ولا قصص الغـرام هذه، حمـانا الله.»

«. . . سبوني من شعري. ماذا ستفعل؟ . .»

تسلّقت السـطح. كان يُلمـح بيت «سوزان» من فـوق. وفي الخارج كانت الأغطية البيضاء منشورة. «اليوك».

تمدّدت على الألواح الحجـرية الـدافئة وأخـذت أرقب السماء. كانت سحابة صغيـرة تسبح بـاتجاه الشمـال. وكانت تبدّل شكلها باستمرار. «في إمكان المرء تحمّل أمور كثيـرة يا «سلفيـدجي»، ولكن لا قـدّر الله أن ينتشـر هـذا النـوع من الغراميات. الطاعون ولا هذا.»

كـانت جدّتي قـد رفعت الدلـو بعنايـة وأفـرغتـه. وقـد تفحّصتْ طويلاً الرماد الأسود الرطب ثم هـزّت رأسها. وكنت قد هممت حينها بأن أسألها لماذا هـزّت رأسها هكـذا، ولكن حفنـة الـرمـاد الأسـود تلك انتـزعت مني إرادتي المتـردّدة في الكلام.

كانت الغيمة الصغيرة تتابع طريقها في السماء كالسكرى. وكانت قد طالت ورقّت. لا بدّ أن يكون العيش في السماء مزعجاً جداً في الصيف. فالأحداث فيها نادرة. والغيمة التي كانت تجتازها كما يجتاز إنسان ساحة مقفرة في الهاجرة قد ذابت قبل أن تبلغ الشمال. وكنت قد لاحظت أن الغيوم تموت سريعاً جداً. وكانت رفاتها تهيم بعد ذلك مدة طويلة في السماء. وكان من السهل تمييز الغيوم الحيّة من الميتة.

دهشت لرؤية «سوزان» في اليوم التالي. فقد مرّت أمام بابي بصحبة أبيها. وكانت قد أمسكت بذراعه كفتاة قد أصبحت كبيرة حتى إنها لم تدر وجهها لتنظر إليّ. بدت لي غريبة تماماً. وحوالي المساء عادت فمرت من أمام بيتنا. وما إن رأتني هذه المرّة حتى رفعت رأسها عالياً والتصقت أكثر بأبيها. ولحظني أبوها خفية. كان رجلاً جميلاً جداً.

في الأيام التالية خرجت بصحبة أمها. كانت متعلّقة بذراعها وكانت هيأتها هيأة آنسة. ونظرت إليّ أمها كما يُنظر إلى كلب مسعور. من ذا يدري كم تعرف من تلك الكلمات الخبيثة اللاذعة الجنيّة الساحرة.

أمضيت الصيف كله وأوائل الخريف عند جدّي. كان أطول صيف في حياتي. وكنت غارقاً في ما يشبه الخَدَر. وكانت الأيام تتوالى بلا أحداث ولا أسماء. وكانت أيام الأربعاء والأحد والجمعة بعد أن تُفرِغ ساعات النهار والليل وتجعل منها كومة كبيرة تُرمى في القمامة مثل صناديق لا خير فيها.

دام ذلك طويلاً. وبدأ الجوّ يبرد. وكـانت أول أصوات الرعد تُسمع في مكان ما خلف خط الأفق. وأخذ البيت يُظلِم. وأصبحت مشادّات جدتي مع خالتي أكثر تكرّراً. وكـانت هذه تـروح وتجيء في البيت فرِحـة من غير أن تبـالي بـأمهـا وهي تدندن لحناً يبدو أنه قد ظهر حديثاً:

من الجوع والبؤس
فلاحون وأهل مدن. . .

وكانت جدّتي تصغي إليها وتهزّ بـرأسها بسهـوم وكأنهـا تقول: هذه البنت تمزّق قلبي.

حدثت المطرة الأولى وجاء يوم عودتي إلى المنزل. كان الجوّ ملبّداً. وكانت الريح تهبّ في الشِعاب الشمالية. هبطت شـارع الحصن واجتزت جسـر «المشاجـرات» وأصبحت أسير الآن في حيّ من أحياء قلب المدينـة. دهشت من رؤية نفسي بين الجـدران الحجريـة الرمـادية التي كـانت ترتفـع من كـل صوب. كانت الشوارع مقفرة بشكل عجيب. كان هنـاك فقط في ساحة صغيرة قرب السوق جمع صغير من الناس يستمعون إلى رجـل يخطب فيهم. اقتـربت. لم أعرف الخـطيب. كان رجـلاً ربعة أشيب الشعـر يمدّ ذراعيـه بين الفينة والفينـة أثناء خطبته.

«لِنَسْـعَ في هـذا الـزمن القلّب إلى الاحتفـاظ بـالحبّ المتبادل. فلسوف يحمينا الحب. ما الـذي نجنيـه من صـراع بين الإخـوة. سوف ينتصب الأبنـاء في وجه آبـائهم ويتقـاتـل

الإخوة فيما بينهم. وسيجري الدم أنهاراً. اطردوا حرب الإخوة من مدينتنا. لا تدعوا الموت ينفذ إليها. إن الألباني، ذلك المسكين، يركض منذ قرون وعلى ظهره حِمْل من حديد الخردة. الآخرون يفكّرون في أن يأكلوا ونحن لا نفكر إلا في التقاتل. لنطّرح تلك الخردة يا إخوتي فالحديد يدعو إلى الفرقة. ما نحتاج إليه هو الاتحاد. الصراع بين الإخوة. . .»

كانت شوارع حيّنا مقفرة تماماً. وكان في مظهر الأبواب ما يريب. حثثت الخطى. أين الناس؟ كنت أركض تقريباً. وكانت خطاي على الحجارة تبعث صوتاً مخيفاً. لا شيء سوى أبواب مغلقة. والمطرقة المعدنية بصورة يد بشرية. كان الاتفاق كاملاً. كان بابنا مواربآً. وكان ينتظر. دفعته ودخلت.

قالت أمي: «ألم تجد للعودة خيراً من هذا اليوم؟»

ـ لماذا؟

لم تقدّم لي تفسيراً. قبّلتني جدّتي وأبي. سألت جدّتي:

ـ لماذا تقول أمي إني أسأت اختيار يوم عودتي؟

ـ أطلقت النار على أحدهم، جُرح.

ـ من ذاك؟

ـ «جرجي بولا».

ـ آه! ومنذا الذي أطلق عليه؟

ـ لا أحد يدري. الدرك يحقق في الأمر.

سألت:

ـ وابنة «عكيف كشاه»، هل عُثر عليها؟

قالت لي جدتي بنبرة عتاب تقريباً:

ـ ما الذي جعلك تفكّر في ابنة «عكيف كشاه»؟ إنها في زيارة لبعض أبناء عمومتها.»

* * *

ثائر. فتى من حي في قلب المدينة انضم إلى الثائرين. قبل اسبوع كان فتى كغيره من الفتيان (كان له بيت وباب يُقرع، وكان يتثاءب قبل النوم؛ كان أصغر أبناء أخت «بيدو شريف»). وها هوذا يصبح بغتة ثائراً إنه الآن في الجبال. كان يمشي، وكانت الجبال ملأى بضباب الشتاء الذي كان يسير في الهاويات كما في الكوابيس. كان الثائر هناك في الأعلى. وكانوا جميعاً هنا. وحده كان فوق.

«لماذا ينخرط المرء في عداد الثائرين برأيكم؟»

ـ اوه! إنك تتعبني بكل هذه الأسئلة.

* * *

قذف الشتاء فوق المدينة من الريح والمطر أكثر مما سبق له يوماً أن فعل. كانت الغيوم تتراكض في كل اتجاه لتسرع في إفراغ محتواها من الرعد والبَرَد والماء. وكان الأفق غارقاً من كل صوب بالضباب.

لقد اكتشفت أمي الأمر ذات صباح بارد. كانت قد نزلت إلى الطبقة الأرضية لانتشال دلو ماء من الصهريج. وكنا نتدفأ حول النار حين سمعنا وقع أقدام حثيثة في السلّم.

قالت جدّتي: «ينبغي أن تكون قد أسقطت الدلو في البئر.»

دخلت أمي وعلى وجهها ملامح قلق. كانت تمسك بيدها كرة صغيرة من ورق أو من خِرَق، لم يكن ذلك بادياً.

ـ أعمال السحر؟ لقد عادت من جديد...

قالت جدتي:

ـ ألقيها يا ابنتي، ألقيها.

تركتها أمي تسقط. نهض أبي فجأة وأمسك بها وأخذ يفتلها بأصابعه المضطربة. حملقت أنتظر أن تنزلق إلى الأرض من تلك الكرة الرهيبة بين لحظة وأخرى قلامات أظافر وشعرات ورماد وبعض النقود التركية القديمة.

لكنه لم يسقط منها شيء. فلم تكن بعد أن نُشرت سوى ورقة مدعوكة. قلّبها أبي عدة مرات بين يديه ثم أخذ يقرأ ما كُتب فيها. سألت أمي: «ما ذلك؟»

قالت جدتي: «صكٌّ ما بِدَيْن».

لم يُجب أبي. اقتربتُ من كتفه ونظرت. كانت ورقة مكتوبة بالآلة الكاتبة. وكانت بعض الكلمات قد زيدت في أسفل الصفحة. ثبّت عينيّ على السطرين المكتوبين باليد. كانت الحروف المائلة إلى أمام تبدو وكأنها تشقّ الريح والمطر. عرفتها. كانت بخط «جعفر».

سألت أمي: «ما ذلك؟»

أعاد أبي الورقة المدعوكة إلى شكلها الكروي، وقال: «لا شيء. لا تُحدّثوا أحداً عن هذا».

بعد الظهر حضرت عدة نساء لزيارتنا.

- هل قذفوا بمنشورات عندكم؟

- أجل، وعندكم؟

- لقد أخبرت السيدة «مينور» الدرك.

- إنها نهاية كل شيء.

- ما معنى «حزب شيوعي»؟

- ما أدراني!

قالت جدّتي: «إنها لأمور غريبة.»

كانت المدينة ثائرة حقاً. وكانت المداخن تَصفِر للريح كالمجنونة.

«ما هذه الريح الفظيعة؟»

كان الرجل الأشيب يلقي الخطب لتهدئة الناس. لم يكن ينسى قط أن يذكّر بعبء حديد الخردة.

بداية الشتاء. أخذت أتأمل أوائل نديف الثلَج الذي كان يكسو الدنيا وأتساءل عن البلد الذي ستحمل إلينا الريح الشتوية أسماله.

* *

١٤

كانت شاحنتان محمّلتان بالموقوفين على أهبة الإقلاع عصر هذا اليوم. وكانت الساحة المركزية سوداء من كثرة الناس. وكان دركيّون يسيرون جيئة وذهاباً بين الجمهور. وكان المعتقلون المكدّسون في مؤخرتي الشاحنتين قد رفعوا ياقات معاطفهم القديمة. وكان كثيرون منهم يمسكون بأيديهم صُرراً صغيرة. وكان بعضهم لا يحملون شيئاً. وكانوا جميعاً صامتين تقريباً. وحولهم كان الجمهور يطلق حمحمة خافتة. وكانت نساء يبكين. وأخريات، ولا سيما أكبرهنّ سنًّا، يوصين ذوي قرباهم. وكان الرجال يتكلمون بصوت خافت. وكان المعتقلون صامتين.

سأل أحدهم: «ماذا فعلوا؟ لماذا يأخذونهم؟»

ـ تكلّموا ضد.

ـ ما معنى هذا؟ كيف ضد؟

ـ قلت لك إنهم تكلموا ضد.

ـ أدار الآخر له ظهره.

كرّر السؤال: «لماذا يأخذونهم؟ ماذا فعلوا؟»

ـ تكلّموا ضد.

اجتاز قائد حامية المدينة الساحة يحفّ به فريق من الضباط. لا بدّ أن اجتماعاً سيُعقد في دار المحافظة.

كان محرّكا الشاحنتين دائرين منذ مدة طويلة. ثم زادت

بغتة حدّة الطنين المتساوق على الساحة. تحـرّكت الشاحنـة الأولى. ونفذت من خلال الهرير الخافت كلمات مقولة بصوت مرتفع وصيحات وصرخات. تحرّكت الشاحنة الثانية أيضاً. وكان المعتقلون يقومون بإشارات من أيديهم.

- إلى أين يقودونهم؟
- لست أدري. بعيداً بالتأكيد.
- إلى إيطاليا؟
- ربما.
- سمعت أنهم يقودونهم إلى الحبشة.
- ممكن. الامبراطورية كبيرة.

في هذا الوقت تعالى غناء من الشاحنتين. كانت النبرات مؤثرة، ولكن الصياح وصوت المحرّكين وأوامر رجال الدرك المقتضبة لم تكن تسمح بتمييز الكلمات.

صاح أحد المعتقلين: «عاشت ألبانيا!»

كانت الساحة تغلي. وأخيراً شقّت الشاحنتان صفوف الجمهور الذي كان يحيط بهما وابتعدتا بسرعة.

أخذت الساحة تخلو. يبدو أن الاجتماع في المحافظة قد بدأ. كان عدد من الخفراء قد تمركزوا على الرصيف. أصبحت الشوارع مقفرة.

شهدت المدينة قدوم المساء من دون أولئك الذين تكلّموا ضد. ولكن، ويا للغرابة، فقد أطلقت أثناء الليل

منشورات جديدة. وخرجت السيدة «مينور» من بيتها قبل الفجر لإخطار الدرك.

بعد الظهر حضر «ايلير» لرؤيتي. قال لي: «هه، يتكلّمون ضد؟»

ـ حسناً.

أضاف بعد لحظة:

ـ حذارِ من الجواسيس.

ـ إلى أين نذهب؟

ـ إلى السطح.

قصدنا بيت «ايلير» ورقينا السطح من غير أن نجعل أحداً يلحظنا. كان المنظر من فوق مرعباً. كانت آلاف السطوح ممتدّة بلا نهاية، رمادية مائلة، وكأنها قد تقلّبت عدة مرات في سُبات مضطرب. كان الجو بارداً جداً.

قال «ايلير»: «ابدأ».

سحبت الزجاجة من جيبي ووضعتها على عيني، وصحت: «تارارارا رارا تاتا!».

أجاب «ايلير»: «رابالاما بارامارا!»

بقينا لحظة نفكّر. قال «ايلير»: «عاشت ألبانيا!»

ـ لتسقط إيطاليا!

ـ عاش الشعب الألباني!

ـ ليسقط الشعب الايطالي!

صمتنا. بدا أن فكرة خطرت في بال «ايلير». قال:

ـ كلا، ليس هذا عدلاً. يقول «عيسى» إن الشعب الايطالي ليس خبيثاً.

ـ ما تلكم الأمور والقصص!

ـ أجل، أجل، الأمر كذلك.

ألححت: «كلا. ما دامت طائراتهم خبيثة فكيف يمكن أن يكون شعبهم طيّباً؟ هل يمكن أن يكون ناس بلدٍ ما خيراً من طائراته؟»

اضطرب «ايلير». بدا أنه يتراجع. ولكنّه في الوقت الذي كان سيغيّر فيه رأيه قال في عناد: «كلا!»

صحت: «أنت خائن! ليسقط الخونة!

ردّ «ايلير» وهو يطبق قبضتيه استعداداً للانقضاض عليّ: «ليسقط الصراع بين الإخوة!»

نظرنا حولنا بشكل عفوي. كنا على وشك السقوط من أعلى السطح. ومن غير أن نضيف كلمة بدأنا ننزل الواحد وراء الآخر وافترقنا متخاصميْن.

لم يكن من حديث في هذه الأيام إلا عن الذين انضموا إلى الثوّار. كان هناك من جميع الأحياء، من «بالورتو» ومن «غجوبك» ومن «فاروش» ومن «تسفاكا»، من أحياء قلب المدينة كما من أحياء ضواحيها. ومن حي «هازمورات» كانت فتاة فقط قد اعتصمت بالجبل.

حمل أحدهم خبر أول ثائر يقتل. كان ذلك أصغر أبناء

«عبده بابا رامو». لم يكن أحد يعلم أين سقط ولا كيف. لم يُعثر على جثمانه.

اعتكف «عبده بابا رامو» وامرأته عدة أيام في منزلهما. ثم إنه تمكّن من استئجار بغل مدة ثلاثة أشهروجمع بعض المال وانطلق يبحث عن ابنه في الجبال. وهو الآن يتابع تطوافه.

إنه شتاء حرب؛ هذا ما كانت تقوله كل النسوة اللواتي كنّ يأتين لزيارتنا.

وذات يوم، وكنت قد ذهبت أفتح الباب، ظللت واقفاً على العتبة فاغر الفم. فأمامي كانت جدّتي لأمي التي كانت تكاد تأتي لزيارتنا مرّة في السنة، فلم تكن تقوم قطّ بزيارات نظراً لضخامة جثتها التي كانت تمنعها من القيام بمسيرات طويلة. ثم إنها لم تكن تخرج إلا في الربيع فلا يضايقها البرد ولا الحرّ أكثر مما ينبغي. وها هي ذي الآن منتصبة على عتبة الباب بوجهها الكبير الشاحب الواجم.

صحت من تحت: «هذه جدّتي».

نزلت أمي الدرج بسرعة وهي في غاية القلق. صاحت: «ماذا جرى؟»

هزت جدّتي رأسها على مهل وقالت: «هدّئي من روعك، لم يمت أحد».

برزت جدّتي الثانية عند أعلى السلم جامدة كتمثال: قالت بصوت هادىء:

ـ أهلاً وسهلاً.

- شكراً يا «سلفيدجي». سعيدة بأن أجدكم جميعاً بصحة جيدة.

كانت جدّتي لأمي تلهث من صعود الدرج حتى إنها وجدت عناء في قول هذه العبارة.

كان الجميع ينتظرون.

جلست الجدّتان وجهاً لوجه على ديواني الحجرة الكبيرة. قالت جدّتي لأمي بين نشيجين: «ابنتي، الصغرى، ذهبت للتطوع مع الثوار».

أطلقت أمي زفرة وتهالكت فوق الديوان. وبقيت عينا جدّتي لأبي جامدتين. قالت أمي بصوت خافت: «فكّرت في ما هو أسوأ».

استمرت جدتي لأمي تبكي بدموع حارّة وقالت: «ها هي ذي ابنتي ترحل في الوقت الذي كنت أفكّر فيه بتزويجها. كنت أحضّر جهازها. رحلت وتخلّت عن كل شيء. في هذا الشتاء، وحدها في الجبال. في السابعة عشرة. تركت كل مطرّزاتها من غير أن تنهيها. مبعثرة في البيت. أوه! يا إلهي!»

قالت جدتي لأبي: «هه، هدّئي نفسك، لقد قلت في سري: «من يدري ما الذي جرى!» ولكنها في الواقع مع رفاق. لقد ذهبت ولن تعيديها بالبكاء. نتمنّى أن تعود يوماً بخير».

بدا وجه جدتي لأمي الذي يسبح بالدمع أكثر إثارة للضحك.

ـ وشرف العائلة، والقيل والقال، يا «سلفيدجي»!
قالت جدتي لأبي:
ـ شرفها تَبَعٌ لشرف رفاقها. حضّري لنا فنجان قهوة يا ابنتي.

وضعت أمي ركوة القهوة على النار. لم أستطع تمالك نفسي من الفرحة. واغتنمت فرصة الاضطراب العام فهبطت الدرج أربعاً أربعاً وهرعت إلى بيت «ايلير». كنت قد نسيت تماماً أننا متخاصمان. بدا لي مقطّباً.

ـ اسمع يا «ايلير» لقد التحقت خالتي بالثوّار.

ظل «ايلير» واقفاً مصعوقاً.
ـ حقاً؟
قصصت عليه كل ما كنت أعرف. ظل برهة مفكّراً. ثم قال أخيراً كالمغضب:
ـ و«عيسى»، لماذا لا يذهب أيضاً؟

لم أكن أدري بماذا أجيب. قال «ايلير»:
ـ ها هو ذا في غرفته مع «جعفر». إنهما يقضيان النهار في إدارة الكرة الأرضية بإصبعيهما.

صعدنا. كان باب غرفة «عيسى» موارباً. دخلنا «ايلير» أولاً وأنا خلفه. تظاهرا بأنهما لم يلحظانا. كان «عيسى» جالساً على كرسيّ وذقنه في قبضته. بدا منزعجاً جداً. قال «جعفر»:
ـ حكمهم خيرٌ من حكمنا. فما داموا قد أمرونا بالبقاء فمعنى ذلك أنه ينبغي ان نبقى.

ظلّ «عيسى» صامتاً. قال «جعفر» بعد قليل:

ـ جبهة النضال تمتدّ إلى كل مكان. حتى إنه ربما كان البقاء هنا أكثر أهمية.

ران الصمت مجدّداً. وكنا واقفيْن بلا حراك. وكانا لا يزالان يتظاهران بأنهما لا يريانا. عندها قال «ايلير»:

ـ وأنتما، لماذا لا تلتحقان بالثوّار؟

التفت «جعفر». وظل «عيسى» برهة قصيرة كالمتحجّر. ثم إنه نهض بغتة واستدار وصفع أخاه.

رفع «ايلير» يده إلى خدّه. كانت عيناه تقدحان شرراً ولكنه لم يبكِ. وخرجنا الواحد بعد الآخر نجرّر أذيال المهانة. نزلنا الدرج صامتيْن ودلفنا إلى الفِناء. كانت نوافذ غرفتهما فوق رأسينا. رفعنا أعيننا بغضب وأخذنا نصيح: «ليسقط الخونة!»، «لتسقط حرب الإخوة».

صُفق باب هناك فوق. أسلمنا سوقنا للريح ووجدنا أنفسنا في الشارع.

عندما رجعت إلى البيت كانت جدّتي لأمي قد ذهبت.

لم يكن من حديث كل تلك الأيام إلا عن المتطوعين الجدد المنضمّين إلى الثوّار. وكانت النسوة يفتحن نوافذهن كل صباح ويتبادلن الأخبار الجديدة.

ـ ابن أخت «بيدو شريف» الآخر تطوّع.

ـ آه! صحيح؟ وأنت ألم تسمعي حديث ابنة آل «كوكوبوبو»؟

ـ يبدو أنها ذهبت هي الأخرى.
ـ يُقال إن رجال «عيسى توسكا» قتلوها.
ـ لست أدري. أما «عبده بابا رامو» فلم يرجع بعدُ. إنه ما زال يبحث عن جثة ابنه المسكين.
ـ يا للعجوز المسكين. يطوف الجبال في هذا الشتاء!

كانت جدّتي والأم «بينو» وامرأة «بيدو شريف» جالسات على الدواوين يحتسين القهوة حين قُرع الباب. ووسط دهشة الجميع ظهرت السيدة «مينور».

ـ هيه، ما أخباركن؟ لقد فكّرت في أن أصعد برهة لرؤيتكنّ. إننا لم نلتقِ منذ الغارات.

قالت أمي:
ـ أهلاً وسهلاً أيتها السيدة «مينور».
جلست «مينور هانم» بجانب جدّتي. قالت السيدة «مينور» وهي تهزّ رأسها:
ـ سمعت بالمصيبة التي حلّت بكم. إنها لمصيبة حقاً يا «سلفيدجي» المسكينة!
ـ أجل، الحياة كلها بلايا.
ـ صحيح يا «سلفيدجي»، صحيح جدّاً.

وإذ قامت أمي لتصنع لها فنجان قهوة فقد شيّعتها بناظريها إلى الباب. قالت بين أسنانها: «يلجأن إلى الجبال، تلكنّ الكلبات!»
لم يُجبها أحد.

أحضرت أمي القهوة.

قالت السيدة «مينور»: «هناك فوق لا يجد الفتيان والفتيات غضاضة في المضاجعة. سترين أنهن سيعُدن إلينا والأطفال على أذرعهن».

شحُبت أمي. أصبحت عبارة السيدة «مينور» قاسية. وبدا أن سِنًّا ذهبية على يمين فمها كانت تبتسم عن الجميع. استأنفت قائلة: «ولكنهم الآن يأسرونهم كلهم الواحد تلو الآخر. لا يعرفون إلى أين يذهبون. إنهم بلا ثياب ولا غذاء. وسط الشتاء والذئاب. ثم إنه يقال إن كثيرات منهنّ يَجِدْنَ مشقّة في التحرّك. طبعاً... ما دمن حبالى.»

قالت جدّتي:

ـ خلّصينا يا سيدة «مينور»، قد تكون تلك تجريحات.

أعقب هذه الكلمات صمت ثقيل.

أدارت أمي رأسها لإخفاء دموعها وانتقلت إلى الغرفة المحاذية. قالت جدّتي: «لقد قسوتِ كثيراً».

حاولت عينا السيدة «مينور» الزجاجيتان أن تبتسما، ولكن في هذه اللحظة نهضت امرأة «بيدو شريف» بتعالٍ وقالت: «القذرة الشرسة!» وذهبت للقاء أمي في الحجرة الثانية.

قالت الأم «بينو» من غير أن تتوجّه إلى أحد: «إنها نهاية كل شيء.»

وقفت السيدة «مينور» حمراء من الغضب.

لم تتحرّك جدّتي من مكانها. كانت تنظر خارجاً إلى الأرض التي اجتاحها الشتاء.

* * *

«فتيان وفتيات يجتمعون في الأقبية ليغنّوا أغاني ممنوعة. يقولون إنهم يريدون قلب العالم القديم وبناء عالم جديد.

ـ عالم جديد؟ وكيف سيكون هذا العالم الجديد؟

ـ هم الذين يعرفون ذلك يا أمي العزيزة، هم وحدهم. ولكن أصغي إليّ قليلاً، اقتربي. يقال إن هذا العالم الجديد ينبغي أن يُسفك دم لبنائه.

ـ أظن ذلك. إذا كان يضحّى ببهيمة قرباناً عند بناء جسر فمن يعلم ما يلزم لبناء عالم جديد كامل.

ـ مذبحة.

ـ يا إلهي، ما الذي تهرفين به؟»

* * *

مقطع إخباري

... حسب النشرة التي تحمل الرقم ١١٨٧. أُبيد عدد لا يحصى من الجنود والدّبابات الروسية بنيران الألمان القاتلة. معركة حجمها بحجم نهاية العالم. صرّح موسوليني أن الجيشين الألماني والإيطالي كانا وحدهما قادرين على التغلّب على هذا الشتاء، شتاء من القسوة بحيث لم يُشهد له مثيل منذ مئة وأربعين عاماً. تيمشنكو يهيم دامياً في سهوب روسيا التي تحوّلت إلى ركام من الجثث. دعاوى. إجراءات تنفيذية.

ملكيـة. وقـائـع جـديـدة تقـدّم بهـا آل «كـارلاش»ـ شفـرات «جيليت». ماركة مسجلة. لا خـوف من الخدوش. أمنـع كل تجمّع في الشارع والساحات والمنازل. آمر بـأن تتوقف مؤقتـاً الأعـراس والمـآتم. المقـدّم «بـرونـو أرسيفـوكـال». عنـاوين قابلات... القانونيات.

١٥

كان قد نُشر إعلان على بقية من جدار منزل متهدّم. وكنا نأتي للعب كل يوم في تلك الأطلال. وإذ كانت تمتدّ في بؤسها فقد كانت كريمة معنا. كنا نأخذ منها كل مـا يعجبنا، ونهـدم بقايا صغيرة من الجدران وننقّل الحجارة من أماكنها من غير أن يتبدّل مظهر الأنقاض كبير تبدُّل. فبعد أن تحمّل البيت النيران التي حوّلته في بضع ساعات إلى طلل كان قد أصبح الآن غير مبالٍ تماماً وأخذ يتحمّل كل الإصابات. وكانت بعض القضبان الحديدية البارزة من الجدار تذكّر بأصابع يـد متجمّدة. وعلى هذه القضبان بالذات كان الإعلان معلّقـاً. وكان عجـوزان قد توقّفا يقرآنه. كان الإعلان مكتوباً بالآلة الكاتبة باللغتين الألبانية والإيطالية:

«يجـري البحث عن الشيوعي الخـطير «أنـور خوجـا»؛ العمر: ثلاثون؛ القامة: طويلة. يضع نظّارتي شمس. مكافآت

لكـل من يسهم بمعلومـات للقبض عليـه: خمسـة عشـر ألف «لـكّ». لكل من يقبض عليـه: ثـلاثـون ألف «لـكّ». قـائـد المدينة: «برونو ارسيفوكال».

شدّني «ايلير» من كمّ سترتي، وقال لي في أُذُني: «ذاك بيته».

ـ بيت «أنور خوجا»؟

ـ نعم.

ـ كيف تعرف ذلك؟

ـ قال ذلك أبي لـ «عيسى» ذات يوم.

ـ وأين هو الآن، «أنور خوجا»؟

ـ بعيداً، بجوار «تيرانا».

أرسلت صفرة إعجاب:

ـ وصلت به قدماه إلى «تيرانا»؟

ـ بالتأكيد.

ـ وهل هي بعيدة جداً من هنا، «تيرانا»؟

ـ بعيدة جداً. ربما ذهبنا إليها أيضاً حين نكبر.

توقّف رجل آخر أمام الإعلان. ابتعدنا.

في البيت وجدت «دجدجو» و«الأم «بينو». كانتا تشربان القهوة مع جـدّتي. قلبت «دجدجـو» فنجانهـا بحيطة وقـالت: «يبدو أنهم يشنّون الآن نوعاً جديداً من الحرب. لا أدري كيف يسمّون ذلك، الصراع مع الطبقات أو صـراع الطبقـات. لأن تكون هذه حرب، فالحق أنها حرب يا عزيـزتي «سلفيدجي».

حرب لا كالأخريات. الإخوة يتقاتلون والابن يصرع أباه. وفي بيته نفسه، على المائدة. يحدجه لحظة ثم يقول له إنه لا يعترف به أباً ويُفرغ رصاصة في رأسه».

قالت الأم «بينو»: «إنها نهاية كل شيء».

استأنفت «دجدجو» قائلة: «يبدو أن رجلاً يدعى «غول بلّوما» من حيّ «غجوبك» يسير في الطريق وهو يصيح «ماك كارلاش هذا سوف أسلخ جلده حيًّا. وسوف أدبغه في مدبغته بالذات وأصنع منه حذاء أرقص به!»

قالت أمي: «ياما أكثر ما سنسمع».

قالت «دجدجو»، «اسمعي يا عزيزتي «سلفيدجي». كنّا نظنّ أننا انتهينا من هذه الاضطرابات، ولكن يبدو أن أصعب الأمور هي تلك التي سنقاسيها. هل تذكرين «أنور»، ابن «خوجا»؟»

ـ ذلك الذي ذهب للدرس في بلاد الافرنج؟ طبعاً أذكره.

قالت الأم «بينو»:

ـ وأنا أيضاً أذكره.

ـ اعلمن أنه يقال إنه هو الذي يدير العراك. وهو الذي اخترع على ما يبدو هذه الحرب الجديدة التي حدّثتك عنها قبل قليل.

قالت جدّتي:

ـ يصعب عليّ تصديق ذلك. لقد كان فتى مهذّباً جداً.

ـ أجل، مهذّب جدّاً يا «سلفيدجي»، ولكن يقال الآن إنه وضع نظارتين سوداوين كيلا يعرفه أحد وأنه مشغول بالحرب.

تنهّدت الأم «بينو» وقالت:

ـ الحرب، مرة أخرى!

قالت جدتي:

ـ ما باليد حيلة، ينبغي الاعتقاد بأن هذا العالم لا يستغني عنها. بلغت هذا العمر من غير أن أرى أبداً يوم سلام حقيقي واحداً.

أطلقت أمي زفرة. قالت «دجدجو» محطِّمة الصمت:

ـ يبدو أن بنت «كارلاش» عادت من إيطاليا. يا إلهي أيّة فضيحة. التنانير فوق الركبة، والثياب من نسيج ناعم مثل جلد الحيّة، ثياب تسمح برؤية ما ينبغي أن يُرى. وما لا ينبغي. ليس لها من عمل طوال النهار سوى التبرّج وتشقير الشعر والتدخين والحديث بالإيطالية. إنها تشتكي قائلة: «ما هذا البلد القذر يا أمي! كيف استطعت يا أبي إعادتي إلى هذا الحُجر!» وهي تندب حظها صبح مساء. هذه هي الحال يا «سلفيدجي».

قالت جدتي:

ـ ما باليد حيلة. هكذا تعود الفتيات عندما يغادرن بيوتهن.

أمّنت الأم «بينو» قائلة:

ـ أجل، أجل. إنه العالم بالمقلوب.

وفي اليـوم التالي، وإذ كـان «ايلير» قـد سمع أحـاديث «دجدجو» فقد قال لي: «تعـال نذهب لـرؤية بنت «كـارلاش» العائدة من إيطاليا».

ـ أهي جميلة؟

ـ أجل، جداً. شعرها بلون الشمس. تظلّ في نافـذتها حالمة وشعرها يتماوج مع الريح.

أسرعت في الخروج. اجتزنا زقـاق «المجانين» وتـوقّفنا أمام بيت آل «كارلاش». كانت بالفعل مرتفقة نافـذتها وكـأنما الشمس في شعرها حقاً. لم أكن قد رأيت مثله قط في أية امرأة أخرى من نساء المدينة، باستثناء شعر إحدى المومسات، تلك التي قتلها «رامز كورتـي» قبـل العام المـاضي وكانت النتيجـة إغلاق بيت الدعارة مدة ستة أشهر.

هه، كيف تجدها؟

ـ رائعة.

بدا «ايلير» مسروراً بأن أكون من رأيه.

بقينا طويلاً بقرب بيت آل «كارلاش». التقت بنا عجوزان متصابيتان. كانت إحداهما محدودبـة تمامـاً. ثم مرّ «جـرجي بولا». كان شاحباً وبدا أنه خرج للتوّ من المستشفى. نـظر كلّ منا إلى الآخر. ثم مـرّ «مقصود». كـان يتأبّط رأسـاً مقطوعـاً. غادرت بنت «كارلاش» نـافذتهـا. وانتظرنـا أن تعود للظهـور، ولكن عبثاً. لم نكن ندري الآن إلى أين نذهب. كان الشارع مقفراً. برزت امرأة «بيدو شـريف» في نافذتها ونفضت يديهـا

واختفت. انغلق بـاب «نـازو» بـلا ضجّة بعـد أن اجتـازه «مقصود».

سُمـع على الفور صـوت عيارات من بنـدقية. طقـطقـة مقتضبة. ثم أخرى. ثم طلقات متفرّقة. هرع أناس من شارع «السـوق». كان من بينهم «هـاريلا لـوقا». صـاح: «امشـوا، احتموا! قُتل أحدهم!»

ظهرت أم «ايلير» عند بابها وصاحت به: «ايلير، ادخل بسرعة!»

أنـا أيضـاً سمعت أنهم ينـادونني. أُغلقت الأبـواب بضجيج. ثم سمعت من جديد أصوات طلقات.

انتشر الخبر انتشار البرق: لقد قُتل قائد المدينة «بـرونو ارسيفوكال».

قـطع السكونَ في وقت متأخر من الليـل طرقـاتٌ على باب. قالت جدّتي: «الطرق على باب «مان فوتسو»، وذهبت لفتح النافذة.

سُمـع من الخارج صـوت أقدام ثقيلة وكلمـات إيطاليـة وصيحات: «ولدي! ولدي!» ثم ران الصمت. كان قـد قُبض على أحدهم.

أغلقت جدّتي النافذة وقالت: «لقد ساقوا «عيسى»».

كانت جنازة «أرسيفوكال» مهيبة. ألقيت خطب في وسط المـدينـة؛ ثم سـار مـوكب الجنـازة إلى المقبـرة على صـوت الموسيقى العسكرية. كانت الآلات اللامعة بأفواهها المفتوحة

بشكل زنابق ترسل أصواتاً كالنحيب. وكان الضباط الفاشست الطوال المهيبون اللابسون السواد يتقدّمون على مهل. ثم الراهبات... وكان النعش الممدّد فيه «أرسيفوكال» يترجّح بتؤدة. وكانت تشرئب من آلاف النوافذ رؤوس نساء شابّات وعجائز، ورؤوس أولاد. كانت المدينة تشهد رحيل قائدها السابق. لسوف تضجّ بعض الوقت أجزاء من اسمه: «ر. س. ي. ف؛ أ، ر، س؛ و. س؛ ل، على الجدران مع أشلاء الإعلانات والأوامر الممزّقة. ثم يقتلعها المطر نهائياً وتلصق مكانها في الموضع المخصّص للإعلانات إعلانات أخرى موقّعة من القائد الجديد.

أمطرت أربعة أيام متوالية. كان مطراً قديم العهد متجانساً. (قال «زيفو غافو» في مقدّمة وقائعه إنه هطل ذات مرة على العالم مطر استمر ثلاثين ألف عام.) تحت هذا الوابل شُنق «عيسى». تمّ تنفيذ الإعدام عند الفجر في قلب المدينة. وفي الوقت نفسه لقيت فتاتان مصير «عيسى». كانت شعورهما تقطر مطراً. أما «عيسى» فلم تكن له سوى ساق واحدة. وكان ذلك يُضفي عليه مظهراً فظيعاً، مظهر مخروط مقلوب. وعلى وجهه المشوّه بدت نظّارتاه وحدهما حيّتين. وكان على صدر كل من المشنوقين قطعة قماش كتب عليها اسمه. وكان قائد الـ«بالي كومبيطار»، «آزم كورتي» عمّ «جعفر»، وكان قد اشترك في إعدام «عيسى» هو و«ماك كارلاش»، يرفع بعصا أثواب المشنوقين. وترجّحت سوقهم النحيلة البيضاء لحظة ثم

استعادت جمودها. وكانت أم «ايلير»، وقد أفلتت ممّن كانوا يحاولون إمساكها، تركض في الشوارع كالمجنونة وهي تصرخ: «ولدي! ولدي!» وهرعت إلى المشنقة وأحاطت بذراعيها وشعرها ساق ولدها الوحيدة. «ولدي، ولدي، ما الذي فعلوه بك!» اختلج الشكل المخروطي. وقعت نظّارتاه. جمعت المرأة الزجاجتين المكسورتين وشدّتهما إلى صدرها. «صغيري، يا صغيري.»

في المساء نفسه ذهب «جعفر» الذي كان ملاحقاً أيضاً إلى بيت عمّه «آزم كورتي»، ولم يكن قد داس عتبته منذ مدة طويلة. قال له: «عمّي، إنهم يبحثون عني، ولكنّي نادم على ما فرط مني.»

ـ نادم؟ يا لحُسن الطالع يا ابن أخي. تعال أقبّلك. كنت أعلم أن هذا اليوم سيأتي. أرأيت ما فعلوا بصديقك؟

قال «جعفر»:

ـ نعم.

أمر «آزم» نسوة البيت بإحضار عرق ولحم مشوي وقال لابن أخيه:

ـ سوف نحتفل بهذه المصالحة.

جلسا إلى المائدة وقال «جعفر» لعمّه:

ـ سوف تروي لي الآن يا عمّ كيف تمّت قضية «عيسى».

قصّ عليه «آزم» الوقائع. وكان وهو يشرب ويأكل يصف له تفاصيل المذبحة. وكان «جعفر» يُصغي. قال له عمّه:

ـ ولكن ما بالك؟ إن وجهك يمتقع!
ـ ربما.
ـ الكتب هي التي أضعفت دمك. أصابعك أيضاً نحلت.

نظر «جعفر» إلى أصابعه، ثم أخرج ببرودة أعصاب مسدسه من جيبه. جحظت عينا «آزم». حشر «جعفر» ماسورة مسدسه في فمه الملآن. اصطكّت أسنان «آزم» عند ملامسة المعدن. ثم فجّرت الرصاصات، الواحدة تلو الأخرى، فكّيه وصدغيه وجمجمته. وسقطت على الطبلية مختلطةً قطع من اللحم الذي لم يتم مضغه جيداً وأشلاء من رأسه.

خرج «جعفر» وسط عويل بنات عمّه وأبنائه. وفي اليوم التالي حلّقت الـ«بولدوغ» فوق المدينة لترمي منشورات متعدّدة الألوان فيها هذه الكلمات: «قتل الشيوعي «جعفر كورتي» عمّه على المائدة العائلية. أيها الآباء والأمهات احكموا بأنفسكم على الشيوعيين!»

في المساء أُحضرت إلى الساحة الكبرى جثث ستة أشخاص أعدموا بالرصاص في سجن القلعة. تُركت هناك مكدّسة الواحدة فوق الباقيات ليتمكن الشعب من رؤيتها. وكتبت فوق شريط من القماش الأبيض هذه العبارة بحروف كبيرة: «هكذا نردّ على الإرهاب الأحمر».»

كان المطر قد انقطع. وكانت الليلة شديدة البرد. وعند الفجر كان الصقيع قد غطى جثث الذين أُعدموا. بقيت تلك

الجثث في الساحة طوال النهار. وفي صباح اليوم التالي اكتُشفت جثث أخرى في الطرف الآخر من الساحة. وقد كتبت على قطعة من القماش هذه الكلمات: «إليكم كيف نردّ على الإرهاب الأبيض.»

هرع بعض رجال الدرك لرفع الجثث، لكنّهم منعوهم من ذلك وهم يأمرونهم بأن يقصّوا أولاً آثار الإرهابيين. لم يكن أي من حرس النوبة قد شكّ في الليلة الماضية بما يريب حين وصلت حوالي منتصف الليل عربة الخدمات البلدية يجرها الحصان الهرم «بالاش» الذي تعرفه المدينة بأسرها. كانت العربة مغطاة كالعادة بغطاء مشمع أسود. وحوالي الفجر مرّ بجانبها أحدهم فسحب المشمّع بطريقة آلية وتمّ اكتشاف الجثث المرميّة كيفما اتفق بعضها فوق بعض.

كان الناس يعودون من قلب المدينة كالحي الوجوه: «اذهبوا وانظروا!»

- اذهبوا وانظروا في الساحة. مذبحة حقيقية!

- أمسكوا الأولاد. أعيدوهم إلى البيوت!

هزّت جدّتي رأسها وقالت ساهمة:

- أي زمن!

كانت المدينة مصطبغة بالدم. وكانت جثث الذين أعدموا ما تزال في الساحة. وكانت الكومتان قد غطّيتا بالقماش المشمّع. وبعد الظهر خرجت «هانكو» الشمطاء التي لم تجتز عتبة منزلها منذ تسعة وعشرين عاماً واتجهت صوب قلب

المدينة. وكان الناس يبتعدون من طريقها مشدوهين. وكانت عيناها التائهتان تبدوان وكأنهما تلحظان كل شيء من غير أن تثبتا على شيء.

سألت وهي ترفع عصاها:

- من هذا الرجل الواقف على ذلك الحجر؟

- إنه تمثال أيتها الأم «هانكو».

- اعتقدت أنه ابن «عمر»

- هو بالذات أيتها الأم «هانكو». لقد مات منذ مدة طويلة.

ثم طلبت أن ترى القتلى. وتوجّهت إلى كومتي الجثث على التوالي ورفعت الغطاءين المشمّعين وتأملت الموتى طويلاً. سألت وهي تشير بيدها إلى الإيطاليين:

- من أي بلد هم؟

- من إيطاليا.

- غرباء؟

- نعم غرباء؟.

- وهؤلاء؟

- هؤلاء هم من مدينتنا. هذا من آل «تورو» وذاك من آل «جولا» وذيّاك من آل «أنغوني» وذلك من آل «مارا» وهذا من آل «كوكوبوبو».

أعادت الأم «هانكو» غطاء الكومة الأخيرة بيديها

المعروقتين ثم ابتعدت. سألتها امرأة وهي تنتحب: «لماذا كل هذا الدم. أليس بإمكانك أن تخبرينا؟»

التفتت ذات المئة عام، ولكن بدا أنها نسيت من أين صدر الصوت.

قالت من غير أن تتوجّه إلى شخص معيّن: «العالم يبدّل دمه. الإنسان يبدّل دمه كل أربع سنوات أو خمس، والعالم كل أربعمئة سنة أو خمسمئة. وهذا الزمن الذي نعيش فيه هو مواسم شتاء الدم.»

وإذ قالت هذه الكلمات سلكت طريق بيتها. كان عمرها مئة واثنين وثلاثين سنة.

* * *

شتاء. إرهاب أبيض. كانت هذه الكلمات شائعة في كل مكان. مثل الصقيع. وكان صباح مبكّر جداً. كنت قد استيقظت. نهضت وذهبت إلى الحجرة الكبيرة. كانت بعض الغيوم الكثيفة مثل إسفنجات مشربة بالوحل تنوء بثقلها فوق المدينة. وكانت السماء سوداء كالقار. مِزقة حادّة كانت تسمح وحدها بأن يندسّ ضوء خارق للمألوف. وكان ينزلق فوق السطوح الرمادية ويتوقف فوق بيت أبيض. كان البناء الأبيض الوحيد في الحيّ. ولم أكن قد لحظته حتى ذلك الحين. وكان يبدو في هذه الساعة الصباحية كئيباً بين البيوت الرمادية.

ما ذلك البيت؟ من أين برز؟ ولماذا يسمّـون ما يحـدث في هـذه الأيام الإرهـاب الأبيض؟ لماذا لا يسمّـونه الإرهـاب الأخضر أو الأزرق؟

كان الأبيض يخيفني أكثر فأكثر. كـانت الورود البيضـاء التي تراود ذاكرتي، وستائر الحجر الكبيرة، وقميص نوم جدّتي الأبيض، كانت تلك جميعاً مكتوباً عليها كلمة: «إرهاب».

* * *

مقطع إخباري

. . . مُـرُ. جميـع من تثبت عـلاقـاتهم بـالإرهـابيين يستحقّون عقوبة الإعدام. أمنع كل تجوّل من الساعة السادسة عشرة حتى السادسة صباحاً. قائد المدينة: «أميليو دو فيوري». جميع أذون التجوّل الليلي الممنوحة للقابلات القـانونيـات قد ألغيت. بناء على أمري يُعمد إلى إحصاء سكان المدينة من الحادي عشر حتى الثامن عشر. . .

* * *

١٦

كانت الطريق والجسر الممتدّ فوق النهر وطـريق «زلي» تعـجّ بالنـاس والبغال والشـاحنـات، وكـانـوا جميعـاً متّجهين شمالاً. كانت إيطاليا قد استسلمت. وقد دخلت المدينة أفواج طويلة من الجنود وأغطيتهم فوق أكتافهم. وكان قسم منهم ما

يزالون يحملون أسلحتهم. . أما الآخرون فكانوا قد رموها أو باعوها. وكان بلاط الشارع مفروشاً بالوحل الذي حملته مداساتهم. وكانت الشوارع تطنّ بالصراخ والشتائم بالطليانية. وكان جمع العسكر المتحرّك يستطيل أكثر فأكثر. فقسم من الرجال منطلقون لمتابعة طريقهم إلى الشمال، بينما كانت تصل أفواج جديدة قادمة من الجنوب أكثر اتّساخاً وقذارة من الأولى. كان الرجال المبلّلون بالمطر بلحاهم التي عمرها عدة أيام يصعدون على مهل وقد أنهكهم التعب في شارع «زلي» وهم ينظرون بدهش إلى البيوت الحجرية العالية.

كانت المدينة الشتوية تراقب المغلوبين باحتقار. إنهم لن يلبثوا أن يهيموا كالأشباح فوق الثلج وهم يتمتمون: «خبزاً، خبزاً!».

وكان «لوقان صديق الظل» عائداً من شارع «القلعة» وغطاؤه على ظهره. وكان يصرخ: «الجميع يرحلون. ليس في السجن نسمة واحدة. إنه لأمر مُبكٍ.»

رحلت الراهبات أيضاً. وكانت المومسات قد صعدن إلى شاحنة، وعندما تحرّكت هذه تبعها «لام سبيري» راكضاً مدة لا بأس بها تحت المطر. كانت عجلات المركبة ترشّه بماء الشارع وهو يركض كالمجنون مشيراً بيديه إلى البنات اللواتي كن يرددن تحيته وهنّ مكدّسات في صندوق الشاحنة تعصف بهن الريح. أخيراً بعدت الشقة بينه وبين المركبة فعاد إلى قلب المدينة مقطّب الوجه مغمغماً بلا انقطاع: «: «كيف أفعل من دونهن؟...»

استمر على الطريق تدفّق أفواج طويلة بدت وكأنها لا تنتهي قطّ. وكانت المدينة بأسرها ملطّخة بالوحل. قالت الخالة «دجيمو» التي جاءت تزورنا في يوم من تلك الأيام: «ما هذا القرف يا عزيزتي «سيلفيدجي»؟ لم تعد الدنيا سوى مَوْحلة.»

- هكذا تذهب الممالك.

قالت الخالة «دجيمو»:

- تذهب لتفسح المكان لأخرى، ولا تترك وراءها سوى الوحل والخراب.»

كانت المدينة قد تقنّعت بقناع من البشاعة. فلم يكن لون الوحل الأسمر المحمرّ ينسجم قطّ مع لون المدينة الرمادي القاتم. وكانت إيطاليا وهي تنسحب ترشّ كل شيء وكأنها عجلات خلفية في شاحنة.

كنت قد جلست أمام نوافذ الطبقة الثانية أنظر إلى الجيش الهارب. كانت ريح الشتاء قد حملت أسمال اليونان، وها هي ذي إيطاليا غارقة في الوحل.

وكانت جدّتي والخالة «دجيمو» قد سوّتا فوق أنفيهما نظّاراتهما القديمة التي كنت أراها مضحكة جداً بزجاجاتها المجرّحة، وأخذتا تتأملان الطريق المفروشة بالجنود. قالت الخالة «دجيمو» ها هي ذي إيطاليا وقد هزمت. لقد أصمّت آذاننا طويلاً بضجيجها.» قالت جدّتي: «لم يكن من السهل تحمّلها.» قالت الخالة «دجيمو»: «وإلى أين يذهب هؤلاء

الشبّان في هذا البرد والبؤس؟»قالت جدّتي: «على الطرقات، وإلى أي مكان آخر يستطيعون الذهاب؟»

- يا لله للأمهات المسكينات اللواتي ينتظرنهم!

قالت جدّتي:

- الأمر هكذا دائماً عندما تُهزم الأمم في الشتاء.

تنهّدت الخالة «دجيمو» ثم قالت بعد لحظة:

- أغطية إلى ما لا نهاية.

استمرّ تحرّك الجيوش طوال الليل. وفي صباح اليوم التالي كان يخامر المرء وهو يرى صفّ الجنود ما يزال ممتدّاً فوق الطريق أنه الصفّ الذي رآه في العشيّة.

بعد ليلة قلقة استيقظت المدينة الملوّثة بالوحل أشدّ عبوساً مما كانت. وكانت عصابات «عيسى توسكا» قد توافدت إلى المدينة طوال الليل وهي تُنشد أناشيد قديمة. وتبعتها حوالي الفجر بعض أفواج من رجال الأمن. وفي الصباح كان هؤلاء الرجال الذين اختلطوا بجمع العسكر الطليان المتعب يسيرون جنباً إلى جنب تقريباً عند مفترقات الطرق وفي الساحات وهم يتظاهرون بأنهم لا يرون بعضهم بعضاً. ومن هنا وهناك قامت بعض الاحتكاكات بين دوريات رجال الأمن وعصابات «عيسى توسكا». ولكنْ أهم صدام حدث حوالي الظهر بين رجال الأمن والإيطاليين. فقد طلب الأوّلون من بعض الوحدات الإيطالية المنهكة التي كانت تتابع طريقها إلى الشمال أن تسلّمهم جزءاً من أسلحتها وعتادها. ورفض الطليان

شروط المبادلة المعروضة عليهم. وبنتيجة المساومات، وبعد أن وصلت الأمور بين الطرفين إلى الشتائم، انتقلت الكلمة الفصل إلى الرشّاشات.

عندها حاول بعض الضباط الإيطاليين الطيران بـ «البولدوغ» التي كانت جاثمة منذ وقت طويل مهجورة فوق أرض المطار. وبعد عدة فُواقات وزمجرات تمكّنت الآلة المسكينة من الارتفاع بضعة أمتار والطيران كالمذعورة لترتطم بالأرض في حقل على بُعد بضع مئات من الأمتار مُنهِية بهذا الطيران الأخير القصير بقدر ما هو معيب قصّة المطار العسكري.

وبعد حوالي ساعة من الاصطدام الدامي بين الإيطاليين ورجال الأمن ظهر على الطريق الفوج الأول من الثوّار بعد أن قطع أرض المطار. وقد شقّ جمعَ الجنود الإيطاليين طويلَ الصف دقيقة وفي طليعته العلم الأحمر، ثم صعد إلى المدينة سالكاً طريق «زلي». وكان فوج آخر يهبط من التلّة الشمالية.

وترامى من بعيد صياح ممتدّ: «الثوّار! الثوّار!»

صعدت أربعاً أربعاً إلى الطبقة الثانية من أجل فرجة أوضح. بدت لي الأفواج دقيقة. كنت أتوقّع أن أرى عمالقة يحملون أسلحة برّاقة، بينما لم يكن هناك سوى فوجين عاديين جدّاً يسبقهما علم أحمر. إلى أين كانا يذهبان؟ هل كانا يدريان أن المدينة في هياج وأنها مسلّحة من رأسها حتى أخمص قدميها؟ لا بدّ أنهما كانا يجهلان ذلك لأنهما استمرّا في

التقدّم بسرعة إلـى قلبها. وما هي إلّا أن قطع فوج ثالث أدقّ من الأوّليْن وأقلّ هيبة الجسر وسط الجنود الطليان. وكـان في طليعته هو الآخر علم أحمر.

لمـاذا لم يكن عدد أفـراده أكبـر؟ لمـاذا لم يكن يمْلك شاحنات ومدافع ميدان وأخرى مضادّة للطائرات وفرقة موسيقية ولا شيء غير علم في الطليعة وبضعة بغـال محمّلة بالـذخائـر والجرحى؟

وصل من التلة الشمالية فوج رابع في الوقت الذي كان فيه الفوج الأوّل يصعّد في شارع «فاروش». ولقد تدافع الناس إلى النوافذ متكلّمين بصـوت مرتفـع ملوّحين بمناديـل. وأخذ أحدهم يعزف لحناً على الهارمونيكا.

نـزلتُ راكضـاً إلى الشـارع. كـانـوا يقتـربـون شـاحبي الوجـوه نـاحلين، لابسين ثيابـاً إما فضفـاضة جـداً وإما ضيّقـة جداً. أخذت أبحث بناظريّ عن خالتي. هه، ها هي ذي فتاة. ثم أخرى. لا. وأخرى أيضاً. لا، ليست هي. ولا «جعفر». لا أحـد ممّن أعرف. كـانـوا متّجهين صـوب قلب المـدينـة. وبطريقة آلية مشيت إلى جانبهم مع ثُلّة من الأولاد. ما زلت لا أرى خـالتي. ربما كـانت في الفوج الآخـر. من النوافـذ كان الناس مستمرّين في تقـديم تحيّاتهم. وكـان جمع من النسـاء يـركضن بجانب الفـوج وهنّ يمـطرن الثـوار بـالأسئلة. وكـان يحدث أحيانا أن تقبّل إحداهن فتى خرج من الصفوف.

كانت نوافذ السيدة «مينور» والسيدات الأخريات مغلقة.

اجتاحني بعض القلق. كنت أخشى أن يكون هنـاك على بُعدٍ أحد قد نصب لهم كميناً. وكان يساورني شعور بأن الفوج كان يقترب منه أكثر فأكثر. كانت المدينة لا تـزال قويّـة وضاريـة. وكان يخيّل إليّ أن عصابات «عيسى توسكا» المريبة، ورجـال الأمن ذوي البـزّات الفضفاضـة والشـوارب السـوداء والنسـور الـذهبية المـطرّزة على قبعـاتهم البيضـاء، وجمـع الإيـطاليين الخائبين المدحورين الذين لا يزالون مع ذلك مسلّحين، كـل أولئك كانوا بانتظار الفوج الهزيل لالتهامه.

هناك في المقدمة، في صفوفهم الأولى، بدا أن شيئاً قد حدث بالفعل. كانت تُسمع أصوات:

ـ حدث شيء ما.

ـ في المئذنة!

ـ ما الذي حدث في المئذنة؟

ـ العينان!

ـ ما بهما العينان؟

ـ بمسمار، مسمار!

ـ أرجعوا الأولاد.

ـ خذوا الأولاد!

أعادونا أدراجنا.

كان حقاً قد حدث أمر فظيع. فإذ كان فوج الثوار يقترب من وسط المدينة كان الشيخ إبراهيم الذي صعد إلى المئذنـة

لمشاهدة قدومه قد أخرج فجأة مسماراً كبيراً من جيبه وحاول أن يفقأ عينيه. وصعد بعض المارة بسرعة خاطفة إلى أعلى المئذنة وتعاركوا معه لانتزاع المسمار الدامي من يده. وحاولوا إنزاله ولكنه تمكّن بقوة ضاعفها الغضب عشرة أضعاف من الإفلات منهم لاستعادة المسمار وهو يصرخ بصوت أجش: «لا أريد رؤية الشيوعية!». وفي النهاية، وبعد جهود ضائعة لإنزاله إلى تحت، نزل الذين كانوا يحاولون تهدئته مهدّدين هم أنفسهم بالسقوط على الأرض وتركوا الشيخ فوق. وقد ظل وصدره إلى حافة المئذنة الحجرية ويداه متدليتان خارجها يرتّل موشحاً دينياً قديماً يبعث الرعدة في الأبدان.

وفي المساء كانت المدينة غاصّة برجال الأمن والثوّار ورجال «عيسى توسكا» وجمع من العسكر الطليان. كانت ليلة ثقيلة الوطء حافلة بالأصوات والصيحات وكلمات المرور السرّية وطقطقات حدوات الخيل والأقدام: «قف!... من هناك؟... الموت للفاشية!... الحرية للشعب!... قف!... لا تهتمّ... نحن رجال «عيسى توسكا»... قف!...»

قف! تراجع! الموت للخونة! ألبانيا للألبانيين. إلى الوراء، الوراء! الموت للفاشية! لا تُطلق! قف! هيّا تراجع إذن! الموت للظالمين! قف!»

كانت المدينة تلهث وكأنها في كابوس. كانت تهذي. وكان هديرها مفجعاً: كانت تستدعي الموت.

وفي الفجر هدأ كل شيء. كان المطر قد توقّف عن الهطول. وكانت السماء رمادية، بلون رمادي فاتح جداً. انزلقت امرأة «بيدو شريف» إلى الزقاق. قالت وهي تنفض يديها من الطحين: «لبس «عكيف كشاه» بزّة رجال الأمن. رأيته بأم عيني، الكلب، متدرّعاً كومة من الأحزمة وجُعَب الطلقات.»

قالت جدّتي: «خيرٌ له أن يَنْفَق.»

فُتح الباب. كان الداخل الأم «بينو». قالت الخالة «دجيمو» التي قضت الليل عندنا: «ماذا يجري؟ لا يُفهم شيء من شيء!»

سألت جدّتي: «من الذي يمسك بمقاليد المدينة؟».

أجابت الأم «بينو»: «لا أحد، إنها نهاية كل شيء.»

كانت المدينة بيد الثوّار. أدرك الناس ذلك حوالي الساعة الثامنة صباحاً عندما ظهرت دورياتهم في كل مكان. وكان رجال الأمن قد انسحبوا إلى حيّ «دونافا». وأما عصابات «عيسى توسكا» فقد اختبأت في مزرعة الأب «سليم». وأما الإيطاليون فكانوا يحتلّون طرفي الطريق ومجرى النهر وجزءاًمن أرض المطار.

كان الهدوء مخيّماً، وكانت جدّتي تشرب قهوة الصباح برفقة الخالة «دجيمو».

قالت «دجيمو» ساهمة: «يقال إن الثوّار سيفتتحون أنواعاً من المطاعم المشتركة الشيوعية.»

لم تجب جدّتي بشيء. أصلحت وضع نظارتيها على أنفها ونظرت خارجاً. «ما تلك الطَرَقات العنيفة؟ ألقي نظرة. أظن أنهم يقرعون باب «نازو».

لقد حزرت. كان الطارقون ثلاثة من الثوّار. كان أحدهم، الذي طرق، بيد واحدة، اليسرى. وكان الآخران ينظران إلى النوافذ. وظهرت في إحداها «نازو» وكنّتها.

سأل الثائر من تحت: «أهذا بيت «مقصود جيغا»؟

قالت «نازو»: «أجل، ذلكم هو».

قال الثائر: «قولي ل «مقصود» أن يخرج في الحال.

أجابت «نازو»: «ليس في البيت».

أين هو؟

يزور بعض أبناء عمومته.

افتحي. سنتحقق من ذلك.

بعد ربع ساعة خرجوا. أخرج الأكتع من جيب تبّانه ورقة صغيرة وأخذ يقرأ زاوياً ما بين حاجبيه.

بعد دقيقة كانوا يقرعون باب آل «كارلاش» الكبير. لم يُجب أحد أول الأمر. أعادوا القرع. ظهر أحدهم في النافذة.

- هنا يسكن «ماك كارلاش»؟

- أجل أيها السيد الثائر.

قال الثائر بلهجة آمرة:

- ليخرج هو وابنه.

ـ اختفى الرأس من النافذة. سادت لحظة سكون. أنزل الثائران الآخـران سلاحيهمـا من فوق كتفيهمـا. أعـاد الأكتـع القرع. كان الباب من حديـد وكانت الـطرقات تـدوّي بعيداً.

أخيراً قامت ضجّة في الداخل، وسمع نشيج وصيحاتُ امرأة. فُتح الباب وظهر «ماك كارلاش» أوّلاً. كان أحدهم يسحبه من كمّه إلى خلف. «لا تخرج يا أبي لا تخرج!» خرج. كانت هالتان سوداوان كبيرتان باديتين تحت عينيه. وكانت ابنته متعلّقة بذراعه وملتصقة به. تبعه ابنه شاحب الوجه ينتعل جزمة سوداء لمّاعة بالدهان. وكانت الفتاة تصرخ: «بابا» وهي متشبّثة به. وخلف الباب كانت امرأة تبكي.

قال «ماك كارلاش»: «ماذا تـريدون منـا؟». كان وجهـه الطويل يترجّح تبعاً للهزّات التي كان نشيج ابنتـه يحدثهـا في جسده.

قال الثائر: «ماك كارلاش، أنت وابنك محكـوم عليكما بوصفكما عدوّين للشعب»، ورفع بيده الواحدة رشيشه من فوق كتفه.

ارتفعت أصـوات عـويـل من فِنـاء البيت. قــال «مـاك كـارلاش»: «من أنتم؟ لا أعرفكم.» أرعـد الثائـر: «محكمـة الشعب»، ورفع رشيشه. عادت الفتاة إلى الصراخ.

احتج الرجـل: «لست عدوّ الشعب. أنـا مجرّد دبّـاغ، أصنع النعال للشعب.»

ألقى الثـائر نـظرة على نعليه الممـزّقين وصرخ: «أبعـد

الفتاة!» وصوّب ماسورة رشيشه نحو الرجل. أطلقت الفتاة صرخة حادّة وقالت بصوت خالٍ من كل نبرة: «أيها الكلب، اخفض هذا السلاح.»

قال الثائر: «اغربي عن وجهي أيتها القذرة»، وسدّد سلاحه إلى الرجلين.

قال أحد الآخرين: «لحظة يا «تار»، وحاول إبعاد الفتاة ولكن لم تسنح له الفرصة إذ هتف «ماك كارلاش»: «الموت للشيوعية!»

ارتعد الرشيش الممسوك بيد واحدة. انثنى جسد «ماك كارلاش» أوّلاً. حاول الثائر تجنّب إصابة الفتاة. عبثاً. تلوّت ملتصقة بأبيها وكأن الرصاصات خاطت جسدها بجسده. وأعقب لعلعة الرصاص سكون أصمّ. انهارت الأجساد الواحد فوق الآخر. اختلجت لحظة أخرى ثم بدا أنها استعادت هدوءها. وقد طفت جزمة ابن الدباغ اللامعة فوق كومة الأجساد الساكنة.

من خلف الباب كان يترامى صوت بكاء متواصل.

قال الثائر الأكتع لرفيقه: «لفّ لي سيكارة». كان وجهه مقلوباً. وبعد لحظة أعادوا أسلحتهم إلى أكتافهم وهمّوا بالابتعاد فإذا جَرْس أقدام ثقيلة يُسمع على بلاط الشارع. كانت دورية من الثائرين. كانوا ثلاثة طوال القامة كلهم ينتعلون مداسات بمسامير. اقتربوا.

- الموت للفاشية!

- الحرية للشعب!

سأل الذي كان يمشي في الوسط: «ما الذي حدث؟»

أجاب الثائر الأكتع: «قمنا بإعدام عدو للشعب.»

قال الثائر بنبرة صارمة: «الحكم؟»

أخرج الثائر «تار» من جيبه الورقة المذعوكة.

قال الآخر: «حسناً فعلتم».

همّ الرجال الثلاثة بالانصراف عندما وقع في اللحظة الأخيرة نظر أحدهم على شعر الفتاة. قال وهو يستدير: «أعد إليّ هذه الورقة».

حدّق الثائر «تار» في عينيه. ومن يده الوحيدة اندسّت على مهل، على مهل جداً، إصبعان في جيب تبّانه لإخراج الورقة.

أخذ الآخر يقرأها. قال: «أرى بين الذين أُعدموا فتاة. أين اسمها في ورقة الحكم؟»

قال الثائر «تار» وقد جمدت رقبته كما لو كان قد ضُرب: «ليس فيها».

- من الذي أطلق؟

- أنا.

- ما اسمك؟

- «تار بونجكو»

أمر رئيس الدورية: «أيها النصير «تار بونجكو» ضع سلاحك. إني أعتقلك».

خفض «تار» رأسه.

ـ سلاحَك!

تحرّكت يده مرة جديدة. قام بحركة من كتفه لسلّ السيْر الجلدي وقدّم الرشيش.

أجال الآخر بصره حواليه وتوقّف به عند فِناء بيت «زوانو» المهجور. قال: «هناك» وهو يشير بيده إلى الفِناء.

اتّجه «تار» إلى الفِناء.

قال الرجل لرفيقيه: «سوف تحتجزانه إلى أن يأتي الرفاق الذين سيحاكمونه.»

ـ حسناً.

ـ الموت للفاشية!

ـ الحرية للشعب!

جلس الثائر الموقوف على كومة من الحجارة. أخذ يتأمل جدران البيت المهجور الذي كان قد بدأ يتلف.

كان رفيقاه واقفيْن على مسافة معيّنة منه. وكانا صامتين. وفي الخارج كانت تترامى صرخات نسوة آل «كارلاش». كنّ يُدخلن الجثث إلى الفِناء. طلب الموقوف سيكارة أخرى. أعطياه إيّاها.

دخّنها. ثم أسند ذقنه إلى راحته. كان الآخران يسرّحان بصرهما خارجاً. سُمع صوت أقدام آتياً من الشارع. إنهم يصلون. كانوا ثلاثة.

نهض الرجل الموقوف. كان الحكم سريعاً. «أيها

النصير «تاربونجكو» أنت متّهم بقتل فتاة. هل هذا صحيح؟»

قال: «نعم».

- ماذا لديك للدفاع عن نفسك؟

- لا شيء. ليس لي سوى يد واحدة. أعداء الشعب قطعوا يُمناي. لا أحسن الإطلاق باليسرى. لم أتمكّن من تجنّبها...

- فهمنا.

عقدوا اجتماعاً مقتضباً، ثم تولّى أحدهم الكلام: «أيها النصير «تاربونجكو» محكوم عليك بالموت، سوف تعدم رمياً بالرصاص لأنك أفرطت في العنف الثوري.»

ران سكون. ثم إن الذي كان قد تكلّم أومأ إلى رفيقيْ «تار». سأله أحدهم بصوت لا حياة فيه: «الآن؟»

- أجل، الآن.

تصبّبت جبهتاهما بعرق بارد ففهم المحكوم عليه. ظل قرب الجدار ورفع بصره إليهما. رفعا سلاحيهما عن كتفيهما. رفع يده الوحيدة وحيّا بقبضته.

«عاشت الشيوعية!»

رَشَقٌ رصاص سريع. سقط الثائر منقلباً على رأسه فوق الصفائح الحجرية.

ابتعدا. كان الرفيقان يحثّان خطاهما. قال أحدهما: «فقدنا «تار» من أجل عاهرة قذره!»

صاح صوت من مكـان ما بعيـداً: «إنهم يقتتلون! إنهم يقتتلون!»

مدّت السيدة «مينور» أنفها من النافذة وقالت في تقطيبة: «عسى أن يلتهم بعضهم بعضاً!»

وإذ سمعها الثائران فقد رفعا رأسيهما، ولكن لم يكن في النـافذة أحـد. وقبض أحدهمـا على رشيشه وأطلق رشقـاً من الـرصاص على النـوافذ فسقط الـزجاج المكسـور على بـلاط الشارع.

* * *

حديث العجوز «سوز»
(في غياب الوقائع)

إنه مكتوب في الأسفار القديمة: «يحاول شعب من ذوي الشعور الشقر ان يحوّل هذه المدينة إلى رماد.»

* * *

١٧

كـانت جيوش الألمـان قد قـطعت الحـدود الجنـوبيـة. وكانت تزحف الآن إلى المدينة التي كان سكّانها يخلونها على عجل. كانت تلك المرة الثالثة تُهجر فيها المدينـة على امتداد عمرها الطويل. فأما المرّة الأولى فعندما تركها أهلها قبل ألف عام عندما حلّ بها الطاعون، وأما الثانية فقبل أربعة قرون عندما

اجتازت جيوش الامبراطورية التركية الحدود تحت راية الاسلام في المكـان الـذي تتحـرّك فيـه الجيـوش الألمـانيـة في هـذه اللحظة.

كانت المدينـة قد أخليت، وكـان المرء يستشعـر وحدة الحجر الكبرى.

حفلت ليلة الثلاثاء بالأصوات ووقـع الأقدام واصـطفاق الأبـواب. فقد كـان الناس يتجهّـزون للرحيل زُمَـراً من الأُسر الصـديقة ثم يُغلقـون أبوابهم الثقيلة ويسلكـون الطريق تحت جنح الليل إلى القرى المجاورة.

كـان قد اجتمـع في مدخـل بيتنا «مـان فوتسـو» و«بيدو شريف» مع زوجتيهما وأولادهما وكذلك «نـازو» وكنّتها. وأمـا «مقصود» فكان قد اختفى. كنت حزيناً بشأن جدّتي. فهذه المرة أيضاً لن تأتي معنا. ولا الأم «بينو». فقد كانت هذه تخشى أن تقوم أعراس في غيابها. ففي الإمكان أن يُحتاج إلى خدماتها. لقد برّجت خلال ستين سنة عرائس المدينة الشوابّ. وما كان بـوسعها الآن أن تخـلّ بواجبهـا. وقد احتجّت عنـدما حـاولوا إقناعها بترك المدينة بأن عروساً شابّة يُساء تبريجها هي أبشع ما على هذه الأرض، بل هي نهاية العالم. كلّا ثم كلّا.

رحلنا، وكنا نمشي بخطى غير متناسقة كالسكارى. وكنا نسمع وقع أقدام غير أقدامنا في الـظلام قدّامنـا وخلفنا. لقـد أخـذت المدينـة تفرغ. وعنـد مخرج المـدينـة بقيت زمـرتنـا الصغيرة وحيدة. وكـان «بيدو شـريف» يقود المسيـرة وفي يده

عصا. وكان أبي يتعثّر بحجارة على الدوام. وكان الآخرون يتمتمون ويشتمون ويسعلون وتزلّ أقدامهم في الحُفَر. كنّة «نازو» وحدها كانت تسير برشاقة وتمايل خفيف حتى في هذا الليل الكئيب. ربما لم تكن تعرف أن تمشي على غير هذه الشاكلة.

تجاوزنا الحقول البور. وعندما لاح القمر كنّا نسير على الطريق الكبرى. لم يكن قد سبق لي أن شاهدت أفظع من هذه الطريق في الليل بأثلامها اللامتناهية التي خطّتها عجلات الشاحنات وكانت تبدو في ضوء القمر خطوطاً سوداء تقود إلى الهلاك. تعثّرت «نازو» ثم عادت تمشي.

اجتزنا الجسر الذي يعلو النهر. وكانت تمتد أمامنا أرض المطار المهجورة التي كان علينا أن نقطعها. ولمحت من بعيد تلّة «الثالوث الأقدس» وخلفها مباشرة كتلة الجبل القاتمة سوداء متوعّدة قريبة بشكل مدهش كما لو أنها انتصبت بغتة لترى من الذي يمرّ.

كان القمر ـ الأم «بينو» يحاول أن يجمّل، أو على الأقل أن يلطّف، شكل المشهد الكئيب. ولكنّ ضوءه كان من الضعف بحيث أنه ما كان من شأنه وقد امتصّه الوحل والضباب بشَرَهٍ إلا تشويه كل شيء.

اختفى أخيراً وراء الغيوم.

قالت كنّة «نازو»: «لم يعد يُرى شيء». التفت الجميع خلفهم، وكانت المدينة قد امّحت بالفعل.

أطلق أحدهم أنّة خافتة.

كـان السهـل الآن والـطريق الكبـرى وتلّة «الثـالـوث الأقدس» وأبخرة الضباب التي لا اسم لها والجبل نفسه (كـان يصعب التصديق بأننا كنا نمشي صـوب جبل لأن محيـطه كان غير واضح المعالم بحيث يخيّل إلينا أن أمامنا حاشية من الليل أشدّ كثافة من سائره لا أكثر) كانت تلك الغارقـة جميعها الآن في الـظلمات قـد أخذت تحـكّ ذاتها وتتحـرّك بشكل أخـرق وكأنها مخلوقات متوحّشة من عهد ما قبل التـاريخ. وكنت قـد فقدت شيئاً فشيئاً الإحساس بالواقـع. وكان سيـرنا قـد أصبح سيراً بلا غاية، سيراً للسير، تيهاً في جوف الليل .وكنت أشعر بأني غير قادر على التفكير. فقد كنت متعوّداً على التفكير بين الجـدران وعنـد ملتقى الـدروب وفي الغـرف، وكـانت هـذه الأماكن المألوفة تنـظّم أفكاري على مـا يبدو، بينمـا غدا كـل شيء الآن خـارجها قـاسيـاً جـائـراً، لا مجـرّد مستعصٍ على الإدراك. وهـا إن الجبل المـائل بكـل جذعـه تقريبـاً فوق تلّة «الثـالوث الأقدس» يقرص لها رقبتها بهدوء. وها إن التلّة تُسلِم الروح.

عطس أحدهم. كان هذا الصوت المخلِّص مقتضباً ويا للأسف.

عـاد القمر إلى الـظهور. ومـا لبثت أبخرة الضبـاب أن زحفت نحـو ضوئـه مبلّلة لحاهـا به لتقـطّر ماءهـا فـوق وحـل السهل. وإذ أُخذ الجبـل على غرّة فـإنه مـا لبث أن ابتعد عن

التلّة، ولكن كان من الممكن الآن تمييز عضّة عميقة فوق عنقها بسهولة.

أدارت كنّة «نازو» رأسها مرة ثانية، وكانت المرأة الوحيدة التي لم تند عنها زفرة أو أنّة طوال المسيرة (ربما لأنها كانت تسير في قلب مملكة السحر الذي غدت ممارساته مألوفة لديها الآن) وقالت بين أسنانها: «المدينة».

سألتُ بصوت خافت: «أين هي؟»

ـ هناك فوق.

ـ ذاك النوع من الضباب.

ـ نعم.

هنالك كانت جدّتي.

اختفى القمر حاملاً معه أفكاري عن جدّتي. وانتهز الجبل فرصة الظلام فمال مجدّداً على التلّة.

سرنا هكذا طويلاً في الحلك. وكنا نصعّد الآن في أرض بشكل مُنْحَدَر. قال «بيدو شريف»: «إياكم أن تناموا».

كان «ايلير» بجانبي. قال لي: «كنت نائماً».

ـ كيف تستطيع؟

ـ لا أدري.

كنا ما نزال نصعّد. قال «مان فوتسو»: «النهار يطلع».

الحق أن نوراً ضئيلاً كان يضيء السماء، ولكن المرء كان يحسّ بأنها ستعدل بين لحظة وأخرى عن رأيها لتظلم من جديد.

توقّفنا فوق هضبة لنستعيد أنفاسنا. وكان السهل من بعيد، والطريق الكبرى، والتلال، والجبل، وأبخرة الضباب تتحرّر ببطء من سلطان الليل وتنتظر الصباح منهوكة القوى وهي لا تزال شاحبة من الكرب.

قال «ايلير»: «هه، انظر هناك.»

هناك في البعيد وسط العتمة الكدرة التي شكّلها مزيج من النهار والليل كان يرتسم نطاق المدينة. وكانت المرة الأولى أتأمّلها فيها عن بُعد. وكدت أصرخ من الفرح لأنني كنت قد شعرت طوال الليل بأنها تغوص، تغوص باستمرار إلى أسفل لتغطس في وحل السهل كسفينة قديمة تغرق.

كان أديم الأرض قد تخلّص في الوقت الحاضر نهائياً من الجنّ الذين كانوا ينقضون ظهيرة وأخذ ينكشف رويداً لنور النهار. عينا كنة «نازو» الرماديتان كانتا وحدهما تحتفظان بشيء من سحر الليل.

كانت المدينة هناك فوق وحيدة بين فكّي الضباب اللذين كانا ينفتحان بشكل أخرق في كل مكان تقريباً. هناك كانت العجائز المسنّات. هناك كانت كل من جدّتي والخالة «دجيمو» في نافذتها ونظارتها المجرّحة على أنفها ترقب الطريق الكبرى متوقّعة ظهور الرجال ذوي الشعور الشقر. كانت بعض الدلائل قد ظهرت منذ أمد. والآن لم تعد تلك الدلائل تثير أي شكّ: كانت جدّتي والخالة «دجيمو» تستعدّان للحصول على لقب عجوز مسنّة. وكان يبدو أن الاجتياح الألماني ينبغي أن يكون

في نظرهما الدليل القاطع كما كانت بالنسبة إلى العجائز المسنّات غزوات الأتراك العرمرمية والمذابح التي حدثت على أنقاض الجمهورية والملكية والمجاعة التي استمرت أربعين عاماً.

قال «بيدو شريف»: «لنستأنف سيرنا، لم يبق علينا سوى بعض الطريق».

نهضنا. كنت نائماً تقريباً وأنا أمشي. كان نوماً مؤلماً متقطّعاً تمزّقه الاهتزازات التي كانت تحدثها في جسدي حُفَر الطريق. قال أحدهم: «ها قد وصلنا». فتحت عينيّ.

ـ وصلنا.

ـ أين؟

ـ هنا.

كنت قد فقدت الوعي.

ـ أجل إلى القرية.

ـ إلى القرية؟

ـ وأين هي؟

ـ هناك.

نظرت مشدوهاً. هكذا إذن، هذه هي التي يسمونها قرية. غريب! ظللت منذهلاً، ثم انفجرت بغتة بالضحك.

ـ ما بك؟ ما الذي أصابك؟

كنت أتلوّى. صاحت أمي: «يا لله، فقد ولدي عقله!»

نهرني أبي بحدّة: «ما الذي أصابك؟»

ـ ولكن... ألا ترون... تلك البيوت... هناك.

قال أبي: «كفى».

هـزّتني أمي وهي تمسـك بكتفيّ ثم طـوّقت عـنقـي بذراعها.

كان يبدو ما كنت أراه غير واقعي. وكـانت تلك البيوت المنخفضة، المنخفضة جداً، ذات الجدران المطلية بالكلس، تبدو لي وكأنها بيوت دُمى. لم تكن مرصوفـة الواحـد بجانب الآخر لتؤلف جانبـاً من الطريق، بـل منفصلة وكل واحـد منها لنفسه، والطامة الكبرى أن كلاً منها كان محاطـاً بقطعـة أرض محروثة وخمّ وأكوام من التبن وبيوت للكلاب.

كان القرويون ينظرون بدهش إلى زُمرتنـا الصغيرة التي كانت تجتاز أرضاً خلاء. وقد ركض ولدان أو ثـلاثة يختبئـون مذعورين خلف الأبواب. أخذت بقـرة تخور. ظهـر فلاحـون آخرون. كانت قسماتهم عذبة وشعورهم وضّـاءة وكانت تعبق منهم رائحة حليب. سُمع صوت جلاجل. وعبقت رائحة تبن. غمضتْ عيناي.

استيقظت بعد الظهر. كنت في حجرة عارية. وكان أبي يلصق أوراقاً إلى النوافذ مكان الزجاج المكسور، وأمي تنظف أرض الحجرة الملوّثة ببراز الدجاج الجاف. وقـد بدا لي كـل ذلك حزيناً.

بعد قليل جاءت امرأة «بيدو شريف» و«نازو».

ـ هه، استقررتم؟

زمّت أمي شفتيها.

ـ وأنتم؟

ـ كيفما جرى الحال. وجدنا بيتاً مهجوراً.

أطلقت امرأة «بيدو شريف» زفرة عميقة.

ـ كيف وصلنا إلى هذا الدرك!

خرجتا.

تملّكتني رغبة في البكاء. فقد ساورني فجأة الحنين إلى البيت. لقد حدث إذن ما لا يمكن إصلاحه.

نزل أبي إلى القبو ولم يلبث أن صعد. قال لنا: «حذارِ من إشعال نار. هناك تبن تحت. وإذا اشتعل احترقنا كالجرذان.»

جاء «مان فوتسو». كان قد نحل بشكل رهيب مذ شُنق «عيسى». سأل: «هل لديكم بعض الملح. نسينا أن نجلب منه معنا».

أعطته أمي ملحاً.

كان البويت الذي أقمنا فيه نحن مهجوراً أيضاً. كانت الحجرة الأخرى مهدّمة. نزلت إلى القبو لرؤية التبن. وما إن دخلت حتى بدر مني: «آو!»

لم أتلق جواباً. كانت تفوح من التبن الذي أقلقنا رائحة حرّيفة. رجعت إلى الحجرة وأنا أتساءل كيف قدّر لنا أن نعيش دائماً في بيوت تُخفي تحتها خطراً ما. فهناك في المدينة ماء الصهريج، وهنا خطر النار في القبو.

كنّا طوال النهار نرى لاجئين. كان بعضهم يتوقّفون في القرية حيث يقيمون مثلنا في بيوت مهجورة؛ ومعظمهم يتابعون

سيرهم إلى قرى أبعد. رأيت بين الناس الـذين مرّوا حـاملين صُرراً ومهوداً «كـاني كيكيزي». وكـان الهاربـون يتركـون في طريقهم مِزق جرائد وأعقاب سكائر وأخباراً. في المدينة قُتـل «جرجي بولا». كـان قد تقـدّم للمرة الـرابعة بـطلب من دوائر الأحوال الشخصية لتغيير اسمه إلى «جرغن بولو». (كان يقـال إنه إلى جانب الأسماء: «جورجيو» و«جورغو» و«جرغن» الذي لم يُفلح في حمله، كان يملك في احتياطه اسم «يوغورا» إذا حدث أن احتلّنا اليابانيون).

اجتـاز اللاجئـون القرى طـوال الليل. وقـد نمت نـومـاً مضطرباً تقـطعه طـائفة من صليـل الأجراس وأصـوات الخوار وطرقات على الأبواب.

كنت نائماً عندما سمعت صوت «دجدجو» القوي آتياً من الطريق: «أين أنتنّ يا صديقاتي العزيزات، لقـد بحثت عنكنّ في كلّ مكان. أين أنتن أيتها التعسات؟»

دخلتْ دخول الريح. هرعت امـرأة «بيدو شـريف» وأم «ايلير» إليها: «هه، ما الأخبار يا «دجدجو»؟»

أخذت «دجدجو» تذرع الغرفة طـولاً وعرضـاً ثم رفعت راحتيها إلى خدّيها: «يا إلهي إلى أية حال وصلنا! نركض في الطرقات كالغجر. ها نحن أولاء مشتّتين مثل أفراخ الغربان. ما هذا الخمّ؟ في أي مكان حشرتم أنفسكم! لماذا لا يقبض الله تعالى أرواحنا! يا للفظاعة!»

قالت امرأة «بيدو شريف»:

ـ حسناً، كفى يا عـزيزتي «دجـدجو»! إذا كنّـا نهيم في الطرقات فليس ذلك بمحض رغبتنا، بل أُجبرنا عليه. ولكن ما تحملين إلينا من أخبار؟

ـ بمـاذا أبـدأ؟ هـل سمعتنّ مـا جـرى لبنت «تشتشكـو كايل»؟ لقد هربت مع الطليان.

ـ مع الطليان؟

ـ في الأيام الأخيرة كانت لحيتها قـد نبتت حتى لكأنهـا لحيـة «الملاّ قاسم». وكان الحـلاّق يأتي كـل يـوم إلى بيتهـا وحقيبته حافلة بكل أنواع الشفـرات، تلك التي يصنعونهـا في بلاد الافرنج. لم يكن هناك من علاج آخر. وفي ليلة ليس بها قمر فرّت. يزعمون أن الحلاّق هو الذي دبّر الأمر. لقد ركبت في الشاحنة التي حملت فتيات الماخور.

أضـافت «دجدجـو» مثيرة الـدهشة في نفـوس الجميـع بالكلمات الطافحة بالأمل التي تلفّظت بها على غير عادتها:

ـ عسى أن يكون النحس المهول الذي أصاب المـدينة قـد ذهب معهـا. نعم، نعم، كـانت تلك الفتـاة ذات اللحيـة مجلبة للشؤم! لقد أحسنت بالرحيل.

لكن هـدوءها النسبيّ لم يـدم طويـلاً. فمـا هي إلا أن رفعت الصوت فأرسل وهو يمرّ بأنفها نوعاً من صفير خافت:

ـ لا، لا، لن يتخلّى عنا ذلك النحس! هـل سمعتنّ ما يقال عن «مقصود»؟ إنه جاسوس، نعم أيتها التعسة، جاسوس!

ـ جاسوس؟

ـ أجل، بالتأكيد. أفعى لابدة تحت الحجارة. لذلك ترك أمه وزوجته ترحلان وحدهما؛ إنه يخاف الثوّار. لقد اختبأ في مكانٍ ما. يقال إنه ينتظر الألمان. يرسل إليهم معلومات في الليل ويدلهمّ على الطرق المؤدية إلى المدينة. قد يكون هو الذي وشى بـ«عيسى».

شرقت أم «ايلير» بالدمع وقالت:

ـ آه! الكلب، الكلب!

أطلقت «دجدجو» زفرة كبيرة ثم قالت بصوت هادىء:

ـ لمّا يعثر «عبده بابارامو» على جثمان ابنه. إنه يهيم في الطرقات، المنكود. وأما الآن فإنه لم يعد وحده كذلك، فجميعنا نهيم في الطرقات.

رفعت «دجدجو» صوتها مضيفة:

ـ كاليهود! ما الجرائم التي ارتكبناها يا رب لتصبّ علينا غضبك هكذا! أُرسلت القنابل تتساقط فوق رؤوسنا، أنبتّ لنا لحية، فَجّرتَ الأرض ماء أسوَد، ماذا ستفعل بنا بعد!

استمـرّت تنخر بصوتها الأخنف، ثم بدا عليها التعب فخفضت قليلاً من نبرتها:

ـ ماذا أستطيع أن أقول لكنّ؟ لقد رحلنا كالمجانين. رجالاً ونساء محمّلين بالصُرر والمهود والقِصاع، عجّزاً وكلاباً وهررة، كانوا يفرّون كالمعذّبين في الأرض من غير أن يلتفتوا خلفهم. وبينهم «دينو تستسو» وطائرته فوق ظهره.

ـ طائرته معه؟

ـ أجل يا صديقاتي العزيزات، طائرته فوق ظهـره. كان أهله يتبعونه متوسلين إليه أن يترك الآلة في بيته مؤكدين له أنه لن يقـوى على حملها، وأنهـا ثقيلة جـداً، وأنهم قـد يـظلّون قابعين في الطريق... ولكنه لم يكن يريد أن يسمع. فهو لن يتخلى عنها للألمان بأي ثمن.

أسرعت إلى الخارج راجياً أن ألمحه حاملاً طائرته. كان الجـو بارداً. وكـان اللاجئـون قلّة ضئيلة. وكـانـوا يتقـدّمـون بمشقّة. عرفت صبيّين من حيّي. سألت:

ـ أين نزلتم؟

ـ في ذلك... هناك...

ـ وأنت؟

ـ هنا... في هذا...

لم يكن في وسعنـا أن نستعمـل كلمـة «بيت». وأخيـراً وجدت «ايلير». كان منذ مـوت «عيسى» دائم الوجـوم. نقلت اليه حديث «دجدجو» عن «مقصود». التمعت عيناه حقداً وقال لي:

ـ اسمع، سنقتل «مقصـود» لدى عـودتنا إلى المـدينة. موافق؟

ـ موافق. رأيت في البيت خنجراً قديماً كان لجدّي.

ـ مشحوذ جيداً؟

ـ نعم، جيداً جداً، وقد رسمت أيضاً على مقبضه بعض حروف تركية.

ـ سوف نراقب «مقصود» في الليل لدى عودته إلى منزله. أثب أنا إلى عنقه وتطعنه أنت.

فكّرت لحظة ثم قلت:

ـ الأفضل دعوته للعشاء وقتله أثناء نومه كما فعل «ماكبث». وبعد ذلك نملّح رأسه.

أضاف «ايلير»:

ـ سوف ندحرجه في السلّم لتنفقىء عينه اليمنى. ولكن على رسلك، كيف ندعوه نحن للعشاء. وأين سيكون ذلك؟

أخذنا نرسم خطة كاملة. كنّا نشعر بأننا سعداء تقريباً. مرّ «كاني كيكيزي» بنا. وبدا وجهه المدوّر الأحمر هادئاً نسبيًّا، ولكن كان بإمكان المرء وهو يدقّق النظر فيه أن يلمح بعض الخدوش التي حصلت حديثاً. قال «ايلير»:

ـ يا لهررة القرية المسكينة، لسوف يُقضى عليها.

ضحكت. كنت سعيداً بأني استعدت صديقي. وكان قد انتابني إحساس بأنه كان منذ موت «عيسى» قد كبر، وأنه تركني وحيداً. وها نحن ذان اجتمعنا من جديد.

كنّا ونحن نحوك مشروع القتل قد خرجنا من القرية من غير أن ندري. كانت الأرض مفروشة بطبقة من الصقيع. وحولنا كانت الأشجار التي كنا نجهل أسماءها، والطيور التي كنا نراها للمرة الأولى، وأكوام التبن المتفرّقة، والأرض المنكوتة التي ليّنتها سكك الفلاحة، وروث البقر، كانت كلها غريبة غير مفهومة. وكان بعض أبناء القرويين ذوي النظرات

الـوادعة ينـظرون الينا بحيـاء. كنت أرقب وجه «ايليـر» الذي استـطال، وشعره المشعّث الـذي يشبه العـوسج، وأقـول في نفسي إن مظهري لا بـدّ أن يكون كمـظهره. أخـذ الفلاحـون الصغار يتبعوننا. قال «ايلير»:

ـ هل لاحظت كيف أخفناهم؟ إننا مخيفون.

قلت:

ـ إننا قتلة.

أخرجت زجاجتي من جيبي ووضعتهـا على عيني وقلت بصوت عالٍ متوجّهاً إلى كومة اختُصـرت إلى نصف حجمها: «لا تستـطيع القـول إني فعلتها؛ لا تهـزّ في وجهي خصلاتـك الدامية.»

سأل «إيلير»: «ما الذي تهرف به؟»

ـ هذا ما سنقوله عندما يظهر لنا شبح «مقصود» بعد جريمة القتل.

قال «ايلير»: «يا للفرحة!»

كان الفلاحون الذين تبعونا يرتجفون. كنّا نسير الآن في أرض محروثة. سأل «ايلير» في شبه غضب: «وهذه الأرض، لماذا هي طريئة، ماذا فعلوا بها؟»

هززت كتفيّ وأجبت: «عمل فلاحين».

ـ عمل لا يُجدي نفعاً.

ـ أي نفع.

قال «ايلير»: «لنتحدث بالحري عن مشروعنا».

كان المنبسط الوادع المائل قليلاً مشرعاً لريـاح الشتاء. وكانت أكوام التبن المنتصبة هنا وهناك تزيـد على ما يبـدو من حدّة الشعور بالسكون. أخذنا نسير بينها ونحن نناقش تفاصيل جريمتنا. وبشكل آلي أفضى بنا المسير إلى الطريق الكبرى. كـان بعض اللاجئين يسيـرون بصحبة فـلاحين يسوقـون بغالاً أمامهم. وكان آخرون آتين من الجهة المقـابلة. وكانت امـرأة ممتقعة الوجه جالسة بمشقة كبيرة على ظهر دابّة. قال «ايلير»: «قريباً من هنا دير لشفاء الأمراض.»

رجعنا باتّجاه القريـة. وتبعنا فـريقاً من الـلاجئين كانـوا عـائدين على مـا قالـوا من الديـر الـذي دفعهم الفضـول إلى زيارته. وفي مواجهتنا كان آخرون آتين. سألهم الجمع الـذي انضممنا اليه: «إلى أين أنتم ذاهبون؟»

ـ إلى الدير لرؤية تلك اليد التي تجترح المعجزات.

ـ معجزات مدهشة! إننا آتون من هناك. هل تعرفون ما تلكم اليد؟ يد الطيار الانكليزي.

ـ يد الانكليزي؟

ـ هي نفسها بالخـاتم الذي في إصبعهـا كما كـانت من قبل. هل تذكر أنهم سرقوها من المتحف؟

ـ طبعاً أذكر. هذا إذن كل ما في الأمر.

ـ تحسنون بالعودة أدراجكم.

استـداروا على أعقابهم. أخـذنـا نمشي شـاردي اللبّ وسط الزُمرة الصاخبة. ثم أخذت المسافة تتباعد شيئاً فشيئاً بين

الحديث والآخر، وما هي إلاّ لحظات حتى لم يعد يُسمع غير صوت الأقدام.

قال أحدهم بصوت خافت: «هذه الذراع، لكأنها تتشبّث بنا.»

لم يُجب أحد. استأنف الصوت نفسه قائلاً: «آه! يا للناس المساكين! لو علموا أين يمكن أن تكون نهاية رؤوسهم وأيديهم!»

كنّا قد وصلنا إلى القرية.

في المساء انبعثت نيران من بعيد حيث ينبغي أن تكون المدينة. خرج اللاجئون وأخذوا يرقبون اللهب الشاحب وهم صامتون. كان الظّن أنهم كانوا يُحرقون منازل الثوّار. ومن خلال الظلام المنسدل والضباب كانت المدينة ترسل بمناديل اللهب البعيدة إشارات لم يكن أحد ليخمّن معناها.

وكنا نحن الأولاد الذين تسلّقنا أرضاً خلاء نصرخ بأعلى أصواتنا. «ذلك هناك، هناك فوق، إنه بيتي، بيتي الذي يحترق! هاها!»

ـ ليس هذا صحيحاً، إنه بيتي.

ـ ومَنْ من ذويكما انضمّ إلى الثوّار؟

ـ عمّي.

ـ أخي أيضاً أصبح ثائراً!

ثم قام الخصام بشأن ألسنة اللهب. كل واحد كان يدّعي

أن ألسنة اللهب المنبعثة من بيته كانت أعلى من الألسنة المنبعثة من البيوت الأخرى.

«وبيتي الذي يتصاعد منه كل هذا الدخان! ذات مرة وقد اشتعلت النار في المدفأة...»

- الدخان، هذا لا يُحتسب.

- سترون ما يجري عندما يحترق بيتي أنا.

- قلت بزهو:

- وعندما تحترق كتب جدّي التركية التي هي بثخانة البقلاوة؟

قال حفيد السيدة «مينور»:

- وعندما تشتعل جدّتي التي تحمل كل هذا المقدار من الشحم فذلك ما سوف يكون حلواً.

- بلا حياء! كيف تجرؤ على قول ذلك عن جدّتك.

- ولكنّها حليفة لرجال الأمن.

كانت أم «ايلير» تناديه: «ايلير! ايلير!»

إنطلقوا جميعاً واحداً تلو الآخر. ولدى عودتي شاهدت كنّة «نازو» جالسة وحيدة وسط فسحة خالية ومرتدية سترة بديعة بياقة من الفرو. وكان القمر قد ظهر للتوّ وبرز الرأس الجميل من الفرو الأبيض كالضباب. قالت لي: «مساء الخير».

- مساء الخير.

وضعت يدها على رقبتي ومرّرت أصابعها بعض الوقت في شعري الذي لم يقصّ من زمن طويل.

ثم سألتني بغتة: «ماذا سمعت عن «مقصود»؟

خفضت رأسي والتزمت الصمت. جمدت أصابعها لحظة على رقبتي ثم عادت فلطفت. قالت وهي تسرّح نظرها نحو الحرائق: «إنها تحترق. هل يؤلمك ذلك؟»

لم أدرِ ما أقول.

«أمّا أنا فأريد أن تحترق! كلّها! (رنّت «كلها» في أذني وكأنها غريبة عنها). عسى ألّا يبقى منها سوى أنقاض! أتحبّ الرماد؟»

كنت مضطرباً. قلت لها: «أجل».

في هذه اللحظة بدت لي عيناها في ضوء القمر وكأنهما طللان رائعان.

* * *

ولكن ما أنتم حتى إنكم لا تعرفون الطيور ولا الهشيم ولا الأشجار؟ من أين أتيتم؟

أتينا من تلك المدينة، هناك. الذي نعرفه نحن هو الحجارة. إنها كالناس، شابّة أو عجوز، قاسية أو دمثة، مصقولة أو خشنة، ذات أضلاع حادّة، ذات وجه وردي مغطى بالمسام، محزّزة بالشرايين، ماكرة أو ودودة حتى إنها لتمسك بقدمك الزالقة، خائنة تشمت لسوء طالعك، مخلصة تظل قروناً في الأساس كأنها في مركز حراسة، خرقاء أو مقطّبة أو متعجرفة، تحلم بأن تصبح شواهد قبور، متواضعة متفانية بلا

رجاء في جزاء، مرصوفة فوق الأرض في صفوف لا متناهية كالشعب، غُفْل، غُفْل حتى نهاية الدهور.

تتكلّم بجدّ أم تهذي؟

والآن ها هي ذي مثل الناس دامية بفعل المعارك.

ولكن ما تكون هذه المدينة؟ ما تكون هذه المدينة؟

إننا متشوّقون للذهاب إليها.

* * *

أحاديث مجهولين

. . . لا تحدّثني عن شعورهم الشقراء. من يدري ما يحملون تحت هذه الخوذات الحديدية. إنهم يسيرون. المعارك مسعورة في كل مكان. إلى أين نذهب هكذا في الظلمات؟ لم أعد أستطيع. ذات يوم سيكون الجو مشرقاً والسماء صافية. قال مندوب اسمه «أنور خوجا» إنه ستقوم الشيوعية. وداعاً أيها الرفاق! أنا ذاهب، عيشوا سعداء في ألبانيا الجديدة! خوذات، خوذات لا تحصى تسير على دروبنا. كم من جيوش وطئت هذه البلاد! حتى لو انبغى أن تنفجر المدينة بأسرها، بجسورها، وشوارعها ومنازلها، فأنا أعرف أنك انتظرتني. إلى أين أنت ذاهب؟ فوق الجبال، الثلج يتساقط. لا، ليست المسألة مسألة عملية جراحية، ليس الأمر تمزّقاً في البطن أو في الصدر. سوف يتذكر الناس هذه العملية على أنها عملية الألمان الشتوية. وسوف تتلوّى ألبانيا من

الألم. لقد ظهر قَدَر هذا البلد أول ما ظهر في كل زمان فوق ذرى الجبال كما تظهر الشمس. الجو بارد. حدّثني عن الشيوعية. يا للسماء الصافية الأديم!

١٨

في الفجر، هناك بعيداً، استيقظت المدينة منعزلة ورمادية. ولم تكن حرائق الليل قد غيّرت مظهرها. كانت ضائعة في البعيد، ولكن كان مصير الجبال والقرى والوديان وكل ما يحيط بها مرتبطاً بمصيرها. وإذا ارتفعت نار فهي إشارة خطر على المنطقة بأسرها. وها هي ذي الآن، نصف مهجورة وشبيهة بمدينة من مدن ما قبل التاريخ توقّفت فيها الحياة منذ أمد طويل، تنتظر وصول الألمان.

كانت الطريق التي يجب أن تقودهم (كما قادت من قبل عدداً من الجيوش) تختلج طالبة الصفح عند قدميها. ولكن المدينة المزهوّة المتعالية كالعهد بها دائماً لم تتكرّم عليها ولو بنظرة. لقد كانت ترقب الأفق من نوافذها الكدرة.

في البدء لم يعرف أحد ما جرى عندما بلغت الطليعة الألمانية أبواب المدينة. لم يُعلم ذلك إلا فيما بعد. فلقد استُقبلت برصاص البنادق وبالقنابل اليدوية. وعاد الدرّاجون الذين بقوا أحياء كالبرق الخاطف من حيث جاءوا. وبقيت

الطريق بعض الوقت مقفرة غارقة في صمت عميق. لقد حافظت المدينة على العُرف، وهي الآن تنتظر بهدوء انتقام العدو.

لم يلبث أن ظهر. وكان قد وضع دبّاباته في المقدّمة هذه المرة. كانت قارعة الطريق سوداء منها. لم تدخل المدينة بل توقفت على الطريق واتّجهت أنابيب مدافعها الطويلة وحدها ببطء صوب المدينة. انتظر الألمان بعض الوقت آملين أن يرتفع علم أبيض. ولكن بقي كل شيء رمادياً.

عندها بدأ القصف. كان قرعاً ثقيلاً رتيباً. وملأ ضجيج المعدن المصطدم بالحجر الوادي بأسره. وكانت قطع من جدران وسطوح وأجزاء من منازل ورؤوس مداخن تتطاير في كل اتّجاه. وكان غبار رمادي يغطي كل شيء. وقُتل رجلان كانا قد حاولا رفع علم أبيض فوق أحد البيوت برصاص الذين قرّروا عدم الاستسلام. وأصيب آخر كان يزحف على أحد السطوح ساحباً غطاء كبيراً أبيض في اللحظة التي حاول فيها نشره. وانهار فوقه ملتفّاً به كالكفن وهو يتدحرج على منحدر السطح. قبل أن يسقط على الأرض.

استمر القصف ثلاث ساعات. وأخيراً، في خلفية الموت الرمادية، تمكّن أحدهم من رفع شيء أبيض. لم يعرف أحد من كان ذلك الذي انتصب كالشبح فوق المدينة ليسقط على التوّ في الهاوية بعد أن لوّح بشيء أبيض ناحية الألمان. ولم يُعرف ماذا كان، أكان علماً أم منديلاً أم مجرّد خِمار. الذي عُرف هو أن

هذا الشيء الأبيض قد ظلّ يخامر الأذهان زمناً طويلاً.

لقد اكتشف الألمان الذين كانوا يراقبون الأمكنة بالمنظار المقرّب على ما يبدو تلك البقعة التي انفصلت عن سديم الغبار والأنقاض. فتوقّف القصف. وأدارت الدبابات مدافعها وأخذت تصعّد باتجاه المدينة. كانت الأرض برُمّتها ترتعش. وكانت الزناجير وهي تسلخ البلاطات الضخمة تئنّ وتُعوِل وتقدح الشرر. وملأت الفضاء فرقعة جهنمية. لقد اجتيحت المدينة شبه المهجورة.

وقد عُلم فيما بعد أنه في الوقت الذي كانت فيه الدبّابات تصعّد في الطريق وهي تهدر كالوحوش كانت الأم «دجيمو» والعجوز «شانو» تتحدّثان من نافذتيهما في شارع «الجسور الكبرى». قالت الأولى: «لماذا يحدثون كل هذا الضجيج؟ كان في وسعهم أن يدخلوا على كل حال من غير هذه الفرقعة.»

أجابت الثانية: «جميعهم يضجّون كثيراً عندما يدخلون، ولكنهم لا يُسمع لهم هسيس وهم يرحلون.»

في الأصيل وجدت المدينة نفسَها، بعد أن كانت قد ارتسمت بمرّ العصور على الخرائط بوصفها ملكية للرومان والنورمانديين وبيزنطية والأتراك واليونانيين والطليان، وهي تستقبل المساء داخل الأمبراطورية الألمانية. وإذ كانت خائرة مصروعة من هول الصدمة فإنها لم تكن تُبدي أي دليل على حياتها.

أقبل الليل فبدت الأرض صمّاء بعد ذلك الهدير الذي

كان قد تدفّق أمواجاً على المنطقة بأسرها. وفي هدأة السكون المستعاد ظلّ آلاف الفارّين المنتشرين في الريف المجاور، وكانوا قد تابعوا بعيونهم وآذانهم ما كان يدور في موطنهم، واقفين هناك وكأنهم تحجّروا.

ماذا كانت المدينة تفعل في الوقت الحاضر هناك في الظلمات وحدها مع العدو؟ ينبغي حسب التنبؤات أن تكون هذه آخر سنة لها في وجودها الدهري. لقد جاء أخيراً الرجال ذوو الشعور الشقراء.

في القرية التي لجأنا إليها لم تغمض لأحد تقريباً عين طوال الليل. لقد بقينا جميعاً في الخارج واقفين صامتين. والذين كانوا قد دخلوا منا ـ وهم قلّة ضئيلة ـ للاستراحة لحظة في البويتات كانوا لا يلبثون أن يخرجوا مشتملين في أغطية. لم يكن أحد يرفع صوته. وكانت أنظار الجميع سارحة في الإتجاه الذي كانوا يعتقدون أنهم لا بدّ واجدون فيه المدينة. كانت غارقة في الظلام. وكانت مخالب الدبّابات الفولاذية ناشبة في صدرها. لم يكن هناك أدنى نور. ولا إشارة. كانوا يخنقونها في الظلمات.

لكنّ النهار طلع وهي لا تزال هناك. رمادية كالعهد بها وكبيرة. كان أحدهم يبكي. وكانت كلمتان تسريان من جميع الأفواه: «هذا المساء». » كنا قد قرّرنا أن نعود.

تركنا القرية عند انقضاء النهار. وكانت زُمرتنا تضمّ الأشخاص الذين كانت تضمّهم وقت الرحيل. «دجدجو» فقط انضمّت إلينا. كنا نمشي صامتين تاركين خلفنا أكواماً من التبن

كانت تتفتّت على طريقنا. كانت تبـدو وكأن لديها ما تقوله لنا، ولكن أمراً كان يمنعها من قوله. لقد كنا أغراباً.

في تلك الساعات كان الفارّون يعودون إلى المدينة وقد جاءوا زُمَراً صغيرة من كل صوب. لن تلبث القوقعـة الضخمة شبـه المقفرة أن تمتلىء بعـد سـاعـات بـالخـطى والهمسـات والأهواء والاغتيابات والآمال والأحزان.

كنا نتقدّم بلا توقّف. وقـد مـرّ وقت لا بـأس به منـذ أن تجاوزنا آخر كومة. قالت «دجدجو» فجأة وقد تـوقفت: «لنعد أدراجنا، لقد جلجلت أُذُني اليمنى».

لم يفُه أحد بكلمة. تابعنا طريقنا. غمغمت «دجدجـو» بعض الوقت ثم صمتت. كان الوقت في أغلب الظن منتصف الليل. لم يكن المرء يميّز شيئاً حـواليه. كـان يحسّ فقط بأن ثآليل كبيرة وأوراماً قد نبتت أثناء الليل في بعض الأماكن. ربما كانت تلالاً أو صخوراً.

لا بدّ أن يكون الوقت قد جاوز منتصف الليل حين أوغلنا في السهـل. مشينا طـويلاً. وكنـا قـد اجتـزنـا ولا ريب أرض المطار. وبرز شكل أسود إلى جانبنا. إنه هيكل الـ «بولدوغ». شممت رائحة حرّيفة. لا بدّ أن يكونوا قد استعملوه مرحاضاً.

سألني «ايلير»: «أتذكر الموضع المخبّأ فيه خنجرك؟»

أجبت: «نعم».

توقفنا لالتقاط أنفاسنا. ذهبت أنا و «ايلير» للتبوّل قـرب

الطائرة المحطّة. ما كنت أبداً لأصدّق، فقد طلع الفجر. أخذ محيط المدينة يرتسم شيئاً فشيئاً بشكل مختلط. كانت تنتصب أمامنا وكأنها أبو الهول. كنا لا نـزال في حيرة من أمـرنا. هـل سندخلها؟ وكانت تطفو من السديم المظلم المداخن فالسطوح فالنوافذ. وكانت سهام المآذن وقبب الأجراس وأعالي البيـوت المكسوّة بالصفيح تبدو وكأنها مجانين يعتمرون خوذات قديمة العهد ويهيمون بين السطوح.

قرّرنا الدخول. اجتـزنا الجسـر القائم فـوق النهر (كـان مركز حراسة السدّ قد هُجر) وخضنا في الطريق. لم يكن هناك ألمان في أي مكان. ربما كانوا قد لجأوا إلى الحصن.

مشينـا بعض الـوقت في أراضٍ بـور. وبغتـة ظهــرت المدينة قريبة جدّاً منّا. كانت سحنتها سحنة ازدراء. وربما كانت مستاءة قليلاً لأنها هُجرت. كانت علامات الضربات التي تلقّتها بادية في كل مكان. واجهات بيوت مثقّبة وشُرُفات مُنْتَزَعة.

لاحظنا على أول عمودٍ من أعمدة التلفون بقعة بيضاء. وإذ اقتربنا اكتشفنا أنها كانت إعلاناً. كان الجو لا يزال معتمـاً وكنا نجد مشقّة في تمييز الحروف: «آمر... القبض على... شخـ... ميت... ثلاثـة... أعدمـوا بالـرصاص... كمـا أن... قائد الحامية «كورت فولرسي»

صعّدنا في شارع «فاروش». كان وميض شاحب يرتجف في نافذة مسجّل الوقائع. وأحسست فجأة وكأن يداً كانت تشدّ رأسي وتلصقه إلى جسد. «لا تنظر إلى هذا».

كان شكل داكن ينفصل على جانب من الطريق. مثل جسد متقوقع. لم أر جيّداً ما كان. وأحسست برغبة في التقيّؤ.

وإذ بعُدنا لم يمنعني أحد من النظر. كنا نتقدّم كالمخدّرين. كان على الطريق جثّتا إيطاليين. وأبعد قليلاً ثالثة.

كان المشنوق يُرى من بعيد. عند المفترق. فوق عمود التلفون. وعندما اقتربنا اكتشفنا أنها امرأة. عجوز. أطلقت «دجدجو» صهيلاً خافتاً.

قال «ايلير»: «الأم بينو».

كانت هي. كان جسدها الناحل يترجّح مع الريح. وكان على صدرها مستطيل من القماش الأبيض كتب عليه بألبانيّة مُؤلمنة كلمة «مخرّبة»

حثثنا الخطى. ذلكم هو زقاقنا. بيتنا. كانت أمي قد سحبت سلفاً المفتاح الكبير من جيبها. بضع خطوات أخرى. ولكن هناك جسد ممدّد على بلاط الشارع. عند رأسه بركة من دم. على صدره ورقة عليها بضع كلمات. ندت عن «نازو» صرخة مخنوقة. «مقصود». الزوجة الشابة تنظر إلى جثة زوجها بلا مبالاة وتحاذيها بحذر وكأنها كانت تخاف أن تتلوّث بالدم. أما أنا فلم استطع أن أرفع عينيّ عن الورقة. قرأت فيها: «هكذا سيموت الجواسيس». لقد عرفت هذا الخطّ ذا الحروف المائلة إلى أمام وكأنها تركض خلل الريح والمطر. إنه خط «جعفر».

قالت «دجدجو» قبل أن تغيب في الأزقة: ستحدث أمور فظيعة».

تفرّق الجمع وأخذت «نازو» وكنّتها تجرّان الجثة إلى الباب.

ما إن دفعت أمي بالمفتاح في الثقب حتى انفتح المصراع من تلقاء ذاته. ظهرت جدّتي وكأنها شبح. قالت بصوت منخفض: «ادخلوا، ادخلوا».

دخلنا. قالت: «كنت في انتظاركم».

ـ «مقصود»، هناك... أمام.

ـ أعرف. قتلوه الليلة الماضية.

ـ الأم «بينو»...

قالت جدّتي أيضاً: «أعرف. شنقوها أمس»

صعدنا إلى الطبقة العليا. «كانت ذاهبة لتزيين عروس وتمشيطها. اوقفتها دورية في الشارع.»

قالت أمي بدهشة: «لا يزالون يتزوجون في هذه الأيام؟»

قالت جدّتي: «يتزوجون في كل وقت.»

ـ يا للجنون!

قالت جدّتي: «يبدو أن أدواتها هي التي أثارت الشكوك. لقد اعتقدوا أن لهذه الأشياء وتلك الأسلاك المعدنية علاقة بالألغام، أو هذا على الأقل ما يُقال.»

نظرتُ من النافذة إلى الخارج. كان الجو بارداً. أطلق

مصباح كشاف مخيف حزمة من الضوء ثم انطفأ. إحتلال ألماني. تدرّج ألوان على الزجاج. توتونيّون. كان علمهم يخفق فوق برج السجن. حرف (s) أو حرفا (z) قد شوّهتهما الريح.

في الخارج كان يُسمع صوت «نازو» وكنّتها اللتين ما تزالان تجرّان جثة «مقصود».

قالت جدّتي وهي تضع يدها على رأسي: «سوف تكون حرباً لا هوادة فيها.»

تعالى من الشارع صوت خطى يُجهد في إخفائه. قالت: «إنهم يعودون. لقد رجعوا فِرَقاً طوال الليل.»

كان لحم الحياة الطريّ يملأ من جديد قوقعة الحجر.

* * *

مشروع لوحة تذكارية

بعد زمن طويل عدت إلى المدينة الرمادية الخالدة. لقد حطّت قدماي بخجل على ظهر شوارعها المبلّطة. حَمَلَتْني. أيتها الحجارة، لقد عرفتِني. كثيراً ما حدث لي وأنا أذرع البولفارات الواسعة المضاءة في مدن غريبة أن تعثّرت حيث لم يكن أحد يتعثّر. كان بعض المارة يلتفتون دهشين، ولكني كنت أعلم أنه أنتِ. كنت تنبثقين بغتة من الأسفلت لتعودي فتغوصي على التّو فيه، عميقاً عميقاً.

شارعي، الصهريج. بيتي القديم. عوارضه الخشبية،

أرضيته الخشبية، سلّمه الذي كان يطقطق طقطقة خفيفة، خفيفة جداً بصوت جافّ رتيب متواصل تقريباً. ما بالك؟ أين يؤلمك؟ كان يبدو أنه يشكو آلاماً في عظامه، في أطرافه الدهرية.

جدّتي لأبي «سلفيدجي»، «دجدجو»، الخالة «دجيمو»، جدّتي لأمي، الأم «بينو». لم تعد أية واحدة منهن حيّة ترزق. ولكني ظننت أني كنت أرى في زوايا الشوارع بعض الملامح المألوفة، كالملامح البشرية، ظلال وَجَنات وعيون. إنها هنا، خالدة متحجّرة تحمل البصمات التي تركتها فوقها الهزّات الأرضية أو فصول الشتاء أو الكوارث البشرية.

«تيرانا»، ١٩٧٠

قصة ملحميّة بُنيت في مجملها على استخدام المؤثرات الخارقة لتصوير مدينة ألبانية في إبّان القرن العشرين. مدينة عجيبة مائلة بشكل مهول. مدينة لو قدّر لامرىء أن ينزلق على جانب أحد الشوارع فيها لأوشك أن يجد نفسه فوق أحد سطوح منازلها. ولو مدّ ذراعه بقبعته لتمكّن من تعليقها على رأس احدى المآذن.

ومع ذلك فإنها تُخفي تحت قوقعتها الحجرية القاسية لحم الحياة الطريّ وما يساوره من آمال وأحلام، من حبّ وكراهية، من أفراح وأحزان، من خوف الموت والتشبّث بأهداب الحياة، من وطنية وخيانة الخ...

أضف إلى ذلك جوّاً من المفاهيم البالية القائمة على تدخّل أعمال السحر في تصريف حياة الناس وجلب الكوارث على المدينة، وعلى تحريم الحبّ بين المرأة والرجل ومعاقبة البنات الحوامل سفاحاً بالموت خنقاً أو إغراقاً في إحدى الآبار.

إنه لم يكن من السهل، وسط هذا الخضم من المفارقات، أن يكون الإنسان «ولداً» في تلك المدينة العجيبة!

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت